رواية

أنجليك

غيوم ميسو



نوفل

رواية

أنجيليك

غيوم ميسو

نقلته من الفرنسيّة سمر معتوق

نوفل

صدرت في تموز 2023 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Mark Owen / Trevillion Images ©**

تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **حنين جعفر**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-06-0128-4
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-06-0129-1

Original title:
*Angélique*by Guillaume Musso
© Calmann-Lévy, 2022

إلى ناتان وفلورا

«يشغل اهتمامي عدم الرضى عن ذلك الجانب المُحبط أبدًا من ذواتنا الذي يودّ لو يكون مختلفًا، ليس بالضرورة أفضل، فقط مختلف».

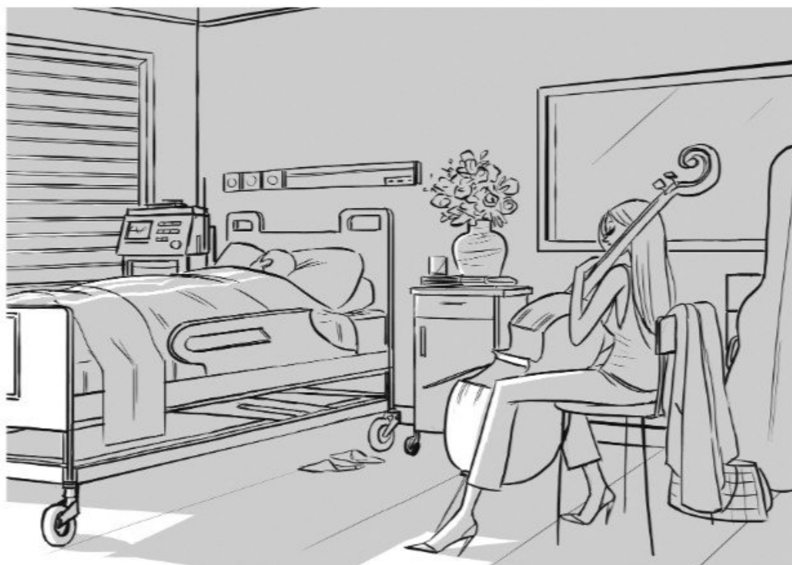
باتريشيا هايسميث

«أبحث عن أسلوب، لا يكون محايدًا فحسب، بل يوائم تفكير شخصيّتي في تلك اللحظة. أسلوب يتواءم طوال الوقت ويتغيّر تبعًا لأفكار بطلي».

جورج سيمنون

.I

لويز كولانج



1

فتاة التشيلو

«لا نلتقي إلّا إذا اصطدم بعضنا ببعض [...]».

غوستاف فلوبير

.1

باريس.

مستشفى بومبيدو.

الاثنين 27 كانون الأوّل/ديسمبر.

فجوة من الضوء في سماء مضطربة. تلك هي الصورة التي ولّدتها الموسيقى في رأسه. ترسم الجملة الموسيقيّة الطويلة لآلة التشيلو تموّجات مُنوّمة تحثّ على الاسترخاء. غارقًا في شبه غيبوبة، يشعر ماتياس بوتيرة نفَسه تتغيّر لتتكيّف مع إيقاع اللحن. ثمّ لا يلبث أن يستسلم لهذه الرحلة الداخليّة، تؤرجحه النغمات ويغمره سكونٌ لم يعرفه منذ فترة طويلة. كانت التوهّجات والأحاسيس تتدفّق من جديد. زرقة البحر الأبيض المتوسّط، الأجساد المتكاسلة على الرمال، القبلات المالحة على الشفاه.

بيد أنّ هذا النعيم لن يدوم طويلًا. فالسماء المُلبّدة بالغيوم تنذر بعاصفة قريبة. مشاعر متنافرة تتشابك، تعايشٌ مقلق بين اللامبالاة والاحتراس. فجأةً، انقطع الانسجا م، كما لو أنّ قوس الآ لة انزلق على الأوتار واندثر معه كلّ أمل باللذة.

فتح ماتياس تايفر عينيه.

كان مستلقيًا على سرير في المستشفى، مكتسيًا بأحد تلك القمصان القطنيّة الباهتة المروّعة التي تكشف عن مؤخّرة كلّ من تستّر بها. في ذراعه قسطرة مغروسة وُصل بها أنبوبان لنقل السوائل إليه، وعلى يساره جهاز تخطيط القلب الذي يظهر نبضات قلبه السريعة. رفيقه في الغرفة، الكهل على السرير المجاور، لم يكن قد استفاق من غفوته بعد. كلّما نظر إليه خالجه انطباع رهيب بأنّه وُضع في ركن الرعاية التلطيفيّة بدلًا من قسم أمراض القلب. حلّ الصوت المتقطّع والكئيب للمطر محلّ صوت التشيلو الدافئ والنابـض بالحياة . وعوضًـا عـن المتوسّط ، أغر ق الاكفهرار الباريسيّ كلّ ما حوله بالظلام. كانت الموسيقى في منامه قد حملته، لبرهة، بعيدًا عن المستشفى وأجوائها، غير أنّ ذلك الملاذ سرعان ما اندثر .

حياة لعينة.

بصعوبة بالغة، عدّل ماتياس وسادته ليستقيم نصف استقامة. وإذا به يراها، مغمورة جزئيًا بالظلّ: فتاة شابّة، جالسة بشكل منتصب على كرسيّ، وبين ساقيها آلة تشيلو. إذن، لم تكن الموسيقى نابعة من خياله. سألها متلعثمًا:

– من أنتِ؟

– أُدعى لويز. لويز كولانج.

بدا له من نبرة صوتها أنّها في آخر سنوات المراهقة، لكن لم يبدُ عليها الوجل البتّة.

– وماذا... ماذا تفعلين في غرفتي، يا لويز كولانج؟ أتعتقدين أنّها المكان المناسب للتدرّب على حفل المدرسة؟

– أنا متطوّعة في جمعيّة «موسيقيّون في المستشفى».

أخذت تدنو منه، فزمّ ماتياس عينيه ليراها بشكل أفضل. شعر أشقر طويل وناعم يحيط بوجه بيضويّ، غمّازة على الذقن، كنزة بالياقة المُسطّحة (كول كلودين)، تنّورة بأطراف واسعة مخمليّة، وجزمة من الجلد. شعلة أضاءت الظلمة التي خيّمت على سبات المستشفى.

– ألم تعجبك؟

– مقطوعة شوبرت؟ لا، لقد آلمت أسناني... وشعري.

– أنت تبالغ.

– ... وأيقظتني.

هزّت لويز كتفيها مُنزعجة.

– في العادة، يقدّر الناس هذه المبادرة.

– يقدّر المرضى أن يأتي أحد ويزعجهم في غرفهم في المستشفى؟

سحبت الفتاة الكرسيّ الجلديّ الأحمر بجانبه لتجلس عليه، ثمّ أوضحت:

– يُسمّى ذلك التحفيز الحسّي المضادّ للتوتّر. فالموسيقى تلهي المريض وبالتالي تخفّف من آلامه.

همس وهو يهزّ رأسه:

– هذا هراء. أتظنّين نفسكِ طبيبًا؟ أين قرأتِ ذلك؟

– في كتب الطبّ، طبعًا. أنا طالبة في السنة الثانية.

– ولكن كم عمركِ؟

– سبعة عشر عامًا. لقد تخطّيت صفّين.

إن كانت تحسَب أنّها ستثير إعجابه... فتايفر ظلّ باردًا كالثلج. رأى في انعكاسات مقابض سريره المعدنيّة من الكروم أشلاء متحرّكة من وجهه المُتعب: شعر كثّ، صدغان رماديّان، لحية لم تُحلق منذ أسبوع، عينان زرقاوان دكناوان نهشهما الإرهاق.

– حسنًا لويز، بما أنّك أنهيتِ حفلتكِ الصغيرة، يمكنكِ أن تغادرينا الآن.

أشار إلى السرير المجاور بإيماءة من ذقنه قبل أن يتابع:

– لا أظنّ أنّ لموسيقاك أدنى فرصة لإخراج جدّو هنا من تأثير الفورمول.

– كما تريد.

بينما كانت الفتاة تعيد آلتها الموسيقيّة إلى علبتها، أخذ تايفر يفرك جفنيه، منهكًا. كان قد نُقل إلى المستشفى في اليوم السابق بعد تعرّضه لنوبة قلبيّة بسيطة على ما يبدو، لكنّها تطلّبت سلسلة لا يُستهان بها من الفحوصات نظرًا لتاريخه الصحّي ولخضوعه لعمليّة زرع. إذا جاءت نتائج الاختبارات جيّدة، فمن المحتمل أن يتمكّن من الخروج في اليوم التالي. بانتظار ذلك، عليه أن يعيش بضع ساعات أخرى في هذه الغرفة المشؤومة حيث يطفو شبح الموت.

لم يكفّ عن التفكير في كلبه الذي بقي بمفرده في المنزل، وفي الطقس النتن الذي حلّ على باريس مع نهاية هذا العام: أسابيع من الفيضانات والجوّ المكفهرّ، أفق

مسدود طال أمده لدرجة أعطته انطباعًا بأنّ الربيع لن يعود أبدًا. والآن، هذه الفتاة التي لم ترغب في المغادرة...

– هل ما زلتِ هنا؟ صاح بها.

– دقيقتان! إنّني أرتّب أوراقي.

– أليس لديكِ ما هو أفضل من المجيء ولعب دو ر جاكلين دو بري في المستشفيات؟

هزّت لويز كتفيها.

– من هي جاكلين دو بري؟

– ابحثي عنها على الإنترنت. حقًّا، غادري هذا المكان الكئيب وقومي بما يتناسب مع عمرك.

– وما الذي «يتناسب مع عمري»، برأيك؟

– لا أعرف. اخرجي مع صديقاتك، تسكّعي مع الفتيان، اشربي حتّى الثمالة...

– ملهمٌ جدًّا.

خشّن صوته وقال:

– حسنًا، هيّا الآن، إلى الخارج. اذهبي إلى المنزل إن لم يكن لديكِ أصدقاء أو صديقات.

– كم أنت غير ودود!

– لكنّكِ أنتِ من أتيتِ لتعكّري مزاجي! رفع صوته غاضبًا.

حرّكت قرقرة طويلة أحشاءه. وضع يده على بطنه وبدت على ملامحه أمارات الاستياء.

– فضلًا عن أنّني أتضوّر جوعًا. هاكِ، إن كنت تريدين أن تكوني نافعةً حقًّا، فحاولي أن تجدي لي شيئًا أبتلعه قبل أن تغادري.

– سأطلب ذلك من الممرّضات.

– لا، لا، إيّاكِ! لا أريد الكومبوت المقيت الذي يعدّونه. ثمّة مقهى في بهو المستشفى اسمه «روليه أش». أحضري لي شطيرة لحم الخنزير والزبدة أو الخبز السويديّ بسمك السلمون.

– ما رأيك بكأسٍ من البيرة أيضًا؟ أذكّرك بأنّ الملح مضرّ للقلب.

– افعلي ما أطلبه منكِ، رجاءً. سيسعدني ذلك أكثر من عزفكِ لمقطوعة شوبرت.

تردّدت لويز، ثمّ قالت:

– هل تبقي عينيك على آلتي؟

أومأ برأسه إيجابًا.

– لا تقلقي.

.2

بقي تايفر وحده في الغرفة مع «جدّو». نظر إلى ساعته، لم تكن الساعة بلغت الرابعة بعد وكانت السماء قد بدأت تظلم. قرّب يده إلى مستوى الندبة الكبيرة التي قسمت صدره إلى نصفين. خمس سنوات ونصف مرّت وهو يعيش بقلب شخص آخر. كان أثر الجرح قد خفّ بمرور الوقت لكنّ الخوف من أن يخذله قلبه البديل يومًا ما بقي حاضرًا. أغمض عينيه. في اليوم السابق، بالقرب من قفران النحل في حديقة مونسوري، ظنّ فعلًا أنّ ساعته أزفت. شعر فجأة بحريقٍ حادّ في صدره ثمّ، كأنّ مِلزَمة تضغط على قلبه. امتدّ الألم إلى فكّه فراح يترنّح، مصابًا بالغثيان ولاهثًا لالتقاط أنفاسه، كما لو أنّه خاض للتوّ سباقًا للمسافات المتوسّطة.

لم يتمالك نفسه إلّا في سيّارة الإسعاف التي أقلّته إلى بومبيدو. الفحوصات والتحليلات الأوّليّة جاءت مُطمئنة إلى حدٍّ ما، لكنّ الخوف لم يفارقه. كان المستشفى يرعبه. جوّه المشؤوم، وطعامه المقرف، ومعاملة موظّفيه الطفوليّة للمرضى، والمبولة البلاستيكيّة والمخاطر العالية لالتقاط عدوى المستشفيات. لم يستطع التخلّص من الاقتناع المغروس في رأسه بأنّنا قد ندخله أحيانًا لسببٍ تافه فنخرج منه مُحمّلين على نعش.

– ها هي وجبتكَ!

استفاق تايفر من سباته. كانت لويز كولانج تلوّح أمامه بكيسٍ ورقيّ.

– أحضرت لكَ طبقًا من الخضار، هذا أفضل لصحّتك.

قالت ذلك وهي تُخرج السلطة من العلبة، مُشعلةً غضبه:

– أتسخرين منّي؟ لمَ فعلتِ هذا؟ طلبتُ منكِ سمك السلمون أو...

– هدّئ من روعك، الخضار لي. ها هي شطيرتكَ!

نظر إليها شزرًا – هذا النوع من المزاح لا يضحكه – وفتح غلاف وجبته متذمّرًا. ثمّ أكّد وهي تهمّ بالجلوس على الكرسيّ المجاور له:

– لا تشعري أبدًا بأنّك ملزمة بالبقاء معي.

– هل أنت شرطيّ حقًّا؟

قطّب جبينه. من الواضح أنّ يومه سيكون طويلًا.

– من أخبركِ بذلك؟

– سمعتُ الممرّضات يتحدّثن عن ذلك. قلن إنّك تعمل مع فرقة مكافحة الجرائم.

هزّ تايفر رأسه.

– كان ذلك في حياةٍ أخرى. مرّت خمس سنوات منذ أن تركتُ الشرطة.

– كم عمرك؟

– سبعة وأربعون.

– ما زلت شابًّا على التقاعد.

ردّ وهو يقضم خبزه السويديّ: «هكذا هي الحياة». لكنّها تابعت بإصرار:

– ما الذي أصابك؟ هل تركت بسبب مشاكل القلب؟

– هذا لا يعنيكِ البتّة.

– وماذا تفعل في الوقت الحاليّ؟

تنهّد قائلًا: «أستمع إليكِ تتحدّثين. أتحمّل استجوابكِ لي متسائلًا عمّا فعلته لأستحقّ هذا».

– أنت لست ودّيًّا على الإطلاق.

– أؤكّد لكِ ذلك.

أنهى شطيرته بصمت قبل أن يخاطبها بحزمٍ أكبر:

– اسمعي لويز، من الواضح أنّك شابّة رائعة، لكن لا أحبّ أن يضايقني أحد. قد يجذب عملك التطوّعيّ حتمًا اهتمام الناس... بعيدًا عنّي في هذا الرواق. من ناحيتي، لا أكترث البتّة بحياتكِ، وبحالاتكِ النفسيّة وبكلّ ما يمكنك أن تخبريني به. وخلافًا لما قد أبدو عليه، لستُ رجلًا لطيفًا أبدًا. لذا، سأطلب منكِ بأدبٍ وللمرّة الأخيرة أن تغادري غرفتي، وإلّا...

فقاطعت حديثه:

– وإلّا ماذا؟ ستتّصل بالممرّضة؟

– وإلّا فسأنهض وأخرجكِ بنفسي، أجاب بهدوء. هل هذا واضح؟

– إن كنت عاطلًا من العمل، فقد أستطيع أن أقدّم لك فرصة عمل.

صرخ قائلًا: «أنا لا أبحث عن عمل! أبحث عن الراحة!»

– أستطيع أن أدفع لكَ. أملك بعض المال، لعلمك.

مذهولًا بشجاعتها، ثبطت عزيمة تايفر للحظة. بجانبها المزعج والدبق، كانت الفتاة كناية عن فرانسوا بينيون [1] ، بصيغة المؤنّث. مصدر إزعاج وجب فعلًا التخلّص منه، ولو باستخدام القوّة المسلّحة.

– أريدكَ أن تتحرّى عن موت والدتي.

– وهذا شيء آخر...

– ماتت قبل ثلاثة أشهر.

– آسفٌ لأجلك.

أومأت لويز برأسها فشعر تايفر بضرورة المتابعة:

– كيف ماتت؟

– وفقًا للشرطة، في حادث.

– ووفقًا لكِ؟

– أعتقد أنّها قُتلت.

في تلك اللحظة، دفعت ممرّضةٌ باب الغرفة للمتابعة الروتينيّة. تحقّقت من المصل والمؤشّرات الحيويّة على جهاز المراقبة، ثمّ من تشبّع الأوكسجين على مقياس التأكسج النبضيّ، وهي تبادل تايفر بعض الكلمات بطريقة آليّة. أراد هذا الأخير اغتنام الفرصة ليطلب منها أن تخلّصه من الفتاة المزعجة، لكنّه اختار الصمت في النهاية. ما إن توارت الممرّضة عن الأنظار حتّى استأنفت لويز حديثها:

– أودّ منكَ أن تلقي نظرة على الملفّ، وأن تجري بعض المكالمات الهاتفيّة، وأن...

– لكن، عن أيّ ملفّ تتحدّثين؟

– ابدأ بقراءة المقالات الإخباريّة عن وفاتها. اكتب اسمها على الإنترنت.

– الأمر غير وارد.

– سيستغرق الأمر ساعتين من وقتك. ويمكنك أن تطلب منّي أيّ شيء في المقابل.

شعّ بريق ذكاء في عينَي الفتاة. شعاعٌ ساطع وحريص.

– أيّ شيء، حقًّا؟

فجأةً خطرت له فكرة كان لها الفضل في تخفيف القلق الذي أصابه منذ دخوله المستشفى.

– هل تطعمين كلبي الذي تركته في المنزل؟

– وتتولّى في المقابل التحقيق في مقتل والدتي؟

– لا، لا. في المقابل، أمضي ساعتين من وقتي في قراءة مقالات صحافيّة عن وفاة والدتك، الأمر مختلف.

– اتّفقنا. هو من أيّ سلالة؟

– جيرمان شيبرد. اسمه تيتوس.

– هل هو لطيف؟

– لا، على الإطلاق، ولا يحبّ الفتيات المزعجات، فكوني حذرة.

أعطى تايفر لويز مفاتيحه ورمز جهاز الإنذار وعنوانه، ساحة مونسوري.

– إذن، اتّفقنا: تدخلين، تضعين الطعام لتيتوس وتغادرين على الفور، من دون العبث بأيّ شيء في المنزل.

– اتّفقنا، ردّت موافقة. وكيف أحصل على تقرير المعلومات؟

– اتركي لي رقمكِ، سأتّصل بكِ أنا. ما كان اسمها، والدتكِ؟

– بترينكو. راقصة الباليه النجمة ستيلا بترينكو.

---

[1]فرانسوا بينيون هو الاسم المنسوب إلى العديد من الشخصيّات في أفلام فرانسيس فيبر، وبات الآن جزءًا لا يتجزّأ من فولكلور السينما الفرنسيّة.

2

سقوط ستيلا بترينكو

«عندما نبحث بشدّة عن شيء ما، لا نعثر عليه. وعندما نسعى إلى تجنّب شيء ما، يجد حتمًا طريقًا إلينا».

هاروكي موراكامي

.1

السابعة مساءً.

ممدّدًا على سريره في المستشفى، قام ماتياس تايفر بتوصيل جهازه الكمبيوتر المحمول بهاتفه. كانت الشبكة رديئة، لكنّها أفضل من لا شيء. انبعثت من سمّاعتيه الألحان المألوفة لغيتار بات ميثيني. وانسدل وراء نافذته الليل الباريسيّ: مُظلم، مُمطر، لا يكشف عن أدنى بصيص أمل. نقر تايفر على لوحة المفاتيح بحثًا عن معلومات عن والدة لويز. لم يكن اسم ستيلا بترينكو غريبًا عنه، إلّا أنّه لم يتمكّن من ربطه بوجه معيّن. أمّا إعلان وفاتها فقد فاته تمامًا.

نزّل عشرات المقالات من أبرز الصحف اليوميّة الوطنيّة وتصفّحها وفق الترتيب الزمنيّ ليقع على صورة كاملة تقريبًا لراقصة الباليه النجمة.

هذه المرأة ذات المئة والسبعين سنتمترًا من الطول، والساقين الطويلتين والرقبة الممشوقة كانت إحدى النجمات الفرنسيّات للرقص الكلاسيكيّ في تسعينيّات القرن العشرين والعقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين. وُلدت ستيلا بترينكو في مرسيليا عام 1969 لعائلة متواضعة مُنحدرة من لفيف في أوكرانيا، وانتقلت إلى العاصمة في سنّ الثانية عشرة للانضمام إلى مدرسة الرقص في قصر غارنييه. ارتقت بترينكو السلّم بعزم لتصبح مثالًا للتميّز في أوبرا باريس. انضمّت في السابعة عشرة إلى فرقة الباليه مواصلةً صعودها في السنوات التي تلت: فانتقلت من الرقص ضمن مجموعة إلى قيادتها حتى أصبحت الراقصة الأساسيّة. في الثانية والعشرين من عمرها، أصبحت راقصة أولى في الدور المزدوج لأوديت وأوديل في باليه «بحيرة البجع». لكنّها تعرّضت في العام نفسه لحادث صدم من قبل راكب درّاجة ناريّة في وسط باريس. استلزم الحادث إجراء عمليّة جراحيّة وإعادة تأهيل طويلة أجبرتها على تعليق حياتها المهنيّة. ظلّت ستيلا تعاني طوال حياتها آلام ظهرها وركبتها. لكن على الرغم من الضربة المريرة تلك، بقيت تحارب من أجل العودة إلى أعلى مستوى، وبفضل إصرارها تمكّنت من الصعود مجدّدًا على المسرح. وصلت أخيرًا إلى مرتبة الراقصة النجمة في وقت متأخّر جدًّا، إذ كانت قد بلغت الثلاثين من عمرها.

عملت بترينكو مع أعظم مصمّمي الرقص في ذلك الوقت – موريس بيجار، ووليام فورسايث، وبينا باوش – وقدّمت بعض الأدوار المذهلة في باليه «طقوس الربيع» و«بوليرو» لِرافيل. ظهرت كذلك في إعلانات راقية للعلامات التجاريّة ريبيتو وهيرميس وأكوا ألتا، غير أنّ الإصابات المتكرّرة ضيّعت عليها سنواتها المهنيّة الأخيرة: أوجاع الظهر المُستمرّة وتمزّق أربطة الركبة. وبسبب التقاعد القسريّ للراقصات النجمات في سنّ الثانية والأربعين، غادرت المسرح على مضض.

كانت قد أنجبت عام 2004 ابنة من حبيبها في ذلك الوقت، لوران كولانج، وهو عازف كمان رئيسيّ في الأوركسترا الفيلهارمونيّة لإذاعة فرنسا الدوليّة.

خلع تايفر سمّاعاته وفتح عبوة كوكاكولا خالية من السكّر كان قد ابتاعها له ممرّض منعدم الضمير مقابل ورقة نقديّة من فئة عشرة يورو. ثمّ شغّل على موقع يوتيوب مقتطفًا من باليه «روميو وجولييت» لِبروكوفييف حيث أدّت ستيلا الدور الرئيسي، فصدمه المقطع.

لم تشبه ستيلا بترينكو بتاتًا الصورة النمطيّة للراقصة النحيلة ذات الوجه المشدود والمُشرق. ولم تكن ملامحها الأوكرانيّة واضحة جدًّا . حتّى إنّه ، للوهلة الأولى ، لا يبدو جسدها رشيقًا البتّة. بل على العكس، هو أشبه ببنية مكدّسة بالعضلات، مع ساقين طويلتين جدًّا نحتتهما الساعات الثماني من التدريب اليوميّ، وذراعين تبرز العظام منهما. هذه الميزة انعكست أيضًا على وجهها الحادّ الزوايا: خدّان محفوران، عينان واسعتان جدًّا تعكسان عذابًا طويلًا، وشعر أسود كالفحم مُصفّف على شكل كعكة تفلت منه خصلة مع كلّ بضع حركات.

لكن ما إن تتحرّك حتّى يفعل السحر فعله. معتليةً خشبة المسرح، وبتفاعلٍ كيميائيٍّ عجيبٍ، لم يعد يظهر من بترينكو سوى الخفّة والأنوثة. تلك الجاذبيّة الخاصّة، تلك الهالة الفاتنة زعزعت استقرار تايفر من وراء الشاشة. تمامًا كما حصّة الملائكة التي تتبخّر من خمر أرماغناك العتيق.

أنهى الشرطيّ بحثه بعرضٍ فوتوغرافي لموقعٍ مُخصّصٍ للأوبرا يتتبّع مسار الراقصة. من خلال المقالات، اكتشف الكثير. وبالرغم من أنّه لم يلتقِ بوالدة لويز قطّ، شعر بالتعاطف معها. وفيما كان يتنقّل بين الصور، استطاع أن يتخيّل بوضوح صعوبة مسيرتها. فتاة صغيرة متفوّقة ووحيدة وهبت جسدها وروحها للرقص. مراهقة في جوّ من المنافسة الشرسة لا تنجو منها إلّا الفتيات الأقوى. حياة من المعارك والتضحيات خرقها الحادث في ذروة تحليقها، ثمّ الرغبة في العودة إلى الأضواء. حياة مضنية، محقونة بالأدرينالين ودوار المسرح. حياة مُضطربة مليئة بالمطبّات والتقلّبات التي لا بدّ أنّها تركت في نفسها طعم الحلم الذي لم يكتمل. لم تكن ستيلا بترينكو معروفة من جمهور عريض، لكنّها ارتقت إلى راقصة نجمة، ولو في وقت متأخّر. ولكن حتّى في ذلك اليوم، أجمل يوم في حياتها، يوم تُوّجت آلاف الساعات التي بذلتها بالكدّ والتعب، كان للقدر كلمته. فقد أقام العاملون المُستقلّون في قطاع الترفيه إضرابًا أرغم أعضاء الفرقة على تقديم عرضهم من دون ديكور أو أزياء.

في مقابلة مع مجلّة «جي دي دي» بمناسبة مغادرتها المسرح، أكّدت ستيلا أحلامها ومشاريعها العديدة التي ستتابع بها مسيرتها المهنيّة: السينما، والمسرح،

والأزياء... بعد عشر سنوات، لم تكن قد حقّقت منها إلّا القليل. شهد الإعلام غيابًا طويلًا للراقصة ولم يُذكر اسمها من جديد إلّا للإعلان عن وفاتها.

.2

أفرغ تايفر عبوة الصودا وفرك عينين أتعبهما سطوع الشاشة. ثمّ ارتدى نظّارته قبل أن يواصل بحثه. لم تحتلّ وفاة ستيلا بترينكو، نهاية الصيف الماضي، عناوين الصحف. بالكاد كتبت وزيرة الثقافة، من منطلق الواجب، تغريدة عامّة: «ببالغ الحزن والأسى، تلقّيتُ خبر الموت المفاجئ لستيلا بترينكو، إحدى أعظم الراقصات النجمات في العقدين الماضيين. امرأة حرّة كرّست نفسها بالكامل لفنّها ودافعت عن خياراتها بشغف كبير من خلال عروض أداء جمعت بين الإبداع والإحساس».

أقلّ ما يُقال إنّ راقصة الباليه لم تختر الوقت الأفضل للرحيل. فقد شهد يوم 6 أيلول/سبتمبر من عام 2021 أيضًا وفاة جان بول بلموندو. «ذروة النّحس»، قال تايفر في نفسه مكشّرًا. تذكّر أنّه استمع ذات مرّة إلى برنامج إذاعيّ شرح فيه جان دورميسون بطريقة فكاهيّة عن مخاطر وفاة فنّان في الوقت نفسه مع أحد المشاهير الأبرز على الساحة الإعلاميّة. كان الكاتب قد استشهد بمثال جان كوكتو الذي غطّى عليه موت إديث بياف، وألدوس هكسلي الذي تُوفّي يوم اغتيال جون كينيدي. أمّا فرح فاوست، «ملاك تشارلي» التي كان تايفر مغرمًا بها عندما كان في الثانية عشرة من عمره، فقد ماتت لحظّها السيّئ في اليوم نفسه الذي تُوفّي فيه مايكل جاكسون.

باختصار، أطاح صدور فيلم «مانيفيك» خبر الراقصة من فقرة التأبين في نشرة الأخبار وصفحات الثقافة في الصحف اليوميّة. ولم تقرّر وكالة الأنباء الفرنسيّة الإعلان عن وفاتها سوى في اليوم التالي في نهاية فترة ما بعد الظهر في خبر صحافيّ قلّما تداولته مواقع الإنترنت الخاصّة بوسائل الإعلام.

وفاة ستيلا بترينكو

بعد سقوطها من الطابق الخامس

وكالة الأنباء الفرنسيّة.

سقطت الراقصة والنجمة السابقة (52 عامًا) من شرفة شقّتها في شارع بيلشاس فلقيت حتفها على الفور.

في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، وقعت الراقصة السابقة من شرفتها في الطابق ما قبل الأخير من المبنى 31، شارع بيلشاس في الدائرة السابعة.

بعد لحظات قليلة، وصل رجال الإطفاء، على أثر بلاغ من الجيران، إلى مكان الحادث. تعرّضت الراقصة النجمة لجروح خطرة في الرأس وفي الأطراف السفليّة والعلويّة، وكانت لا تزال على قيد الحياة عند وصول المساعدة.

لكن على الرغم من محاولات إنعاشها، أُعلنت وفاتها بعد عشرين دقيقة من الحادث.

لا تزال ظروف الحادث غامضة. «سقوطٌ عرضيّ أم محاولة انتحار؟ على التحقيق أن يحدّد ذلك». هكذا علّق مصدر قضائيّ مؤكّدًا استبعاد فرضيّة الجريمة. وأشار المدّعي العامّ إلى أنّ تشريح الجثّة جارٍ لتحديد الأسباب الدقيقة للوفاة. [...]

أخذ تايفر وقته الكافي لإعادة قراءة المقالة كي لا يفوته شيء. طرح المنشور تساؤلات أكثر ممّا قدّم

إجابات. ولمعرفة المزيد، لم يستطع الامتناع عن التواصل مع زملاء سابقين له.

لكن أيّ باب يمكنه طرقه ليلة 27 كانون الأوّل/ ديسمبر؟ حكّ لحيته مُستغرقًا في التفكير. إلى من أُحيلت هذه القضيّة؟ قطعًا ليس إلى فرقة مكافحة الجرائم، بحسب المعلومات التي أفادت بها المقالة. لا بدّ من أنّ التحقيق عُهد إلى مديريّة الشرطة القضائيّة للضفّة اليسرى. وفقًا لآخر الأخبار، كانت تحت إدارة سيرج كابريرا. فرضت صورة قائد المديريّة الثالثة للشرطة القضائيّة نفسها في ذهنه: بنية ممتلئة قويّة، رقبة ثور، قمصان بأزرار على وشك الإفلات، قَصّة شعر عالقة في الثمانينيّات. كان كابريرا، الملقّب بالنيسيّ، معروفًا أيضًا بقسوته وتحيّزه ضدّ النساء ولغته القذرة التي كانت تتنافر أكثر فأكثر مع العصر. من المحتمل أنّه لم يعد في منصبه، أو أنّه استُبعد بعد انتشار هاشتاغ #أنا_أيضًا [1] أو بفعل خطأ فادح. تحقّق تايفر من أنّ رقمه لا يزال في هاتفه وأرسل رسالة نصيّة قصيرة لجسّ النبض، من دون تعليق الكثير من الآمال. في الفترة بين عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة، كان من الصعب أن يحرّك أحدٌ ساكنًا لمساعدته.

والآن؟

أطفأ المصباح الليلي قرب سريره وأطلق على لابتوبه رقصة بوليرو لِرافيل بنسخة موريس بيجار، وهي أحد تصاميم الرقص التي أسهمت بتعزيز شهرة ستيلا بترينكو.

.3

الدائرة الرابعة عشرة.

غارقةً في رذاذ المطر، بدت السيّارة غير المُرخّصة أشبه بوعاءٍ من الزبادي. دانيت بالكراميل زاحفة في زحمة السير. خلف عجلة القيادة، ندمت لويز على سلوكها شوارع بوليفارد دي ماريشو. ضغطت بقوّة على دوّاسة الوقود، لكنّ المحرّك، المحدود بسرعة خمسة وأربعين كيلومترًا في الساعة، كان قد وصل إلى حدّه الأقصى. ملقًى بجانبها على المقعد البلاستيكيّ، كان التشيلو يشغل المساحة بأكملها. فجأة، وبفعل الرطوبة المتسرّبة إلى المقصورة، انتاب لويز رهابٌ من الأماكن المغلقة. عطست. حتّى لا تستنزف البطّاريّة بسرعة، امتنعت عن تشغيل التدفئة، على الرغم من اصطكاك أسنانها.

غادرت الجادّات عند بورت دو فانف لعبور شوارع بوتي-مونروج غير المتجانسة. كان الليل قد بدأ ينبسط على المدينة بلونه الرماديّ وجوّه الجليديّ. طفت طبقات من الضباب على أسفل المباني، الأمر الذي كان نادرًا في باريس.

عندما توقّفت أمام الإشارة الضوئيّة الحمراء، أدخلت الشابّة العنوان الذي أعطاها إيّاه تايفر على هاتفها المحمول. ألصقت الهاتف على الزجاج الأماميّ وتركت نظام تحديد المواقع يرشدها. في ساحة دنفر-روشيرو، تجاوزت تمثال الأسد المتجمّد من البرد وسط سافانا مسكونة بالأشباح. على مقربة من المدينة الجامعيّة، انبثق أمامها الحصن العشبيّ لخزّان مونسوري الذي يمدّ جزءًا كبيرًا من العاصمة بمياه الشرب. كانت لا تزال حتّى الآن في أرض مألوفة، لكن ما لبثت أن تلاشت ألفة المكان عندما أدخلها نظام الجي بي أس ساحة مونسوري.

خفّفت علبة الدانيت من سرعتها على الرصيف المبلّط بالحجارة حيث كان الطريق الخاصّ زلقًا وشديد الانحدار. لم يبدُ الزقاق على قدرٍ من التناغم مع المشهد بيد أنّ سحرًا ريفيًّا انبثق منه. خلف الأسوار الحديديّة، ظهرت، برغم الظلام، الواجهات المطموسة بنبات اللبلاب والغليسين. كانت البيوت الصغيرة على طراز الآرت ديكو تتعاقب مع مشاغل الفنّانين الغارقة في المساحات الخضراء.

أوقفت لويز السيّارة أمام الرقم الذي حدّده تايفر. كانت لافتة باللون الأحمر الفاتح معلّقة على البوّابة تحذّر: «ممنوع الدخول – كلب خطِر»، وقد زُيّنت برسمٍ لكلب جيرمان شيبرد. فتحت لويز قفل المدخل بتوجّس ودفعت أحد المصراعين متوخّيةً الحذر. لم يكن في الحديقة وراء البوّابة أيّ كلب. اشتغلت الإضاءة الخارجيّة بواسطة مُستشعر للحركة. بدا المبنى كمنزل ريفيّ في قلب باريس: إطارات خشبيّة، تصاميم مُقوّسة، وواجهة بلون القشّ الأصفر الدافئ. استجمعت لويز شجاعتها وفتحت الباب الرئيسي ليستقبلها على الفور صفير الإنذار. ما إن كتبت الرمز لإيقاف نظام الحماية حتى ظهر بين قدميها... كلبٌ صغيرٌ ظريفٌ ذو فراء أبيض وبنيّ وأذنين متدلّيتين. إنذار كاذب.

لقد سخر منها الشرطيّ. بدلًا من الجيرمان شيبرد، وجدت نفسها وجهًا لوجه مع كلب من نوع البيغل بالكاد يبلغ ارتفاعه أربعين سنتمترًا.

– مرحبًا تيتوس! قالت وهي تداعب رأسه.

شعر الحيوان بالارتياح للإفراج عنه فاندفع إلى الحديقة وراح يجوبها مرّة تلو الأخرى. تقدّمت لويز داخل

المنزل. لم يكن التصميم الداخليّ مطابقًا لما رسمته في مخيّلتها. ظنّت أنّها ستطأ مسكنًا ريفيًّا مجنونًا. منزل شرطيّ تفوح منه رائحة التبغ والعرق والأطباق المتّسخة في المجلى. فكان العكس تمامًا. من الواضح أنّ المنزل خضع للتجديد أخيرًا. هُدمت كلّ الجدران الممكن هدمها بغية تعزيز التهوية في المكان. كان الديكور في غاية الأناقة: خشب خام، أرضيّة خشبيّة فاتحة مشمّعة، مصابيح ذات ذراع معدنيّة بأحجام مختلفة، كرسيّ برشلونة بخطوط زاويّة. تناغمت كلّ العناصر لخلق لوحة نقيّة تتدرّج فيها الألوان القشديّة. كان كلب البيغل قد لحقها إلى غرفة المعيشة وأخذ ينبح حولها. ثمّ تبعته إلى المطبخ حيث وجدت علب طعام كلاب مكدّسة على الرفّ. ملأت طبقًا بكرات اللحم وغيّرت الماء في الوعاء قبل أن تعود إلى الصالون.

منذ أن غادرت المستشفى وهي تشعر بالتعب يتملّكها. لم تتمكّن من أن تدفئ جسدها، كأنّه يقاوم عدوى ما. لاحظت في المدفأة كتلة من ورق الجرائد، وبعض الحطب وثلاث قطع خشبيّة جميلة على شكل هرميّ. لم تستطع المقاومة. أشعلت عود ثقاب طويلًا وأوقدت الورقة. ما إن بدأت النار تتأجّج، وخلافًا للوعد الذي قطعته لتايفر، راحت تتفحّص الغرفة. المكتبة الكبيرة بداية. كان الشرطي شغوفًا بالأدب الأجنبيّ، والفنون والفلسفة. على الحائط، عُلّقت لوحات كبيرة بالخطّ الصينيّ، ورسم حجريّ للرسّامة فابيان فيرديه. على طاولة القهوة، وُضعت منحوتة برونزيّة لبرنار فينيت مُبتكرة من لولبين معدنيّين غير متناسقين ومتشابكين. صوّرت منحوتة أخرى، على لوح من الخشب المتحجّر،

شخصًا مصنوعًا من شبكة من الأحرف البيضاء: سيّد الأبجديّة ببدلة من الدانتيل يقوم بمهامّ الحراسة.

كان كلّ شيء نظيفًا، مرتّبًا بذوق رفيع، لا شيء مبعثر. من الواضح أنّ من قام بالتنظيف مهووسٌ بالترتيب. لهذا شعرت لويز على الفور بالانتماء إلى هذا المكان، هي التي لطالما أزعجتها الفوضى. كانت مهووسة بالدقّة والتناسق. تحبّ أن تكون الأشياء في مكانها الصحيح . لاحظت غيا ب أيّ صو ر أ و آثا ر لوجو د زوجة أو أطفال في حياة الشرطيّ. لم تجرؤ على الصعود إلى الطابق العلويّ. من المُحتمل جدًّا أن يكون تايفر وضع نظام مراقبة.

بقيت الشابّة واقفة بالقرب من النار حتّى أصبحت بشرتها ساخنة. لطالما أحبّت الشعور بأنّها على وشك أن تحترق.

ثمّ فركت جفنيها وتمدّدت للحظة على المقعد «سرير النهار» الذي لمحت مثله من قبل في عيادة المعالج النفسيّ. انضمّ إليها تيتوس وتكوّر مُستندًا إلى ساقيها. أخرجت هاتفها الخلويّ وكتبت اسم الشرطيّ في محرّك البحث. ظهر تايفر في الصحافة مرّتين: في أوائل العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين على أثر مشاجرة سارت على نحو سيّئ في محطّة غار دو نور الشماليّة، وفي صيف عام 2016 في صحيفة محليّة في الجنوب الشرقي قدّمت ملفًّا خاصًّا لتشجيع التبرّع بالأعضاء. وما عدا هاتين الحالتين، لم تُذكر أيّ معلومات أخرى عن الشرطيّ. أغمضت لويز عينيها متسائلةً من هو ماتياس تايفر حقًّا. لمَ اختارت أن تثق به رغم جانبه المريب وغير الاجتماعيّ؟ أكان فعلًا فكرةً جيّدةً أن تخبره عن والدتها؟ لكن من

يمكنها أن تسأل غيره؟ فهي نادرًا ما رأت والدها منذ انتقالها إلى السكن الجامعيّ في موبير. وعلى أيّ حال، لقد طوى لوران كولانج صفحة ستيلا بترينكو من دون أيّ إحساس بالندم منذ سنوات عديدة.

.4

د وّامة . حلقة مفرغة. زو بعة من نغمات م تكرّرة تتقطّر وتدور في ذهنه. من جديد، أيقظت الموسيقى تايفر من نومه، لكن هذه المرّة حلّت نغمات رنين هاتفه محلّ ضربات قوس لويز كولانج.

رقم مجهول. ابتلع لعابه واستقام في الظلام. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. لقد غفا أمام شاشته أثناء مشاهدته العرض الراقص لستيلا على معزوفة بوليرو لِرافيل. كانت رقبته تؤلمه، ورأسه ثقيلًا وحلقه جافًّا. وأراد التبوّل.

– نعم؟ قال وهو يفتح الخطّ.

– الرائد تايفر؟ سأل صوت أنثويّ.

– إنّه أنا. حسنًا، لقد كنت كذلك.

– مساء الخير، أنا الملازم فاتوماتا ديوب من المديريّة الثالثة للشرطة القضائيّة. أتّصل بك بناءً على طلب المفوّض كابريرا.

مسرورًا ومتفاجئًا من هذه المكالمة الهاتفيّة، أشعل تايفر مصباحه بجانب السرير. خلافًا لكلّ توقّعاته، تكرّم ابن مدينة نيس وأوفد مبعوثة له، وبسرعة أيضًا.

– أشكركِ على الاتّصال بي. كما قلت لكابريرا، أودّ بعض التوضيحات بشأن وفاة ستيلا بترينكو.

– أيّ نوع من التوضيحات؟

– هل كانت مجموعتكم هي التي ذهبت إلى المكان؟

– وصلنا بعد دقائق قليلة من رجال الإطفاء، نعم. إن كنتَ تريد معلومات، تفضّل. لديّ ملخّص الملفّ أمامي.

– ربّما يمكنك إرساله لي لتوفير الوقت؟

تنهّدت ديوب:

– في أحلامك. اسمع، أنا لا أحبّ هذه اللعبة الصغيرة حقًّا، لذا إنْ...

– برأيك، كيف ماتت ستيلا بترينكو؟ سألها تايفر لإعادة توجيه النقاش.

– حادث بدون شكّ. أو انتحار، لكنّه أقلّ ترجيحًا.

– سيناريو الحادث، كيف يمكن أن يكون؟

– قد تكون المرأة صعدت على سلّم لريّ أصص نباتاتها المُعلّقة عاليًا على الشرفة. لقد عثرنا على مرشّة مياه على الرصيف بالقرب من جسدها.

– قرأتُ أنّ السقوط حدث قبيل منتصف الليل، هل هذا صحيح؟

– نعم، وماذا في ذلك؟

– هل تروين نباتاتكِ في منتصف الليل، حضرتكِ؟

– قيامها بذلك مرّة لا يعني أنّها كانت تفعل كذلك كلّ مرّة. كان الجوّ مشمسًا ودافئًا في أوائل سبتمبر في باريس. لم يكن فصل الصيف قد انتهى. كانت الشمس تغرب في وقتٍ متأخّرٍ والناس يتسكّعون في الخارج لفترة أطول.

– طبعًا...

– رأيتُ الدرابزين المعدنيّ، أضافت ديوب. كان متآكلًا يغطّيه الصدأ، ولم يكن عاليًا جدًّا. وكانت الشرفة غير مُطابقة للمعايير. يمكن لطفلٍ أن يهوي عنها بسهولة.

صعدت الراقصة على سلّم لريّ أصص الزهور. كانت قد شربت الكحول فسقطت وهذا كلّ شيء. انتهت المسألة.

دلّك ماتياس رقبته.

– وتشريح الجثّة، ما كانت نتيجته؟

– لا شيء يُذكَر، اللّهم سوى مقدار غرام من الكحول في الدم. كانت قد فتحت زجاجة من نبيذ بورغوندي عند المساء وشربت ثلاثة أرباعها. يبدو أنّها دخّنت أيضًا سيجارة صغيرة من الحشيش.

– لا علامات تعنيف؟

– كلّا.

– لا شيء تحت أظافرها؟ آثار على الجلد؟ ألياف من النسيج؟

– أيضًا لا.

– هل كان ذلك كافيًا لاستبعاد الفرضيّة الجنائيّة؟

– مع الجريمة يأتي الدافع، ردّت ديوب منزعجة. لم نعثر على نقطة الانطلاق لذلك.

– هل حصلت أيّ سرقة في الشقّة؟

– وجدنا مجوهرات ثمينة وبعض المال في محفظتها الموضوعة بطريقة مكشوفة. لم يلمسها أحد.

– وفرضيّة الانتحار؟

– لا أعتقد أنّها انتحرت، لكنّنا فكّرنا في هذه الفرضيّة. لم تكن المرأة في حال جيّدة بعدما خرجت من دائرة الضوء. كانت في كثير من الأحيان، عند المساء، تتأنّق كأنّها مدعوّة إلى حفل عشاء فترتدي تنّورة التوتو، وثوب الرقص الضيّق، والجوارب والزيّ بأكمله.

– هل كانت كذلك ليلة وفاتها؟

– نعم، هكذا وجدناها. كانت أشبه ببجعة ميتة مرميّة على الرصيف.

سرت قشعريرة في جسده أمام هذه الصورة وفوجئ بعدم تسريب هذه المعلومات عبر الصحافة.

– والقنّب؟ أكانت تملك كميّة كبيرة منه؟

– بل كانت تزرعه!

– وتتاجر فيه؟

– لا، فقط بضع نباتات كاحتياطيّ شخصيّ. حسنًا، اسمع تايفر، أودّ العودة إلى المنزل، لذا...

– انتظري، قلتِ إنّ رجال الإطفاء كانوا أوّل من وصل إلى مكان الحادث وقرأتُ أنّ بترينكو لم تمت على الفور.

– نعم، وماذا في ذلك؟

– هل كان لديها الوقت لإخبارهم بأيّ شيء؟

– وتكتب «عمر قتلني» بدمها على الرصيف؟ لا، لم يكن لديها الوقت لأنّها كانت في حالة يُرثى لها غارقةً في دمائها. هل تخيّلت المشهد؟

– سؤال أخير: هل أنتِ متأكدّة من عدم تمكّن أيّ شخص من دخول الشقّة؟

– وكيف ذلك؟ كان الباب الأماميّ مقفلًا من الداخل.

فتح تايفر فمه للتوسّع في تحقيقاته إلى أبعد من ذلك، لكنّه كان قد وصل إلى نهاية استنتاجاته.

قبل إنهاء المكالمة، شنّت فاتوماتا ديوب هجومًا أخيرًا عليه:

– كنت أودّ التحقيق في جريمة قتل أيضًا، لكن ثق بنا: لقد بحثنا وتحقّقنا من كلّ شيء، لكنّنا لم نعثر على شيء. ستيلا بترينكو لم تُقتل.

---

[1] هاشتاغ MeToo# أطلقته الممثّلة الأميركيّة أليسا ميلانو عبر حسابها

الشخصيّ على موقع تويتر لتشجيع النساء على مشاركة قصص التحرّش والاغتصاب والاعتداء التي تعرّضن لها في حياتهنّ بهدف تسليط الضوء على معاناتهنّ.

3

التحقيق المستحيل

«ومن يدري بكمّ مشاعر الشغف
وكمّ الأفكار المعادية التي قد
تتعايش في نفس الإنسان؟».

أندريه جيد

.1

28 كانون الأوّل/ديسمبر.

– استيقظي! أنتِ، استيقظي!

عندما فتحت لويز عينيها، كانت الشمس عالية في السماء. كان كلب البيغل يلعق وجهها ويد تايفر الضخمة تهزّ كتفها بوحشيّة. شعرت كأنّها تخرج من نفقٍ طويل، كما لو كانت فقدت الوعي لأيّام عدّة. ما سبب نومها الطويل والعميق؟ الإرهاق المتراكم بسبب الدراسة المستمرّة، كآبة الشتاء، تأثير وفاة والدتها؟

– توقّف، أنتَ تؤلمني! سوف تخلع كتفي!

مقطّب الحاجبين، وبنظرة مهدِّدة، كان الشرطيّ على وشك أن يتفجّر غضبًا.

– ما الذي تفعلينه هنا؟

– كما ترى، كنت نائمة!

حرّرت لويز نفسها من قبضة تايفر. كانت الشمس قد أشرقت من جديد. منحتها فكرة تمضية النهار تحت الضوء الجميل بعض الحماسة. نهضت وخطت بضع خطوات على الأرضيّة الخشبيّة. بدا المنزل في النهار أكثر ترحيبًا مع الصالون المُمتدّ عبر شرفة على مستوى واحد تحيط بها حديقة.

–كيف عدت من المستشفى؟

– بسيّارة أجرة.

– لو أخبرتني، كنت سآتي لأخذك.

– بعلبة السردين خاصّتكِ؟ لا، شكرًا.

أشار بإيماءة من ذقنه إلى آلة التشيلو التي وضعها على المقعد.

– أنبّهكِ إلى أنّكِ تركتِ المفاتيح مع آلتكِ داخل السيّارة. قمّة الذكاء، حقًّا. هل تعيشين في عالم كازيمير [1] ؟

– حسنًا. يبدو الحيّ الذي تقطنه مُطمئنًا. من هو بارني؟

– لا تنخدعي بالمظاهر. أبدًا. وأجيبي عن سؤالي: لماذا نمتِ هنا؟

– لأنّني شعرتُ بالنعاس.

رفعت كتفيها وهو صوته.

– لماذا نمتِ هنا؟ في منزلي!

– لا داعي للصراخ. لقد أطعمتُ كلبك، كما طلبتَ، وغفوتُ. لا تضخّم الأمور.

– أتسكنين مع والدك؟ أعلميه بمكانكِ، لعلّه قلق.

هزّت لويز رأسها وهي تحبس تثاؤبها.

– أعيش في سكن جامعيّ في شارع دي كارم. والدي في فال ديزير مع زوجته وطفليه. سأرسل له رسالة لاحقًا.

ثمّ قالت وهي تتمطّى:

– لم أدرك أنّ الظهر قد حلّ بالفعل! أترى لديك ما نأكله؟

تنهّد الشرطي محاولًا السيطرة على غضبه. في النهاية، كان هو أيضًا جائعًا وأراد طرح سؤال أو سؤالين على لويز.

تبعته الفتاة إلى المطبخ. كانت الغرفة، التي صُمّمت حول جزيرة مركزيّة كبيرة من الكوريان، تتميّز بدرجات اللون الأبيض القشديّ نفسها التي في الصالون، وتزيدها جمالًا مقاعد عالية من خشب البلّوط المطليّ.

– فيمَ ترغبين؟ سألها.

– معكرونة، هل هذا ممكن؟ سألته وهي تجلس على أحد المقاعد.

– كاربونارا، ما رأيك؟

– اتّفقنا!

.2

– إذن، هل حقّقتَ في وفاة والدتي؟

وضع تايفر الماء للتسخين في طنجرة كبيرة وجمع المكوّنات بجوار الموقد الكهربائي.

– التحقيق كلمة كبيرة. لقد فعلت ما وعدتُكِ به: قرأتُ كلّ ما وجدتُه، وعاينتُ الحقائق بجديّة وتحدّثتُ مع الشرطيّ الذي ترأسّ الفريق الموجود في مكان الحادث.

– وما كانت النتيجة؟

أمسك تايفر بوعاء وكسر فيه ثلاث بيضات ليخلط الصفار فقط مع جبنة البارميزان.

– لماذا تعتقدين أنّ والدتكِ قُتلت؟

ببعضٍ من الارتباك، اضطُرّت لويز إلى الاعتراف بأنّه لا براهين لديها لتقدّمها.

– مجرّد حدس.

رفع تايفر عينيه نحو السماء.

– الحدس لا يعني شيئًا!

– إن كانت هذه نتيجة بحثك في الأمر، أشكرك جزيلًا على مساعدتك.

– سأخبركِ بأمرٍ آخر قاسٍ بعض الشيء: كان في دم والدتكِ أكثر من غرامٍ من الكحول وكانت تزرع الحشيش على شرفتها.

– وما يعني ذلك؟

– يعني أنّها لم تكن نموذجًا للشخص المُستقرّ.

– وماذا بعد؟

– فكّري قليلًا: من قد ينتفع من موتها؟

هزّت لويز كتفيها فاتحةً يديها. سألها تايفر:

– هل ألقيتِ نظرة على حساباتها المصرفيّة؟

– كانت شبه فارغة. في ذروة حياتها المهنيّة، كانت راقصة الباليه النجمة تكسب سبعة آلاف يورو، لكنّ والدتي كانت صرصورًا أكثر منها نملة. لم تكن قد أنهت حتّى سداد ثمن شقّتها.

– من وريثها؟ أنتِ؟

– نعم، بعد إجراءات التحرّر. شرط أن يساعدني والدي في سداد رصيد القرض.

– والدكِ، تحديدًا. كيف كانت علاقته بها؟

– معدومة. انفصلا بعد ولادتي بخمس سنوات. لم يكن العيش مع ستيلا بترينكو نعيمًا بذاته.

– لماذا؟ سألها فيما واصل خفق المكوّنات بقوّة.

– كان والدي يقول في كثير من الأحيان إنّ راقصة الباليه النجمة هي شخصٌ يستمع إليكَ فقط إن كنتَ تتحدّث عنه. قد يكون الأمر مبالغًا فيه، لكن في حالة والدتي لا يمكننا القول إنّه كان مخطئًا.

ألقى الشرطي حفنة من الملح الخشن في الماء المغليّ وغمس فيه معكرونة على شكل شرائط.

– كنت أحبّ والدتي، تابعت لويز موضّحةً كلامها، لكنّها كانت أنانيّة وغير سعيدة وجعلت الحياة صعبةً على كلّ من حولها. تميّزت بشخصيّة محاربة، لكنّها باعتقادي تعرّضت لضربات كثيرة منعتها من العيش بسلام.

– في الفترة التي سبقت وفاتها، أكان لديها رجل في حياتها؟

– ليس واحدًا، بل العشرات: كانت تقع في الحبّ مرّة كلّ أسبوع.

– ألا تبالغين قليلًا هكذا؟

– لا، كان هذا سببًا آخر لعدم استقرارها: حبّها للحبّ.

في الواقع، هذا إلى جانب حاجتها الجامحة لممارسة الجنس.

سكب تايفر قطرةً من زيت الزيتون في مقلاةٍ لتحمير بعض اللحم المقدّد، ثمّ أردف:

– هل راودتكِ فكرة أن تكون قد انتحرت؟

هزّت لويز كتفيها وأجابت:

– كانت والدتي نرجسيّة لدرجة أنّه من المستحيل أن تقتل نفسها.

– مع ذلك، أخبرتني الشرطيّة أنّها كانت ترتدي زيّ الرقص كاملًا: الثوب الضيّق، والجوارب والتنّورة. ألا يشبه هذا حفل وداع إلى حدّ ما؟

– لا، كانت تلك أشبه بعادةٍ احتفظت بها. لم تتوقّف عن التمارين وارتداء تنانير التوتو القديمة، حتّى أثناء النهار.

– حسنًا، ما نظريّتكِ إذن؟

– أيّ نظريّة؟

– كيف تظنّين أنّ والدتكِ يمكن أن تكون قُتلت فيما باب شقّتها كان مقفلًا من الداخل؟

– من الأسطح، ردّت لويز كما لو كان الأمر بديهيًّا. تسلّل شخصٌ ما عبر الأسطح وفاجأها بالقفز إلى شرفتها. في الصيف، كانت تضع مقعد البيرجير على شرفتها الصغيرة وتمضي نهارها هناك في قراءة الكتب أو أمام شاشة هاتفها.

– لنفترض أنّ ذلك ممكن، لكنّه لا يُظهر أيّ شيء عن الدافع.

– ظننتُ أنّك فهمت.

– ماذا؟

– أنّ هذا بالضبط ما أودّ أن تساعدني في اكتشافه!

.3

التهمت لويز طبق المعكرونة في أقلّ من ثلاث دقائق. للاستفادة من الطقس الجميل، وضع تايفر لوازم المائدة

على الطاولة في الحديقة وأضاء موقد براسيرو كبيرًا شبيهًا بالمواقد الموجودة على ترّاسات المقاهي.

– لا يمكنني القول إنّك لا تقدّرين مهاراتي في الطبخ.

أنهى طعامه بصمت فيما واصلت الفتاة محاولاتها لإقناعه بمتابعة التحقيق:

– تعال، على الأقلّ، وألقِ نظرة على شقّة والدتي لترى بنفسك. سآخذك إلى هناك بعد الغداء.

– بعد ثلاثة أشهر من وفاتها، لن ينفع ذلك كثيرًا. ولديّ اجتماعٌ مهمٌّ بعد ظهر اليوم.

– غدًا إذن!

– لا غدًا، ولا في أيّ وقتٍ آخر!

– بعد غد؟

– لا بدّ أنّكِ صمّاء قليلًا...

نهض لتنظيف الطاولة ثمّ عاد ومعه فنجانان من قهوة الإسبريسو.

– سأقدّم لك نصيحة، قال وهو يجلس. اقلبي الصفحة. لقد ماتت والدتكِ، إنّه أمرٌ محزن، لكن تقبّلي ذلك. وصدّقيني، لن يعيدها إليكِ شبه تحقيق.

قفزت لويز على قدميها وشرعت تمشي ذهابًا وإيابًا على الشرفة.

– لن أتوقّف عند هذا الحدّ، أكّدت مُتحذلقةً. سأكمل حتّى خط النهاية، معكَ أو بدونك. العديد من المحقّقين الخاصّين يمكنهم...

– صحيح: اذهبي وأحرقي إرثك الضئيل من خلال توظيف محقّق. فكرة رائعة جدًّا. الظاهر أنّكِ لستِ بالذكاء الذي تدّعينه.

– ساعدني إذن! ساعدني، اللعنة!

اكتفى تايفر بإطلاق تنهيدة طويلة جدًّا. كان جالسًا بمواجهة الشمس، فوضع نظّارته الشمسيّة ومدّ رجليه على الطاولة الواحدة فوق الأخرى ثمّ أشعل سيجارة.

– أنتَ حقًّا غير واعٍ لتدخّن بينما تعاني مشاكل في القلب. إنّ التبغ يرفع من ضغط الدم ويسدّ الشرايين. أنت تقتل نفسك ببطء، هذا مقزّز!

لا جواب. راح الشرطي يتشبّع من أشعّة الشمس متلذّذًا في سدّ رئتيه. أراد أن يرجم كلّ شيء. منذ أيّام والاضطراب يأخذ منه كلّ مأخذ. معنويّاته في الحضيض. في القاع. كان يعرف السبب: اليوم 28 ديسمبر. تاريخ مهمّ في حياته. تاريخ أعاده إلى زمنٍ ملأه الفرح والعطاء والأمل، لكنّه ينظر إليه اليوم يلوح في الأفق بألمٍ – بكلّ صراحة – يعصر قلبه. سيكون يومه طويلًا. سيذهب إلى موعد ه عند ا لساعة الـ رابعـ ة بعد ا لظهر. سيجعل الأمور تطول حتّى لا يعود إلى المنزل مبكرًا. وبمجرّد عودته، سيفرغ زجاجة ويبتلع قرص «بنزوس» المهدّئ، ليغيب عن الوعي في أسرع وقت ممكن. وغدًا سيكون الأمر سواءً. وفي اليوم التالي. الهروب. بالنوم، بالحلم، بالتخدير. لا يهمّ لو وهن قلبه. قد يكون هذا أفضل حتّى...

– أنذهب، ماتياس؟ هل أقودك إلى المكان؟

منتصبةً أمامه، عادت المزعجة الصغيرة إلى الإلحاح. سببٌ واحد فقط ردعه عن طردها. بطريقة ما، كانت تلهيه. من خلال تحفيز عقله، كانت تنقذه من الانهيار.

– هل تخلّيتِ عن فكرة المحقّق؟

– أريدكَ أنتَ أن تحقّق. لقد أخبرتك بذلك مئة مرّة.

– اسمعي، أنتِ لا تعرفينني. لقد قلتُ لكِ، أنا لستُ رجلًا لطيفًا. عمركِ سبعة عشر عامًا. عشتِ دومًا في

شرنقتك الخاصّة ولا تعرفين شيئًا عن مخاطر الحياة. يجب ألّا تثقي بالناس لمجرّد أنّكِ تجدينهم لطفاء.

– أنا لا أجدك لطيفًا على الإطلاق، أؤكّد لك ذلك.

– بما أنّكِ تبدين بذكاء أعلى من المعدّل الطبيعي، سأقول لكِ ذلك مرّة أخيرة بطريقة واضحة للغاية: أنتِ في خطرٍ إذا بقيتِ معي.

نظرت إليه بحاجبين مُقطّبين ونظرات متشكّكة. خالجها فورًا شعورٌ بخلاف ما يقوله. لم يوحِ لها هذا الرجل بعدم الثقة أو الخوف من الحيل القذرة. بدا، على العكس، درعًا قادرةً على ردع السهام والضربات إذا ما سعى أحدهم إلى إيذائها.

– لا تثقي بحدسك، ذكّرها كما لو كان يقرأ أفكارها.

– يا لهذا الكلام الخطيييييير...، قالت ساخرةً وهي تطفئ موقد البراسيرو.

– أعيدي تشغيله!

– مستحيل، هذا الشيء يؤذي البيئة.

– على الأقلّ لا نتجمّد من البرد.

– لا نتجمّد من البرد، لكنّنا ندمّر الكوكب.

– ندمّر البشريّة في الأغلب.

– وهذا لا يعني لك شيئًا؟

– بل يجعلني سعيدًا إلى حدٍّ ما إن كنتِ تريدين معرفة الحقيقة. سيكون الكوكب بأفضل حال من دوننا.

– أنت مثيرٌ للشفقة. حسنًا، ستساعدني أم لا؟ نحن ندور في حلقة مُفرغة هنا.

أمرٌ محيّرٌ فعلًا. لكن ماذا لو كان القدر وضع هذه الفتاة في طريقه كإشارة؟ أو بالأحرى كأداة؟

– أنا على استعداد للذهاب لرؤية شقّة والدتك، لكن في المقابل ستفعلين شيئًا من أجلي.

– مجدّدًا؟ ماذا تريد هذه المرّة؟

– وستقومين بذلك من دون أسئلة.

– اتّفقنا.

4.

الدائرة السابعة. سان-توماس-داكين.

أوقفت لويز سيّارتها الصغيرة بين متجر أثاثٍ إيطاليّ ومقرّ إيف سان لوران الجديد في قلب دير بونتمون السيسترساني. كانت شقّة ستيلا بترينكو تقع في فندق جميل على الطراز الهوسماني عند زاوية شارعي بيلشاس ولاس كازس. رفع تايفر عينيه لمعاينة تفاصيل المبنى. عمارة ضخمة من الحجر المنحوت الأبيض المصفرّ: الحجر الجيريّ الشهير في سانت-ماكسيمينن الذي يزيّن منذ القرن الثامن عشر بعضًا من أجمل المباني في العاصمة. مُثقلًا بالتعب الذي كان لا يزال حاضرًا بقوّة بعد النوبة القلبيّة التي أصابته، راح الشرطيّ يجرّ رجليه متعقّبًا لويز إلى المدخل المرصّع بالذهب وبألواح الكوارتز الكبيرة حيث تتدلّى ثريّا عملاقة. مرّا أمام سكن الحارسة الذي كان مقفلًا بعكس ما تظهره جداول ساعات العمل. ثمّ توجّها نحو المصعد إلى الطابق الخامس.

– تركتُ كلّ شيء على حاله، حذّرته لويز وهي تدفع الباب.

كان ملاذ ستيلا بترينكو عبارة عن شقة زاويّة صغيرة، بمساحة مربّعة، مزيّنة بألوان الباستيل. أعطت مرآة كبيرة

خلف عارضة التدريب حجمًا جميلًا للغرفة الرئيسيّة. وأكملت الإطلالة على سطوح باريس لوحة الشرنقة الرومانسيّة هذه.

كان المكان كما تخيّله تايفر. توقّع رغبة راقصة الباليه في إعادة خلق أجواء قاعة الأوبرا. لم يفتقر المكان إلى شيء: مجموعة من جوارب الباليه معلّقة على خطّافات، دمًى ترتدي أثوابًا ضيّقة وتنانير توتو، مقعد البيرجير المخمليّ الخارج مباشرةً من لوحة فرانسوا بوشيه. خلف طاولة زينة خشبيّة مطليّة، جدارٌ تغطّيه بالكامل بطاقات بريديّة ورسائل معجبين بالإضافة إلى صور لأسياد الباليه وعازفي البيانو والمشاهير. ميّز الشرطي بينا باوش، وموريس بيجار، ورودولف نورييف متقدّمًا في السنّ، والرئيس السابق ساركوزي يسلّم وسامًا.

ف تحت ل ويز النافذ تين الكبير تين داع يةً تايفر للانضمام إليها في ما تعتقد أنّه مسرح الجريمة. لم تكن الشرفة تقليديّة وبدت أشبه بتيرّاس صغير منبسط بين الداخل والخارج. تركيبة لم تكن موجودة في الأصل جرى تركيبها عن طريق إضافة سقيفة من الزجاج المُصنفر مدعومة بأشغال حديديّة تلتفّ حولها محاليق نبتة متسلّقة. وُضعت أواني زهورٍ على طول درابزين الشرفة لكنّ البرد أصابها كلّها بالجفاف. دعمت مصاريع خشبيّة عالية تقشّر طلاؤها صفًّا من الأصص الفخاريّة. في الزاوية، بدا سلّم حديقة قديم من خشب الساج الرماديّ كما لو تجمّد في مكانه.

انحنى تايفر على الدرابزين المنخفض والصدئ، كما وصفته فاتوماتا ديوب. رفع عينيه لمعاينة الأسطح. كان الوصول إلى الشرفة ممكنًا نظريًّا لمن يتمتّع بالرشاقة

والخفّة، غير أنّه لم يؤمن بهذه الفرضيّة. أيّ لصّ كان سيجازف مجازفة كهذه ويغادر خالي الوفاض؟ ثمّ إنّ أيّ مواجهة مع الراقصة كانت ستترك علامات مقاومة. لم يكن لكلّ ذلك من معنى. كان السيناريو الأكثر ترجيحًا هو ذلك الذي اعتمده رجال المديريّة الثالثة للشرطة القضائيّة: غارقة في الكحول، صعدت بترينكو على السلّم لسقي نباتاتها وقامت بوثبة غير موفّقة فكانت رقصتها الأخيرة. نقل أفكاره إلى لويز، فرمقته بنظرة مُستنكرة.

ضرب ضوءٌ ساطعٌ تايفر في وجهه. في الطرف الآخر من الشارع، فتح أحدهم نافذةً أو أغلقها. عكس زجاج النافذة أشعّة الشمس كالمرآة. حجب الشرطي الضوء عن عينيه بيده. شكّلت المباني المقابلة، وهي سلسلة من ثلاثة أبنية بيضاء من ستّة طوابق، العشرات من الشهود المحتملين، ولكن لم يتقدّم أحد منهم على حدّ علمه بأيّ معلومة مثيرة للاهتمام.

عاد إلى الداخل تاركًا الباب الزجاجيّ مفتوحًا جزئيًّا ثمّ توجّه إلى الحمّام، مستمرًّا في بحثه عن دليلٍ غير محتمل. في علبة الأدوية، وجد مجموعة من العوازل الذكريّة بالإضافة إلى صنفين من الدواء – رفيقيه الدائمين – البنزوس والسيرترالين. لطالما كانت الكواليس أقلّ بريقًا من العرض. شعر ببعض الغثيان. لماذا يجد نفسه في هذا الحمّام مستنشقًا علب القمامة مثل متطفّلٍ قذر؟

رجع إلى الصالون حيث كانت لويز بانتظاره. ولإراحة ضميره، بدأ يعاين الأغراض الموضوعة على المكتب: دفتر ملاحظات، هاتف، مجموعة شعريّة لآنا أخماتوفا، ولّاعة زيبو مرصّعة بعرق اللؤلؤ، كتاب فتح صفحة منه فوقع على جملة وُضع تحتها خطّ: «أن تُحِبّ؟ ليس من عمرٍ مُحدّد

لذلك. ثمّة فقط عمرٌ كي تُحَبّ. وهذا يمضي». قلّب ميكانيكيًّا دفتر الملاحظات الصغير من الجلد المُبرغَل متنقّلًا ذهابًا وإيابًا في الشقة من دون أن يعرف حقًّا كيف يفكّر. مسح المكان بعينيه وسجّل التفاصيل كما فعل مئات المرّات عندما كان في وظيفته، على أمل أن يجد شرارة، أو أيّ نقطة يربطها بمعلومة حصّلها من قبل. استرق السمع، راصدًا أيّ ضجّة علت من الشارع، وهدير المصعد النائي، ووقع خطوات قد تمرّ في الرواق.

وما إن رفع رأسه حتى لفتت انتباهه لوحة صغيرة معلّقة على الحائط: صورة شابّ بعينين فضيّتين لا بؤبؤ فيهما تبرز من خلفيّة باللون الأزرق الفيروزي. كان ثمّة شيء فاتن بقدر ما كان مخيفًا في ملامحه الرقيقة والجذّابة وعيني الزومبي الفارغتين.

– أتعرفين لمن هذه اللوحة؟

– كلّا، أجابت لويز. هي هنا منذ فترة قصيرة.

– وهذا؟ أهو هاتف والدتك؟

أومأت برأسها إيجابًا.

– أتعرفين رمز المرور؟

– لا، بالضبط. لكنّني ظننتُ أنّك قد تكون قادرًا على...

– انسي الأمر. ليس لديّ أيّ معرفة بالهواتف. في هذا الموضوع، أنتِ بالتأكيد تعرفين أكثر منّي.

قاطع صوت جرس الباب مناقشتهما. جاءت الحارسة التي رأتهما يمرّان مستغلّةً وجود لويز لإعطائها كومة من البريد. بقي تايفر جانبًا خلال الحديث. كانت لوحة الشابّ الزومبي تجذبه بقوّة. إنّ الأعمال الفنّية التي يمتلكها الناس تخبر الكثير عنهم. فالعيش لسنوات مع لوحة أو

رسمة معيّنة ليس بالأمر البريء. يكشف اختيار اللوحة أوّلًا وقبل كلّ شيء عن شخصيّة المرء. وبمجرّد تعليقها، تلوّثه ببطء يومًا بعد يوم، وتبعث موجاتها إلى داخله إمّا للأفضل أو للأسوأ.

لم تحمل اللوحة توقيعًا فأزالها عن الحائط لقراءة البطاقة الملصقة على الجزء الخلفيّ من الإطار.

ماركو ساباتيني

الجندي رقم 96

غاليري برنارد بينديك

125، شارع فوبورغ-سان-أونوريه

دوّن المرجع ثمّ رفع عينيه ونادى الحارسة قبل أن تغادر.

.5

– صباح الخير سيّدتي، الرائد تايفر، فرقة مكافحة الجرائم. هل لديكِ خمس دقائق؟

نظرت إليه بريبة، مطلقةً الجملة التقليديّة: «سبق أن أخبرت زملاءك بكلّ شيء قبل ثلاثة أشهر». شعر الشرطيّ السابق بأنّها كانت على وشك أن تطلب منه بطاقته. حاول أن يُظهر وجهًا يوحي بالثقة وقال بصوت وديّ قدر المستطاع:

– أمر القاضي بإجراء مزيدٍ من التحقيقات قبل إغلاق القضيّة. لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

ابتسم لها وأشار إليها للجلوس على الجانب الآخر من المكتب. أدّى دوره على الطريقة التقليديّة، فنزع غطاء

أحد أقلام الحبر من طاولة العمل، وسجّل ملاحظات على كومة قديمة من الورق كانت الراقصة أحضرتها من فندق نورماندي.

– اسمكِ؟

– ميريام مورلينو. أعمل حارسةً للمباني الثلاثة في الشارع، 27 و29 و31.

– غرفتكِ في هذا المبنى؟

– لا، في المبنى المجاور. كنّا اثنتين من قبل، لكنّ الإدارة في المجمّع السكني أرادت توفير المال، أنت تعرف كيف هي الحال.

– ستيلا بترينكو، أتعرفينها جيّدًا؟

– جيّدًا بما يكفي. أعمل هنا فقط منذ يناير الماضي، لكنّ السيّدة بترينكو كانت تحدّثني كثيرًا. يمكنك أن تسأل أيضًا السيّدة ميرتنز، الحارسة السابقة.

– سأفعل ذلك. في ليلة الحادث، ألم تسمعي شيئًا؟

– لا، أنام في وقت مبكر، لكن سبق أن قلت هذا كلّه.

كانت ميريام مورلينو ترتدي سترة كبيرة الحجم تنفضها بيدها كما لو كانت تبحث عن بعض الهواء رغم البرد الذي ساد في الغرفة.

– من أبلغ رجال الإطفاء؟

– صاحب مقهى 9 تيرميدور، عند ناصية الشارع. كان على وشك إغلاق المتجر عندما وقعت الحادثة.

– من كان آخر من رآها حيّة؟

– لستُ متأكّدة، ردّت منزعجة. لم يبدُ لي أنّها كانت تخرج كثيرًا في المدّة الأخيرة. جئت يوم الحادث لأسلّمها البريد حوالي الساعة الحادية عشرة كما كلّ صباح ومرّت ممرّضة عليها في نهاية فترة ما بعد الظهر.

– ممرّضة؟

– لتغيير ضمادتها بعد العمليّة.

مقطّبًا حاجبيه، التفت تايفر نحو لويز وسألها: «أيّ عمليّة؟».

– جراحة بسيطة، سأشرح لك لاحقًا، قالت الفتاة نابذةً السؤال بإشارة من يدها.

تذكّر الشرطي عنوانًا مكتوبًا في مفكّرة الراقصة لعيادة تمريض. فتح دفتر الملاحظات من جديد ووجد العنوان الذي كان يبحث عنه:

عيادة تمريض نورا مسعود

35، شارع دو بورغون

75007، باريس

مزّق تايفر الصفحة ثمّ دسّها في جيبه وواصل استجوابه:

– على حدّ علمكِ، هل كانت ستيلا بترينكو تتعاطى شيئًا غير الحشيشة أو المسكّنات؟ هل كان يأتي تجّار إلى المنطقة؟

– هل أنت جادّ؟ قاطعته لويز.

– لا أعرف شيئًا، أجابت الحارسة. كان يأتي العديد من الرجال، لكن في رأيي لم يكونوا تجّار مخدّرات.

– من كانوا إذن؟

بدت مورلينو مُحرجة بعض الشيء:

– زيارات، علاقات...

– عشّاق؟ أصرّ عليها الشرطيّ.

– نعم، بلا شكّ. لم يكن التقدّم في السنّ سهلًا على السيّدة بترينكو. كانت تشعر بالطمأنينة عندما يُعجب

الرجال بها، حتّى لو غلبت في الآونة الأخيرة الكميّة على النوعيّة، مع احترامي لكِ، سيّدتي الصغيرة.

– من يعيش في المبنى، سيّدة مورلينو؟

مستاءةً وساخطة، أطلقت الحارسة تنهيدة طويلة كما لو أنّ ما طلبه تايفر تطلّب جهدًا يفوق طاقة البشر.

– في الطابق الأرضي، مكتب محاماة يملكه زوجان، عائلة لامبير، ولديهما أيضًا شقّة دوبلكس في الطابقين الأوّل والثاني. في الثالث، العيادة الطبّية للدكتور رولاند، وفيها غرفة يقيم فيها أيضًا. في الرابع، يعيش الأميركيّان، لكنّهما لا يأتيان إلّا في الربيع.

– وهنا، في الخامس؟

– السيّدة بترينكو! وشقّة صغيرة أُخرى استخدمها الرّسام الذي يسكن في الأعلى لتخزين أدواته.

– وفي الأعلى غرف للخادمات؟

– نعم، لكن جرى جمعها وتحويلها إلى مرسم كبير.

– من يملكه؟

– ماركو ساباتيني، فنّان إيطاليّ شابّ. هو من رسم هذه اللوحة، قالت مشيرةً إلى اللوحة التي أزالها تايفر عن الحائط.

لمعت فكرة في عينَي الشرطي.

– هل هو في مشغله الآن؟ أودّ أن أستجوبه.

– لن يكون ذلك سهلًا.

– لماذا؟

– لأنّه مات.

– متى؟

– الصيف الماضي، من الكوفيد. حسنًا، هذا ما قيل، لكن...

اعتصمت بالصمت لفترة طويلة فضغط عليها تايفر:

– لكن ماذا؟

– أعتقد أنّ اللقاح هو الذي قتله.

– لقاح الكوفيد؟

– أتعرف ما الذي وُضع داخل اللقاح؟ بيضٌ مجهريّ صغير من أكسيد الغرافين. وهل تعرف السبب؟ للتحكّم عن بعد بالأشخاص باستخدام شرائح من الجيل الخامس.

للحظة، ظنّ تايفر أنّها تمزح، لكنّ ميريام مورلينو لم تكن جادّة فحسب، بل أصرّت بشدّة:

– يُستخدم الغرافين لمغنطتنا والتحكّم بإرادتنا، فيجعل الدم يتجمّد ويتوقّف عن ريّ القلب أو الدماغ. تعرف أخت زوجي شخصًا مات بسبب هذا. لقد عطّلوا حقله الكهرومغناطيسيّ.

– هذه تفاهات، احتجّت لويز. أنا طالبة طبّ وأستطيع أن أخبرك أنّ تصريحاتك خطيرة.

– لا، على الإطلاق. يعدّوننا متآمرين، لكنّنا نحن المتيقّظون. بمجرّد تطعيم غالبيّة الناس، سيطلقون موجات عبر الهواتف، وسيبدأ البيض بالتطوّر ويفضي إلى ولادة هذا الشيء. كائنات غريبة ستسيطر على أجسادهم.

تنازلت لويز عن الجدال ونظرت إلى ميريام مورلينو بذهول. توقّف تايفر عن الاستماع إليها. مع تقدّم العمر، بات يشعر بحساسيّة تجاه الغباء وصعوبةٍ في تحمّله. نظر إلى ساعته. لم يكن واردًا أن يتأخّر عن موعده.

– لقد طالت المهزلة بما فيه الكفاية، قال موجّهًا كلامه إلى لويز. سنغادر.

وقبل أن يغادر، وضع لوحة ماركو ساباتيني في حقيبة كبيرة من علامة ريبيتو كان قد لمحها تحت المكتب.

– لمَ تأخذ اللوحة معك؟ سألت لويز.

– لأنّها دليل. ولأنّها أعجبتني.

---

[1]كازيمير هو شخصيّة خياليّة فرنسيّة تصوّرها إيف برونييه وكريستوف إيزار في السبعينيّات.

4

زمن عجيب

«كان زمنًا عجيبًا وُضعت فيه الجثث على الطاولات مكشوفة».

لويس أراغون

.1

ساحة كونكورد.

انسابت العربة الصغيرة بين السيّارات الأخرى. جالسًا في مقعد الراكب، كان تايفر ملتويًا في المقصورة شاعرًا بأنّه محاصر في دلو من البلاستيك الصلب. تجاوزت لويز نافورة البحار ومسلّة الأقصر ثمّ شغّلت أضواء التحذير قبل أن تتجمّد في الفناء الأمامي لدولاب هواء باريس الكبير. لم تكد السيارة تتوقّف حتى فتح تايفر الباب مقتلعًا نفسه بأسرع ما يمكن من سجنه، يهزّ ساقيه لتنشيطهما. تبعته لويز إلى أمام مدخل دولاب الهواء الذي وجد مقرًّا باريسيًّا له منذ نهاية نوفمبر.

– لطالما كرهتُ هذه الأشياء، قالت مشيرةً إلى الدولاب الكبير.

– لستُ من اختار مكان الاجتماع هذا.

– مع من لديك موعد؟ طفل في الثامنة؟

هزّ رأسه بخمول.

– وصلتُ قبل الموعد. هل يمكنني أن أقدّم لكِ كعكة وافل؟

– نقضي وقتنا في الأكل، يا تايفر. مع نهاية هذا التحقيق، ستكون قد جعلتني أكسب عشرة كيلوغرامات.

سار الشرطيّ نحو كشك الوافل الذي فاحت منه رائحة النبيذ الشهيّة ، وزاحم شابًّا مراهقًا متردّدًا في الاختيار ليأخذ محلّه ويطلب التشوروز. لم تستطع لويز مقاومة طلب كريب. أثناء الانتظار، تنحّى جانبًا وأخرج الصفحة التي مزّقها من مفكّرة ستيلا بترينكو. ملّسها لقراءة رقم الهاتف الذي خربشته الراقصة. أراد التحقّق من قصّة الممرّضة هذه. اتّصل بمكتب نورا مسعود ولمّا جاءه الردّ من الجهاز الآليّ، طلب معاودة الاتّصال به على وجه السرعة.

– فلنتقاسم المهامّ، اقترح فيما الفتاة عائدة مع طلبها. سأحاول بعد موعدي مقابلة الممرّضة قبل نهاية اليوم. في غضون ذلك، أودّ منكِ زيارة الغاليري التي تعرض أعمال ماركو ساباتيني.

– لماذا؟ سألت وهي تراقب السيّارة المركونة على عجل.

– تثير فضولي قصّة الرسّام المتوفّى من الكوفيد.

– ما علاقة ذلك بموت أمّي؟

– مجرّد حدس.

– ظننتُ أنّ الحدس لا يعني شيئًا.

– افعلي ما أطلبه منكِ بدلًا من رشقي بوقاحتكِ. حالتا وفاة في المبنى نفسه بفارق بضعة أيّام فقط، الأمر يستحقّ النظر فيه.

– ما زلتَ لم تشرح لي ما تتوقّعه منّي مقابل قيامك بالتحقيق.

– سأصل إلى هذه النقطة، لكن لنكن واضحَين: أشرح لكِ وأنت تنفّذين. لا تطرحين أيّ سؤال، لا تدلين بأيّ تعليق، اتّفقنا؟

أومأت برأسها. تابع تايفر:

– قرب ساحة فورستنبرغ مطعمٌ إيطاليّ اسمه «نوميرو 6».

– أظنّ أنّني أعرف المكان.

– تذهبين إلى هناك عند الساعة السابعة، تجلسين على البار وتطلبين لنفسك مشروبًا. لكن من دون كحول، مفهوم؟ لا تتورّطي في المتاعب. من تلك النقطة، تحصلين على إطلالة على الغرفة بأكملها.

– ثمّ؟

– تراقبين الناس وتحاولين رصد امرأة: في الأربعينيّات من عمرها، جميلة، من أصل لبنانيّ.

– من تكون؟

– سبق أن قلنا لا أسئلة.

رغبت لويز في الردّ بمزحة، لكنّ شيئًا ما أخبرها أنّ من الأفضل تجنّب ذلك.

– إنْ رأيتِها، تلتقطين صورةً بالآيفون الذي تحملينه وترسلينها إليّ.

– هذا كلّ شيء؟

– هذا كلّ شيء.

– هل ستكون وحدها؟

– إذا جاءت، نعم.

– كم من الوقت أنتظر؟

– ثلاثة أرباع الساعة. ساعة بالأكثر.

– مفهوم.

– نبقى على تواصل، قال تايفر وهو يلوّح بهاتفه.

ما إن بدأ يبتعد حتّى ركضت وراءه.

– مهلًا، صاحب الغاليري، ماذا أسأله؟

استدار ماتياس، ومرّة أخرى ذُهل بنظرتها الحيويّة والمتلألئة والقلقة في آن واحد.

– لا أعرف، أنتِ ذكيّة بما يكفي لتكتشفي ذلك بنفسك.

أدار ظهره وتركها تتخبّط بتساؤلاتها. وقفت لويز تراقبه للحظة وهو يبتعد، وسرعان ما انضمّت إليه قامة طويلة مكتسية بسترة حمراء متّصلة بقبّعة مبطّنة من الأسفل. زمّت عينيها محاولةً معاينة تفاصيل الشخص الغريب، لكن ما هي إلّا ثانية حتّى حوصر الرجلان وسط الحشد.

.2

تقع غاليري برنارد بينديك عند شارع كبير في جادة فوبورغ-سان-أونوريه. ظنّت لويز في البداية أنّ المكان مُغلق على الرغم من الإنارة. لم تلمح أيّ وجود بشريّ من خلال الزجاج. مع ذلك، ضغطت على الجرس ليُفتح الباب بعد بضع ثوانٍ وتتقدّم نحوها امرأة شابّة – شعر قصير،

ثقوب للحليّ، وشوم ظاهرة، قميص أبيض وأسود يطالب بـ«العدالة لأداما[1]»:

– كيف أساعدكِ؟

– أودّ التحدّث مع برنارد بينديك.

طرفت عينا موظّفة الغاليري من خلف نظّارتها الكبيرة.

– التحدّث معه عمّاذا؟ سألتها ببعض الاستعلاء.

– عن هذه اللوحة، أجابت لويز وهي تخرج من حقيبة القماش اللوحة الصغيرة التي أخذها تايفر من منزل والدتها.

تبدّل سلوك الفتاة على الفور.

– أوه، ساباتيني! تملكين لوحة رائعة. الخلفيّة الزرقاء الزاهية هي الأكثر طلبًا مع اللون الورديّ. سأُعلم السيّد بينديك. أنتِ محظوظة: لقد عاد هذا الصباح من نيويورك ويغادر غدًا إلى سان-خوسيه.

بقيت لويز بمفردها، متسائلةً عمّا تفعله في هذا المكان، غير قادرة على التخلّص من شعور عدم الارتياح الذي خالجها. بينما كانت مسرورة بانخراط تايفر في القضيّة، بدت هذه الفرضيّة بعيدة كلّ البعد عن المسألة التي شغلت بالها ولم يكن لديها أدنى فكرة عن دورها في دفع التحقيق إلى الأمام.

«أنتِ ذكيّة بما يكفي لتكتشفي ذلك بنفسك».

تبًّا لك، يا تايفر!

بانتظار برنارد بينديك، راحت تجول في الغاليري. قدّمت أوّل قاعتين كبيرتين معرضًا بعنوان «ضوضاء بيضاء». كان عرضًا جماعيًّا يتمحور حول اللون الأبيض. لوحات باللون الأبيض وحده، منحوتات رخاميّة،

منسوجات من الكتّان المُبيّض ترسم منظرًا طبيعيًّا للثلج عائمًا وصامتًا. كانت لافتة نيون بيضاء تومض على أحد الجدران معلنةً بضوئها الشاحب: «الشرّ الأبيض يجب أن يزول». شعرت لويز ببعض الغثيان. أوحى لها المعرض بأكمله بحوض سباحة ضخم من الحليب المكثّف المتجمّد. أمرٌ مخيفٌ ومقزّز.

وجدَتْ ملاذًا في القاعة الأخيرة التي بدت أكثر إثارةً للاهتمام. تحت عنوان «جيش الأموات»، جمع المعرض حوالي عشرين صورةً رسمها ماركو ساباتيني. كانت اللوحات متشابهة. صوّرت كلّها الشابّ نفسه ذا العينين الفضيّتين اللتين لا بؤبؤ فيهما، يحدّق في المتفرّج بنظرة الميت-الحيّ. وحدها الخلفيّات تغيّرت. عرضت بعضها، المُزخرفة جدًّا، كثبانًا رمليّة، وغابة، وجبلًا، بينما برزت أخرى مسطّحة بألوان نابضة بالحياة. لم يكن الضوء نفسه أيضًا، فعُرضت مجموعة كبيرة من الأضواء انتقلت من لون الغسق إلى شحوب صباحٍ شتائيّ. هيمن التوتّر في كلّ لوحة كما لو أنّ فاجعة تتحضّر للاندلاع من هذه اللوحات الغامضة. القتال، والدم... جميعها يوحي بالموت.

– عمل رائع، أليس كذلك؟

اقتلع السؤال لويز من تفكيرها. التفتت لتحيّي برنارد بينديك. كنزة برتقاليّة، سروال جينز ضيّق، حذاء رياضيّ ملوّن: اختار الرجل الستينيّ تقمّص شخصيّة شابّة.

– كيف أساعدكِ؟

أرته لويز اللوحة وأوضحت أنّها وجدتها في منزل والدتها، راقصة الباليه النجمة ستيلا بترينكو.

– نعم، بالطبع، نحن من قمنا بتأطيرها وتسليمها. في الدائرة السابعة، أليس كذلك؟

أومأت لويز برأسها.

– كانت هديّة من الفنّان لأمّك. بحسب ما فهمتُه كانا جارين ومُنسجمين.

تلألأت عينا صاحب الغاليري المستديرتان والدافئتان من خلف نظّارة سميكة كالتي كان يرتدي مثلها المعماريّ الشهير لو كوربوزييه.

– إذا أرادت والدتك بيع اللوحة، فأنا مستعدّ لشرائها.

– والدتي تُوفّيت.

– أوه حقًّا، أنا... آسف. كم أنا غبيّ. أمضي أغلب وقتي خارج البلد ولم أعلم أنّ...

– لا عليك، قاطعته قائلة.

– أترغبين في بعض القهوة؟ أو أيّ شيء آخر؟

– القليل من الماء إن كان لديك.

دعاها بينديك لكي تتبعه إلى مكتبه في طابق الميزانين عبر درج صناعيّ معدنيّ. هنا، أقام صاحب الغاليري صالونًا صغيرًا يحتوي على طاولة من البليكسيغلاس وكرسيّين بظهر مجنّح.

– مياه عاديّة أم غازيّة؟

– عاديّة، من فضلك. هل يمكنك أن تخبرني المزيد عن لوحة ماركو ساباتيني؟

– بكلّ سرور، ردّ صاحب الغاليري الذي كان لا يزال مرتبكًا من الحماقة التي تلفّظ بها. عند وفاته، كان ماركو قد احتفل للتوّ بعيد ميلاده الحادي والثلاثين. تلقّى تدريبه في ميلانو، في أكاديميّة بريرا للفنون الجميلة، وبرز كفنّان ناشئ. بدأنا بعرض أعماله منذ عامين. في البداية، ضمن عروض جماعيّة برز فيها. ثمّ خطونا هذا العام خطوة كبيرة وقمنا بتنظيم معرض منفرد مخصّص للوحاته

الذاتيّة. مجموعة أطلق عليها هو نفسه اسم «جيش الأموات».

– هل كنت تعرفه جيّدًا؟

– ليس تمامًا. كان فنّانًا متحفّظًا ومنطويًا للغاية، قلّما يغادر منزله. غير متاح لأيّ عرض ترويجي، وبعيد جدًّا عن المسائل المادّية. لم نكن على تواصل دائم معه، رغم أنّنا بعنا العديد من أعماله لمعارض «آرت باريس» و«فياك»، و«آرت بازل». من الناحية التجاريّة، شكّلت وفاته بالنسبة إلينا ضربة قاسية.

– أشعر بأنّه يكرّر دومًا اللوحة نفسها، أليس كذلك؟

– نعم، بالضبط، الشخصيّة المتألّمة نفسها دائمًا، مع بعض الاختلافات التي تبهج هواة الجمع.

– هل من رسالة وراء ذلك؟

– لا أعلم. لم يكن من النوع الذي يعلّق على عمله، لكن... (نهض صاحب الغاليري ليتناول كتالوغًا عن أحد الرفوف)... كنّا قد نشرنا كتيّبًا عن معرضه الأخير. عمد أمين التراث الذي كتب النصوص إلى مقارنة أعماله بعمليّة إعادة شخص ميت إلى الحياة، أو تحويله إلى زومبي، بحسب تقاليد الفودو التي لا تزال تُمارَس في هايتي حتى اليوم. اقرئي النصّ، إنّه مثيرٌ للاهتمام. تفضّلي، أُهديه لكِ.

– شكرًا لك، أجابت لويز، مشوّشةً بعض الشيء.

– أتساءل عمّا إن كان ساباتيني قادرًا على رسم أيّ شيء آخر. لسوء الحظ، لن نعرف أبدًا.

– هل مات حقًّا من الكوفيد؟

– نعم، هذا ما قيل في الصحافة. وأكّدت خطيبته ذلك لي عندما جاءت لتسلّمني ثلاثًا من اللوحات التي

أنجزها ماركو قبل وفاته مباشرة. الأمر لا يُصدّق، كان شابًّا...

– أتعلم ما علاقته بوالدتي؟

تجهّم برنارد بينديك.

– كنتُ أودّ حقًّا مساعدتكِ، لكنّني لا أعرف شيئًا آخر.

.3

ساحة كونترسكارب.

الدائرة الخامسة.

«وصلتُ للتوّ إلى المقهى»، أعلنت الرسالة النصيّة.

حوّل تايفر بصره نحو مدخل الحانة فرأى نورا مسعود. بدت الممرّضة بحلّة جيّدة: معطف باللون البيج الفاتح، شعر أسود طويل مُملّس، أحمر شفاه صارخ. لوّح لها الشرطيّ بيده للفت انتباهها إلى طاولته في الجزء الخلفيّ من القاعة.

– أشكركِ لحضورك. هل أطلب لك شيئًا؟

– لا، شكرًا لك، أجابت وهي تضع حقيبتها عند زاوية الطاولة. لا تزال أمامي ساعتان على الأقلّ من العمل. إذا بدأت بشرب كوكتيلات موسكو ميول الآن، فقد يقع العديد من الضحايا.

سطع البرق في القهوة تلته قعقعة ضخمة من الرعد. استرخت نورا على الكرسيّ ثمّ نظرت إلى ساعتها وغيّرت رأيها.

– حسنًا، أريد كوبًا من البيرييه بالنعناع مع الثلج وشريحتين من الليمون، شرط ألّا يستغرق الأمر دهرًا.

بقوّته العسكريّة، أوقف تايفر النادل المُهرول لإعلامه بالطلب.

– لم أفهم أيّ شيء ممّا قلته لي على الهاتف، أيّها المحقق تايفر.

– رائد، صحّح لها.

– إن كان ذلك يسرّك، أيّها الرائد!

– أعادت فرقة مكافحة الجرائم فتح التحقيق في وفاة ستيلا بترينكو.

– مكافحة الجرائم، حقًّا؟

– تحقيقات روتينيّة قبل إغلاق الملفّ نهائيًّا.

– وما شأني أنا؟

– كنتِ قد رأيتها يوم وفاتها، أليس كذلك؟

– نعم، غيّرتُ ضماداتها لأكثر من شهر.

– ما الذي أصابها بالضبط؟

– تقلُّص دوبويتران، أتعرف هذا المرض؟

– أبدًا.

– هي حالة تؤثّر على أنسجة راحة اليد والأصابع.

ولكي تطابق القول بالفعل، كشفت نورا مسعود عن مفاصل أصابعها. كانت تضع طلاءً باللون الأحمر القرمزيّ على أظافر طويلة بإفراط، أطرافها أشبه بكعب حذاء ستيليتو.

– هو مرضٌ بسيطٌ في البداية، لكنّه يزداد سوءًا مع تقدّم العمر. شيئًا فشيئًا، تتصلّب الأنسجة المريضة وتشكّل عقيدات في راحة اليد وحافات صلبة للغاية تنكمش وتشدّ الأصابع إلى الداخل بالتدريج.

– ما سببه؟

هزّت كتفيها وأخذت رشفة من مشروبها.

– لا أحد يعرف بالضبط. من المحتمل أن يكون وراثيًا إذ يصيب غالبًا عددًا من أفراد الأسرة الواحدة. ويبدو أنّ شرب الكحول والتبغ يزيدان من خطر الإصابة به.

لم يستطع تايفر رفع نظره عن يدَي الممرّضة. كان كلّ ظفرٍ من أظافرها فريدًا من نوعه، مزخرفًا بعناية برسومٍ صغيرة: نجمة، زهرة، فراشة، هلال. مخالب حادّة فتنته.

– هل هو مؤلم؟

– ليس كثيرًا، ولكن يمكن أن يسبّب الإعاقة مع الوقت ويتطلّب إجراء عمليّة جراحيّة.

– هل هذا ما حدث لستيلا بترينكو؟

– نعم، خضعت لاستئصال كامل للأنسجة المريضة: الأطراف المتصلّبة التي كنت أتحدّث عنها.

– من يديها الاثنتين.

أخذت الممرّضة بعض الوقت للتفكير.

– لا، أصابها المرض في يدها اليمنى فقط. لحسن حظّها، كانت ستيلا عسراء.

– هل أنتِ متأكّدة؟

– مئة في المئة.

– إذن كان بإمكانها حمل مرشّة مملوءة بالماء بيدها السليمة؟

– نعم. قل لي، أتمانع أن أدخّن سيجارة؟

خرج كلاهما من المقهى ووجدا نفسيهما تحت المظلّة الصغيرة التي يتقاسمها مدمنو النيكوتين. كانت ساحة كونترسكارب تتلألأ تحت المطر. لم تطأ قدم تايفر الحيّ اللاتينيّ منذ شهور. عادت به الذكريات إلى هذا المكان في فصل الربيع. صور ريفيّة لساحة القرية تتناقض مع الحزن الذي يخيّم على يوم 28 ديسمبر. بدا المكان

عاريًا. كان مجلس المدينة قد قطع بالمنشار اثنتين من الأشجار الأربع الضخمة التي أحاطت بالنافورة المركزيّة. ولملء الفراغ، نصبت البلديّة مخروطًا من الخشب المُستصلح يُفترض أن يكون بمثابة بديل صديق للبيئة لشجرة عيد الميلاد التقليديّة. نشر شريط زينة رخيص أُلصق على عجلٍ على ألواح الخشب الرقائقي ضوءًا أبيض مثيرًا للاشمئزاز.

– لطالما تساءلتُ لماذا يقبل الناس أن تُشوَّه مدينتهم بهذه الطريقة، أشارت نورا.

وافقها الشرطيّ الرأي لكنّه اختار عدم المناقشة كي لا يُغضّ النظر عن قضيّته.

– إذن تمثّلت وظيفتك بالاهتمام بستيلا بترينكو بعد الجراحة؟

– نعم، لكنّ الأمر لم يكن معقّدًا للغاية. احتفظت ستيلا بجبيرة لمدّة خمسة عشر يومًا ثمّ كان من الضروريّ بعدها تجديد الضمادات بانتظام.

– يوميًّا؟

– نعم، لتجنّب العدوى.

– إذن بقيتِ حولها يوميًّا لمدّة شهر تقريبًا.

– هذا صحيح، قالت وهي تطلق نفخة طويلة.

– عمّ كانت تحدّثكِ؟

– لا شيء يُذكر . كان الأمر سريعًا ، كما تعلم، تغيير هذا النوع من الضمادات لا يستغرق وقتًا. في كثيرٍ من الأحيان لم أبق أكثر من عشر دقائق.

– أيّ انطباع تركت لديكِ؟

– ابنتي ترقص الباليه، لذا كنت بطبيعة الحال مهتمّة بشخصيّتها. أعطتني ستيلا إحدى حقائب الرقص

الخاصّة بها. كانت لفتة لطيفة.

– وجدتُ أدوية ليكسو وزولوفت في حمّامها. هل كانت مكتئبة؟

– كلّنا مكتئبون نوعًا ما، أليس كذلك؟ أجابت بابتسامة.

قطّب جبينه:

– تعرفين ما أقصد.

– نعم، أعتقد أنّها لم تكن بأفضل حالاتها. كانت تكره أن تتقدّم في العمر، وألّا تظلّ النجمة التي كانت عليها.

– كان لديها عشّاق؟

– في رأيي، مارست الجنس مع كلّ من ظهر أمامها.

– هل كانت تحدّثكِ عن ذلك؟

– ليس تمامًا، ليس تعليقي سوى كلامٍ قذرٍ لا يكلّف شيئًا، قالت وهي تنظر إلى ساعتها. حسنًا، سأعود إلى العمل إن لم تعد بحاجة إليّ، أيّها الرائد. أشكرك على المشروب.

رمت نورا مسعود سيجارتها في فتحة مجرى الصرف الصحّي وغادرت بسرعة البرق وهي تلوّح بيدها.

.4

عاد تايفر إلى البار لبضع ثوانٍ وترك ورقة نقديّة على المنضدة ثمّ خرج من دون انتظار الباقي من المبلغ. هام تحت المطر باتّجاه موقف سيّارات الأجرة في ساحة مونج وركب سيّارة قبل أن يعطي عنوانه للسائق طالبًا منه إيقاف تشغيل الراديو الذي كان يزمجر في المقصورة.

مع عودة المطر والظلمة، جلس محشورًا، متقوقعًا على نفسه، يترقّب منذ الآن المعاناة والوحدة اللتين سوف تر افقا ن هذا الـ مساء. شارد ا لذهن ، كان يشاهد المنظر الشبحيّ عبر النافذة عندما رنّ هاتفه.

لويز كولانج عبر تطبيق «فايس تايم».

قبل الاتّصال بتوجّس. ظهر ضوء خافت وصورة مرتجفة للفتاة الجالسة في بار مطعم «نوميرو 6».

– حسنًا، صديقتكَ ليست هنا. سأنتظر قليلًا بعد ثمّ أنصرف، اتّفقنا؟

بقي ماتياس لائذًا بالصمت. أثار المشهد الذي رآه على الشاشة ذكريات مؤلمة. كان يتذكّر الديكور: أرضيّة الطين، وجدران الطوب الأحمر، والدعائم الظاهرة من خشب البلّوط. أجواء ساكنة، لكن دافئة. طبق رافيولي على طريقة الجدّات من المستحيل مقاومته.

أخبرته لويز عن زيارتها غير المثمرة إلى معرض بينديك وفعل الشرطيّ الشيء نفسه بشأن لقائه مع الممرّضة. كان الاستنتاج حاسمًا: لقد وصلت بداية التحقيق هذا إلى طريقٍ مسدود.

– سبق أن أخبرتكِ بذلك، بدأ قائلًا، والدتكِ...

– أنت تغضبني! رشقته قبل أن تقفل الخطّ في وجهه.

تنهيدة طويلة. ساحة مونسوري المرصوفة بالحجارة. المنزل. الوجود المطمئن لتيتوس. أقفل ماتياس الباب ولم يكلّف نفسه عناء تشغيل الإنارة. خلع حذاءه في الظلام وكرّر الخطوات ذاتها، الميكانيكيّة واليوميّة، لإطعام الكلب. بالعودة إلى الصالون، بحث باللمس عن زجاجة كارويزاوا ثمّ تـهالك عـلى ا لأريكة. ر شفة أ ولى طـويلة. قـد

تكون حقيقة عدم تحمّل جسمه للكحول هي ما منعه من أن يصبح مدمنًا. ما هي إلّا ثوانٍ حتى أطاحه الويسكي.

حالة من الفوضى.

أغمض عينيه مُستسلمًا لأفكاره ومُسترجعًا شريط أحداث اليوم. هالة الضوء الشاحب التي أنارت وجه لويز كولانج. عينا الزومبي في لوحة ماركو ساباتيني. العينان الجاحظتان لحارسة المبنى ووجهها المشوّه بالهذر الذي تفوّهت به عن المؤامرة. المحادثة الغامضة التي أجراها عند الدولاب الكبير في كونكورد. لينا التي لم تحضر إلى الموعد في المطعم «نوميرو 6 ». أظافر السـ ـتيليتو لنورا مسعود.

في الوقت الراهن، قطع تايفر كلّ صلة مع الواقع. في كابوسه، كـ انت أ صابع ا لممرّضة ا لطويلة تـ شقّ حـ لقه. مستلقيًا في ساحة معركة، بين خندقين، كان ينزف حتى الموت، لكن من دون ألم. رأى غربانًا ترسم دوائر في السماء. جالسةً عليه كما على صهوة جواد، واصلت الممرّضة حفر أظافرها، هذه المرّة في أمعائه. وما إن ألقى نظرةً أقرب حتّى أدرك أنّها لم تكن نورا، بل ميريام مورلينو، الحارسة في شارع بيلشاس.

– احذر من الغرافين! يريدون السيطرة على عقلك!

كان مضرّجًا بالدماء، رأسه يؤلمه ويشعر بأنّ إبرة حياكة تخترق أذنيه. أمسكته مورلينو من شعره وهزّت رأسه.

– هاتفك يرنّ، أيّها المعتوه! إنّه ذلك الشيء! زعقَت قائلةً.

استيقظ تايفر متصبّبًا بالعرق. اللعنة... كان قلبه ينبض بقوّة. كان تيتوس قد قفز على وجهه وسال لعابه

على أنفه وفمه. مسح وجهه بكمّه قبل أن يردّ على المكالمة. لم يكن ذلك الشيء. كانت نورا مسعود.

– هل أنت بخير، أيّها الرائد؟ ما بالك تلهث وكأنّك تمارس الرياضة... أو شيء آخر ربما؟

– لا رياضة ولا شيء آخر يا مدام. كنت في منتصف كابوس، صحّح لها.

– في الفراش منذ الآن؟ إنّها الساعة التاسعة! يبدو أنّ حياتك مُنظّمة!

داعب رأس كلبه قبل أن ينهض.

– على أيّ حال، أتّصل بكِ لأنّني فكّرت في أمر، أردفت الممرضة. لعلّه تفصيلٌ غير مهمّ.

فتح تايفر أذنيه.

– أخبريني.

– قلت لك إنّني رأيت ستيلا بترينكو يوميًّا لمدّة شهر. هذا ليس دقيقًا تمامًا. في نهاية أغسطس، قبل حوالي عشرة أيّام من وفاتها، ذهبتُ في إجازة لمدّة أسبوع، وكما هي الحال في كثير من الأحيان، عيّنت العيادة بديلةً من خلال منصّة مخصّصة للعاملين الصحيّين.

دلّك الشرطيّ صدغيه، غير واثقٍ من أنّه فهم فهمًا صحيحًا.

– إذن، في هذه الفترة تدخّلت ممرّضة أخرى لتغيير ضمادات الراقصة، أليس كذلك؟

– نعم، من 25 أغسطس إلى 1 سبتمبر.

– هل يمكنك أن تجدي لي اسمها؟

– لقد بحثت عنه بالفعل.

تناول تايفر قلمًا ليدوّن الاسم.

– اسمها شارفيه، قالت نورا. أنجيليك شارفيه.

صمتت الممرّضة لبعض الوقت، ثمّ تجرّأت على الطلب:

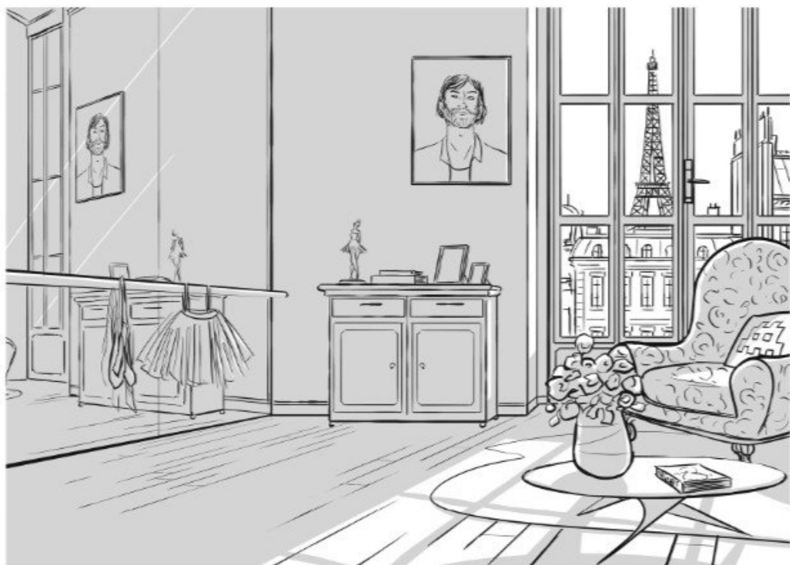
– لقد انتهى دوامي. هل ترغب في دعوتي لتناول السوشي؟ أعرف مطعمًا جيّدًا في الدائرة الثامنة...

---

[1] أداما تراوري هو مواطن فرنسيّ مسلم ذو أصل ماليّ، تُوفّي في الحجز وأثار موته احتجاجات ضدّ وحشيّة الشرطة في فرنسا.

II.

أنجيليك شارفيه



5

جانبا السياج

«عندما يذوب الثلج، إلى أين يذهب البياض؟».

وليام شكسبير

قبل أربعة أشهر.

ضواحي باريس.

28 آب.

.1

اسمي أنجيليك شارفيه.

عمري أربعٌ وثلاثون سنة.

أجلس الآن على حوض المرحاض.

بين يديّ اختبارٌ للحمل.

النتيجة إيجابيّة.

.2

أشعر بأنّ الخطّين المرسومين على هذه العصا البلاستيكيّة يسخران منّي. مع أنّني توقّعت النتيجة: تأخّر الدورة الشهريّة، ألم في الثديين، بداية غثيان. نهضتُ ورميتُ الاختبار في المغسلة ثمّ دخلتُ تحت الدش.

وقفتُ مسمّرةً تحت المياه الحارقة، حاولتُ العودة بالذاكرة لتحديد «الأب». عددتُ في رأسي الأسابيع والأيّام تنازليًّا... إلى أن وقعتُ على كورنتين لولييفر. لقاءٌ غراميٌّ فاشلٌ مع شخصٍ تعرّفتُ إليه على تطبيق «تِندر» في أوائل أغسطس. ذلك اللقاء الذي كنتُ قد محوته جزئيًّا من ذاكرتي. صحافي مُستقلّ، يعمل في وسائط مُختلفة، عرّف نفسه بأنّه «مناضل» يتأرجح بين صفتَي «الناشط» و«الصحافي». رأسٌ مستديرٌ على غرار غاستون لاغاف، سكسوكةٌ كالماعز وصلعة كان يخجل بها ويحاول إخفاءها تحت كاسكيت ذات حافة واسعة. أقلّ ما يُقال إنّه لا يشبه الصور التي نشرها على صفحته الشخصيّة.

كان قد اصطحبني إلى بار «أنفان تيرّيبل» على رصيف جيماب. أتذكّره يرتدي قميصًا صديقًا للبيئة وسخيفًا يحمل شعار: «نحتاج إلى أرض سعيدة». كان لدى الرجل آراءٌ صارمة في كلّ شيء. كان يصغي إلى نفسه يثرثر لدرجة أنّني فصلتُ دماغي بعد ربع ساعة من اللقاء ورحتُ أحتسي كوكتيلات «ليمون دروب» الواحد تلو الآخر. لعلّي شربتُ كميّة غير معقولة. من دونها، لم أكن لأوافق على مرافقته إلى شقّته في شارع أوجين-فارلين. في المضاجعة أيضًا، واصل أداءه الرديء. لعلّ الواقي الذكريّ تمزّق عند ذلك. والسبب بالتأكيد لم يكن حجم قضيبه.

خرجتُ من الحمّام وارتديتُ ثيابي بسرعة البرق. عليّ ألّا أفكّر في هذا الحقير الذي يذكّرني بأخطائي. عليّ التعامل مع الأمر كما المرّة الماضية. إجهاض طبيّ في عيادة القابلة صوفي شاربونييه، شارع شيرش-ميدي. كانت صوفي زميلتي في السنة الأولى في كلّيّة الطبّ في بوردو. كان غرورها لا يُعقل، لكنّها وفّرت عليّ كلّ الهراء النفسيّ والاجتماعيّ. قرص واحد من الميفيبريستون لإنهاء الحمل وآخر من الميزوبروستول بعد ستّ وثلاثين ساعة. فترة مروّعة سوف أعيشها، ولكن بحلول نهاية الأسبوع المقبل تكون هذه المشكلة قد أصبحت من الماضي.

.3

أولنيه-سو-بوا.
الساعة الثامنة صباحًا.

تحت وابل المطر، غادرتُ المبنى القديم الصغير المشيّد من الحجر الرمليّ الخشن حيث أقطن منذ وصولي إلى باريس قبل ثماني سنوات. اليوم 28 أغسطس. الطقس صيفيّ في كلّ زاوية من فرنسا باستثناء منطقة إيل-دو-فرانس اللّعينة. ساحة الجنرال لوكليرك، جادة ستراسبورغ، ثمّ طريق بوندي وصولًا إلى محطّة القطار. ما الأكثر كآبةً من سين-سان-دوني؟ سين-سان-دوني تحت المطر.

الفوضى المعتادة للّحاق بالقطار على الخطّ «ب». المقطورات تتصبّب عرقًا. حرفيًا. رطوبة استوائيّة تتغلغل في العربات فتجعل الرحلة إلى باريس أكثر إنهاكًا. نظرة على «إنستغرام». صديقاتي في كورسيكا، في سان تروبيه،

في توسكانا، في الفنادق الجميلة على ساحل البحر الأدرياتيكيّ. تلوّنت صفحتي بألوان البحر الأبيض المتوسّط. البحر في كلّ مكان، كما النظّارات الشمسيّة، والرمال الساخنة، والكوكتيلات، والعوّامات على شكل طائر الفلامينغو الورديّ في أحواض السباحة. #summer #goodvibes #sun #love #holidays #naturelover #hotsummernight #summerbliss #protectyourskin #beachbabe #bikiniseason. كانت الهاشتاغات المُبهجة التي تتدفّق على شاشتي تتناغم مع أسماء المحطّات التي تتعاقب عبر نافذتي. درانسي، لا كورنوف، غار دو نورد، شاتليه-ليه-هال. تبديل في سان-ميشيل-نوتردام قبل وجهتي النهائيّة.

شكّل الوصول إلى محطّة موزيه–دورساي لحظة الخلاص. بعض الهواء، أخيرًا. نهر السين، طيور النورس، الساعتان، الأقواس الأبديّة لبونت رويال. كانت باريس داخل أسوار المدينة كنايةً عن عالم آخر. حتّى الطقس بدا أكثر رحمة. لقد توقّف المطر وانفتحت ثغرة من السماء الزرقاء عبر الغيوم. لم أكد أجتاز منطقة سان-توماس-داكين حتّى بدأتُ أتنفّس من جديد. لم أعد أشعر بأنّني من سكّان الضواحي، بل بأنّني باريسيّة بامتياز. لقد غسلت العاصفة المدينة. كانت البنايات تتلألأ في شارع بيلشاس كما النجمات في السماء.

هيّا، تشجّعي!

أشعر بأنّ أيّام العمل تهون في الأحياء الجميلة، خاصّة أنّ برنامجي الصباحيّ يبدأ مع مريضتي المفضّلة.

ضغطتُ زرّ نظام الاتّصال الداخليّ واستقللتُ المصعد إلى الطابق الخامس.

– مرحبًا أنجيليك. كيف حالكِ هذا الصباح؟

هذه زيارتي الرابعة لستيلا بترينكو وما زالت البرهة التي أم ضيها ع ندها م متعة لي. ل دينا عادا تنا. أغيّر ضمادتها، تقدّم لي الشاي الأسود بالحمضيّات ثمّ ندردش لمدّة خمس دقائق عن السماور، ذاك الوعاء الفضّي الفخم لإعداد الشاي. أحبّ شقّتها، وديكورها، والإطلالة الكاشفة على الأسطح، والأرضيّة الخشبيّة القديمة المُشمّعة. كانت راقصة الباليه السابقة منطلقة اللسان. فطِنة وتتميّز بحسّ الفكاهة. كانت تنصحني ببعض الكتب والأفلام وتخبرني بحكايات مثيرة عن حياتها المهنيّة، فأشعر للحظة بأنّني وجدتُ أخيرًا المكان الذي أنتمي إليه. كنتُ أقول لنفسي إنّي أنا أيضًا يمكنني أن أنتمي إلى هذه البيئة حيث تبدو الحياة شاسعةً أكثر. أن أقتلع نفسي من حياتي اليوميّة الكئيبة. أن أترك الضواحي وأفقها المحدود.

لطالما حاولتُ أن أترقّى على السلّم الاجتماعي: سواء من خلال الدراسات، أو اللقاءات، أو العلاقات الغراميّة المعقّدة، أو الإغراء والتلاعب. كنتُ أعرف كيف أؤدّي دور الحرباء. اعتقدتُ لفترة طويلة اعتقادًا راسخًا بأنّني سأتمكّن يومًا من عبور هذه الحدود الخفيّة التي تبقيني على الجانب المُظلم من السياج. ولكن مع مرور السنين وتعاقب خيبات الأمل، تلاشى هذا اليقين. تعلّمتُ أن أميّز نقاط قوّتي ونقاط ضعفي. كنتُ أعلم أنّ قوّتين تتعايشان في داخلي. صراع الملاك والشيطان. في أيّامي الجيّدة، نجحتُ حقًّا في التظاهر، وفي وضع حدٍّ لقلقي، وإحباطاتي وغضبي، وفي توجيه الفوضى التي تهيمن في رأسي. فوجد كلّ من التقاني أنّني جذّابة، ومتوازنة ومحبوبة. وهو ربّما ما فكّرت فيه ستيلا بترينكو في تلك اللحظة بالتحديد.

– هل سمعتِ ذلك؟ سألتني فجأةً وهي تضع فنجان الشاي على الطاولة.

دوّت خبطة مرعبة من الطابق العلويّ. كما لو أنّ قطعة أثاث ثقيلة جدًّا مليئة بالأطباق قد تحطّمت. ثمّ لا شيء.

– يأتي الصوت من عند ماركو، قالت ستيلا. غريب، هو لا يصدر ضجّة أبدًا.

– أظنّ أنّه يُفضّل أن نذهب ونلقي نظرة.

أومأت برأسها إيجابًا. تبعتُها إلى بسطة الدّرج. وبما أنّ المصعد لا يرتفع عن الطابق الخامس، صعدنا الدرجات.

– من هو ماركو؟

– ماركو ساباتيني، رسّامٌ شابّ. إيطاليٌّ غريب الأطوار بعض الشيء، لكنّه لطيفٌ جدًّا. قصدني ليطلب قرص دوليبران بعد ظهر أمس. كان يسعل حتّى كاد يبصق رئتيه جارًّا نفسه كالبائس. عرضتُ عليه طلب طبيب إلى المنزل لكنّه لم يرغب في ذلك.

طرقتُ الباب عدّة مرات:

– سيّد ساباتيني؟

لا جواب.

– هل أنتَ هنا، سيّد ساباتيني؟

حاولتُ أن أفتح الباب لكنّه كان مقفلًا.

– هل لدى الحارسة نسخة من المفاتيح؟

أومأت ستيلا برأسها:

– بلا شكّ، ولكنّها... في إجازة.

نظرتُ حولي.

– ما هذا؟

– درج الخدمة القديم.

دفعتُ الباب المعدنيّ لأكتشف درجًا صغيرًا محاطًا بالجدران ومزوّدًا بسلّم يفضي إلى منفذ دخان. رغم عيوبي، لديّ أيضًا بعض الحنكة. أعرف كيف أحافظ على رباطة جأشي وأتعامل مع حالات الطوارئ. تسلّقتُ السلّم وفتحتُ النافذة ثمّ رفعتُ نفسي نحو الخارج.

– انتبهي، هذا خطِر! صاحت بي ستيلا.

وصلني صوتها مشوّهًا نتيجة الصدى، ومُخفّفًا بفعل الهواء. جالسةً القرفصاء على الأسطح، شعرت كأنّني في عالمٍ آخر. كان المنظر يحبس الأنفاس. بحرٌ هائلٌ من الأردواز والزنك. استقمتُ نصف استقامة محاولةً ألّا أفقد توازني. كانت الرياح تهبّ بقوّة لدرجة أنّني احتجتُ إلى بعض الوقت لتحديد اتّجاهاتي ووجهتي. منبهرةً بانعكاسات الضوء، حجبت عينيّ بيدي وحدّدت موقع سلسلة من المناور التي من شأنها أن تؤدّي إلى ساباتيني. وفيما أنزلق ببطء على طول المزراب، كادت هبّة ريح فجائيّة تفقدني توازني. أرتجف، أشعر بالاضطراب، ثمّ أنفجر بالضحك لدرء الخوف. أحبّ هذه اللحظات الخارجة عن المألوف والتي تجعل المرء يفكّر في أنّ هذا اليوم سيكون مختلفًا عن غيره. كانت إحدى النوافذ مفتوحةً على مصراعيها. وما هي إلّا أمتار قليلة حتّى تمكّنت من اجتياز الكوّة الضيّقة من دون كسر عظامي.

.4

تنفّست الصعداء وأنا أتسلّل إلى الشقّة. المكان مذهل. دُمجت غرف الخادمات التي تشغل الدور السادس كلّها لإنشاء مرسم كبير لا تقلّ مساحته عن مئة وخمسين مترًا

مربّعًا. تحوّل الطابق إلى عليّة يخترقها عدد من المناور التي تضيء المساحة.

على الرغم من التهوية، فاحت رائحة التربنتين القويّة في الأجواء. سرّحتُ نظري عبر الغرفة فرأيتُ جسد ماركو ساباتيني ممدّدًا على الأرض بين حاملَيْن خشبيَّيْن، تطوّقه علب الطلاء، وجرارٌ زجاجيّة محطّمة وطاولة العمل التي لا بدّ أنّه سحبها وهو يقع.

أخرجتُ من جيبي القناع الطبّي الذي كنت قد أزلته لعبور الأسطح.

– سيّد ساباتيني؟ هل يمكنك أن تسمعني؟ كيف تشعر؟ سألتُ وأنا أركع بجانبه.

كان في أوائل الثلاثينيّات من عمره، شعره متوسّط الطول ملتصق بعضه على بعض بسبب العرق، لحيته لم تُحلق منذ عدّة أيّام. وجه أشبه بوجه ملاك حُقن للتوّ بجرعة من الهيروين.

انحنيتُ نحوه ووضعتُ يدي على جبينه. كان مشتعلًا. حاول أن يغمغم شيئًا، لكنّ صوته لم يكن مسموعًا بسبب ضيق التنفّس الشديد الذي أصابه.

– أنا ممرّضة. سوف نعتني بك.

نهضتُ لأفتح باب المدخل.

– جاركِ في حالة سيّئة، ستيلا. هل يمكنك جلب الحقيبة التي تركتُها في شقّتكِ؟

– طبعًا.

عدتُ إلى مريضي. كان يرتدي قميصًا أبيض من الكتّان ملطّخًا بآثار الطلاء، كشف كمّاه المرفوعان عن العديد من الوشوم: النجمة الخماسيّة للألوية الحمراء [1]، حمامة الحرّية، عبارة «يا ليتك هنا» بالإنكليزيّة، قبضة يد

مرفوعة، سكّين قتاليّ يقطر دمًا، عبارة مناهضة للرأسماليّة بالفرنسيّة: من جحيم الفقراء تُبنى جنّة الأغنياء.

– هل تطعّمت ضدّ الكوفيد، سيّد ساباتيني؟

ما إن رفع إصبعه الوسطى في اتّجاهي حتّى افترضت أنّ الجواب لا.

كان متكوّرًا في وضعيّة الجنين ويده اليسرى مشدودة على صدره. سروال بيجامته مبقّع بسيل من البراز السائل. انتابته نوبة سعال تخنقه. عادت ستيلا مع حقيبتي فطلبتُ منها عدم الدخول:

– من المحتمل أن يكون معديًا.

ثبّتّ مقياس التأكسج على سبّابة ساباتيني. كما توقّعتُ، كان معدّل الأوكسجين في دمه أقلّ من 90 في المئة، ما يتطلّب دخولًا طارئًا إلى المستشفى.

اتّصلتُ بالمركز 15 لخدمة المساعدة الطبّية الطارئة وشرحتُ للمساعد الطبّي أسباب اتّصالي. أخذ الرجل على الطرف الآخر من الخطّ دهرًا لإنشاء الملفّ على حاسوبه. الحالة الكلاسيكيّة ذاتها في شهرَي الصيف عندما لا تكون الخدمة منظّمة بسبب العطلات. أخبرته أنّني ممرّضة وأنّ مريضي يعاني ضيق تنفّسٍ حادًّا. وعندما بدأ هذا الحقير يكلّمني بازدراء، ضغطتُ عليه لتحويل المكالمة إلى الطبيب المنسّق الذي وافقني الرأي في تشخيص الرسّام، أي حالة كوفيد مُحتملة في وضعٍ حرج، وأرسل فريقًا من خدمة الطوارئ والإنعاش المتنقّلة.

بعد عشر دقائق، وصل طبيب وممرّض ومسعف إلى الطابق السادس. قفّازات، أردية، نظّارات، نشاط وحماسة. انشغل الفريق الطبّي بتقديم الإسعافات الأوّليّة الطارئة لساباتيني. عرضتُ مساعدتي لكن فضّل الرجال الثلاثة أن

يكونوا وحدهم. اختاروا أخيرًا وضع الرسام على نقّالة وإكمال العلاج مباشرةً في سيّارة الإسعاف.

بقيتُ وحدي لفترة من الوقت في الشقّة الفارغة. كانت ثلاث لوحات على حوامل خشبيّة. لوحات فريدة تكرّر الوجه نفسه مع النظرة الزئبقيّة ذاتها على خلفيّات مختلفة. تصوّر ساباتيني فيها نفسه. أمير إيطاليّ من عصر النهضة. لورينزو دي ميديشي بعينَيْن مُقتلعتَيْن.

بهرتني الشقّة وأخافتني في الوقت ذاته. أقفلتُ الباب بنيّة إعادة سلسلة المفاتيح، لكن عندما وصلتُ إلى الطابق الأرضي، أدركتُ أنّ حلقة المفاتيح لا تدخل في فتحة صندوق البريد الخاصّ بغرفة الحارسة.

– آه، أنجيليك، نحتاج إليكِ!

استدرتُ. كان الممرّض يناديني عبر الرصيف. كان ذا هيئة مضحكة: رأس حليق، عين زجاجيّة غارزة في المحجر، حاجبان أمهقان.

– هل ما زلتم هنا؟ سألتُ وأنا ألاحظ كيف رُكنت سيّارة الإسعاف مكان سيّارتَيْن. كيف حال المريض؟

– ليس جيّدًا. لقد أوصلناه بالأنابيب ووضعناه على جهاز التنفّس الاصطناعيّ.

بإيماءة من ذقنه، أشار إلى الطبيب المنشغل بهاتفه على مسافة ليست بعيدة من الرصيف.

– يحاول الطبيب أن يجد له سريرًا محتملًا في وحدة العناية المركّزة، لكنّ هذا صعب. نواجه المعاناة نفسها دائمًا خلال العطلات.

– لا عجب.

– اسمي إستيبان.

أومأتُ برأسي. كنتُ قد رصدتُه فور وصوله بسبب مظهره الغريب. لم يكن في غاية الذكاء، لكنّه كان كائنًا مؤثّرًا. كان يحمل في يده الجهاز اللوحيّ الرقميّ حيث وجب تعبئة تقرير استجابة خدمة المساعدة الطبّية الطارئة.

– طلب منّي الدكتور مساعدته في ملء هذا الشيء، لكنّني أعاني قليلًا في إنجاز ذلك. أتعرفين اسم المريض؟

– ماركو ساباتيني.

– كيف نكتبه؟

– راجع مديريّة المخابرات العسكريّة. سيتمّ التطابق تلقائيًّا.

– هل يمكنكِ مساعدتي؟

ألقيتُ نظرة على الشاشة وساعدته على ملء بعض المعلومات في ملفّ خدمة الطوارئ والإنعاش المتنقّلة. اقتضت إحدى النقاط اختيار جهة الاتّصال الخاصّة بالمريض في حالات الطوارئ. من دون تفكير، تركتُ اسمي: «أنجيليك شارفيه، صديقة».

---

[1]«الألوية الحمراء» هي منظّمة لينينيّة شبه عسكريّة، مقرّها في إيطاليا، تبنّت مبدأ العنف الثوريّ خلال ما يُسمّى «سنوات الرصاص».

6

مجنونة بعض الشيء

«لطالما فضّلتُ جنون العواطف
على رصانة اللامبالاة. لكن بما أنّ
عواطفي ليست من النوع الذي
يتفجّر ويدمّر ويقتل، أغلب الناس
لا يرونها».

أناتول فرانس

.1

الساعة الثامنة مساءً.

أنهيتُ للتوّ موعدي الأخير: حقنة مضادّة للتخثّر لعجوز غليظ في شارع آساس. مرّ اليوم من دون أن ألاحظ. كنتُ قد جرفتُ أفكاري السلبيّة كلّها وخبّأتها «تحت البساط»: اختبار الحمل، الإجهاض المُرتقب، المعتوه كورنتين لولييفر. كان الطقس جيّدًا. اصطبغت السماء باللون الورديّ وامتلأت بالوعود. لم تكن لديّ أدنى رغبة في حشو نفسي داخل القطار المقزّز للعودة إلى أولنيه. عازمةً على الاستمتاع ببضع ساعاتٍ أخرى في باريس،

سرتُ في شارع راسباي ودسستُ يديّ في جيبَي معطفي الواقي من المطر، لأدرك أنّ مفاتيح شقّة ماركو ساباتيني لا تزال في حوزتي.

ولأنّ شارع بيلشاس كان قريبًا، عدتُ بنيّة تركها مع ستيلا بترينكو. أدخلتُ الرمز المزدوج لدخول المبنى وأخذتُ المصعد إلى الطابق الخامس، ثمّ حملتُ إصبعي إلى جرس الباب. وتردّدتُ. عبرتني رغبةٌ لم أكن أتوقّعها. رغبةٌ في رؤية الشقة العليا مرّةً أخرى. بمفردي. صعدتُ الدرج بهدوء، وأدخلتُ المفتاح في القفل فوجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع سلسلة اللوحات الثلاث لِساباتيني.

– مرحبًا يا رفاق. أتحرسون ميتًا أم ماذا؟

كانت العينان الفضيّتان تنظران إليّ من دون أن ترياني. سمعتُ طقطقة ألواح الخشب تحت قدميّ. ذكّرتني رائحة زيت التربنتين المُدوّخة بورشة النجارة التي كان يملكها جدّي.

رفعتُ الستائر للسماح بدخول الضوء. غطّت هيبة هذه الشقّة العلويّة، بمساحاتها الواسعة وعوارضها المكشوفة، على كلّ ما فيها. كانت المساحة جيّدة التهوية، لكن بسيطة جدًّا، مكرّسة تقريبًا بالكامل للإبداع. حلّت الحوامل والمنصّات الخشبيّة محلّ الأثاث وباتت الأرضيّة الخشبيّة منقّطة بآلاف البقع الملوّنة. وفي كلّ أرجائها، تناثرت علب الطلاء، ولوحات الألوان، وقطع القماش، وكرّاسات الرسم التي بقيت مفتوحة، وبرطمانات الريشات الصغيرة والكبيرة.

رحتُ أتطفّل. فتحتُ الثلّاجة، والأدراج، والخزائن، كما لو كنتُ في منزلي. كنت جائعة فقضمت بعضًا من بسكويت «شامونيكس»، وتفّاحة «غالا»، وزبادي منتهي

الصلاحيّة. في الحمّام، وقعتُ على مجموعة مخدّرات لعلّ طبيب خدمة الطوارئ والإنعاش المتنقّلة اكتشفها قبلي. لم يكن سباتيني مبتدئًا في هذا المجال: كوكايين، حبوب إكستاسي، أنبوب أوكسيكونتين، أكياس «سبايس» بلاستيكيّة. نظرتُ إلى المخدّرات باشمئزاز. كنتُ دائمًا حريصة على الابتعاد عن هذا العالم. لم تكن الأوهام التي تغزو عقلي بحاجة إلى مساعدة لبثّ الفوضى في حياتي. مع ذلك، لم أستطع مقاومة جرعتين من قارورة الفودكا بالعسل التي وجدتُها في الثلّاجة.

لاحظتُ تحت قطعة أثاث هاتف ساباتيني المحمول الذي لا بدّ أنّه انزلق منه عندما انهار على الأرض هذا الصباح. قد يكون حاول طلب المساعدة بنفسه قبل أن يفقد وعيه. رنّة هاتف. ليست من هاتف الرسّام، بل من هاتفي.

– أنجيليك شارفيه؟

– معكِ.

– أُكلّمكِ من وحدة العناية المركّزة في مستشفى بومبيدو. أتّصل بكِ لأخبركِ عن حالة حبيبكِ، السيّد ماركو ساباتيني.

– ماذا تقصدين؟

بقيتُ للحظة معقودة اللسان قبل أن أستوعب سوء الفهم الحاصل. كان ملفّ خدمة الطوارئ والإنعاش المتنقّلة قد أُرسل إلى المستشفى وظنّت الممرّضة أنّني حبيبة مريضها عوضًا عن مجرّد صديقة له.

لم تكن الأخبار جيّدة. كما توقّعتُ، بلغ المرض الرئتين ولم يكن أمام الطاقم الطبّي خيارٌ سوى وضع الرسّام في غيبوبة اصطناعيّة. ووفق ما أخبرتني به محاورتي،

فهمت أنّ المستشفى يبحث عن معلومات عن التاريخ الطبّي لهذا المريض الإيطاليّ والعلاجات التي خضع لها. سألتني عمّا إن كان يتابعه أيّ طبيب أو مركز صحّي. وعدتُها بالاستعلام عن ذلك قبل أن أقفل الخطّ.

.2

حملتُ معي زجاجة الفودكا بالعسل إلى الشرفة. ارتميتُ على كرسيٍّ هزّاز متخلخلٍ من الخيزران وضعه الرسّام للاستفادة القصوى من الشمس. كانت درجات الباستيل في السماء قد تحوّلت إلى لون برتقالي أشبه بلون زجاجة الكروبنيك في يدي.

كان الهاتف الذي التقطتُه عن الأرض من طراز آيفون قديم جدًّا بشاشة محطّمة لدرجة أنّ شظايا زجاج صغيرة تكاد تنشقّ عنه وتبقى بين أصابعي. لكنّ الجهاز ما زال يعمل ولم يكن محميًّا بكلمة مرور. من الواضح أنّ ساباتيني ليس مدمنًا على الهاتف. لم يكن الآيفون، من النظرة الأولى، يحوي أيّ شيء مثير للاهتمام. كان الرسّام يستخدم هاتفه المحمول لأمرَين: حجز طلبيّات لدى تاجر مخدّرات، وتبادل مئات الرسائل النصّية مع والدته، بيانكا.

كان يبعث بالرسائل النصّيّة على دفعات، في أوقات الضيق. لحظات صعبة بدا فيها الابن غارقًا في خوفه، تطارده الكوابيس المرعبة. لحظات يدّعي فيها أنّه مُلاحق ممّا يسمّيه مرّات عديدة «جيش الأموات». ثمّ تنقطع الاتّصالات بمجرّد عودة الهدوء إلى حياة ماركو. مع صمت طويل يدوم لعدّة أشهر في بعض الأحيان. وفق ما تمكّنتُ من قراءته على الشاشة، لم يتحدّث الابن وأمّه منذ عيد

الميلاد الماضي. بالعودة إلى الوراء أكثر، لاحظتُ أنّ الإيطاليّ بارعٌ في خداع والدته وجعلها تصدّق أنّ مشاكل إدمانه قد أصبحت وراءه. وكانت الأمّ ساذجة بما يكفي لتصديقه.

أو أنّها على الأرجح تفضّل غضّ النظر؟

بقراءة محادثاتهما، يمكنني أن أستنتج أنّهما قلّما يتقابلان. تعيش بيانكا ساباتيني بين تورينو والبندقيّة وتسافر على نطاق واسع، تارةً إلى الولايات المتّحدة، وطورًا إلى آسيا أو العواصم الأوروبيّة. لاحظتُ أنّ اسم شركة يتكرّر عدّة مرّات بين الرسائل: «أكوا ألتا». كنتُ أعرف علامة الملابس التجاريّة تلك بفضل الإنستغرام ولأنّني سبق أن مررتُ أمام متجرها في جادة مونتان. بوتيك فاخر يعرض تصاميم من الكشمير قد تساوي ضعف راتبي.

عدتُ إلى هاتفي. عليّ أن أعرف المزيد. غوغل: «عائلة ساباتيني» + «أكوا ألتا». جاءت نتائج البحث مثيرة للاهتمام وتوضيحيّة: كان ماركو ساباتيني وريث سلالة إيطاليّة مرموقة. عبر روابط النصوص التشعّبيّة، تكشّف تاريخ الشركة شيئًا فشيئًا.

كانت عائلة ساباتيني، وأصلها من بييمونت، تعمل في تجارة الأقمشة والصوف منذ منتصف القرن التاسع عشر. ثمّ بنت شركة أكوا ألتا، التي تأسّست مع نهاية الحرب العالميّة الأولى، عددًا من مصانع الغزل في شمال إيطاليا أوّلًا. وفي فترة العشرينيّات الصاخبة، تطوّرت مصانعها وبدأت بتزويد منسوجات عالية الجودة لدور الأزياء الكبرى آنذاك: بول بواريه، لانفين، فيونيه، شانيل.

مع الثلاثينيات المجيدة، توسّعت الشركة عالميًّا وبدأت التصدير إلى آسيا والولايات المتّحدة، لكنّها

اتّخذت بُعدًا مختلفًا في التسعينيّات. في تلك الفترة، كان ليساندرو ساباتيني، والد ماركو، المعروف للجميع بلقب «إنجنييري»، أي المهندس باللغة الإيطاليّة، قد تولّى مقاليد إدارة الشركة، وواصل الارتقاء في سوق السلع الفاخرة من خلال تطوير إنتاج صوف ناعم جدًّا من مزارع للإبليّات، وهي فئة من حيوان اللاما نادرة جدًّا موجودة فقط في جبال تشيلي. بعد سقوط نظام بينوشيه، ضاعفت أكوا ألتا استثماراتها بالاتّفاق مع الحكومات التشيليّة المتعاقبة لتوسيع نطاق تربية هذا الحيوان الذي كان وقتذاك مهدّدًا بالانقراض.

سرعان ما بدأت العلامات التجاريّة الفاخرة الكبرى تتنازع على هذا الصوف الأغلى ثمنًا والأرقى من الكشمير، الذي يشتهر بأنّه أحد ألطف أنواع الصوف على البشرة. الخطوة الأخيرة في هذا التطوّر: أطلقت أكوا ألتا خطّها للملا بس الجاهزة لتوزّعه من خلال شبكة من المتاجر الفاخرة. نجاح اقتصاديّ مذهل أثار الكثير من المطامع. فقد سعت كلّ من شركات «مويت هنسي لوي فيتون»، «كيرينغ» و«ريشمونت» في السنوات الأخيرة إلى الاستيلاء على هذه الجوهرة، التي يُشار إليها أحيانًا باسم «هيرميس الإيطاليّة». غير أنّ عائلة ساباتيني صدّت هذا الانقضاض للمجموعات الفاخرة عليها. ولم يفوّت الإنجنييري، عبر خطاباته النادرة، فرصة للتذكير بأنّ أكوا ألتا ستظلّ شركة حِرفيّة عائليّة ولن تسقط أبدًا في «المحفظة الجامدة والخالية من الروح التي تضمّ الشركات العالميّة».

.3

بعد دروس الاقتصاد، حان وقت التحرّي عن أفراد العائلة. في أوائل القرن الواحد والعشرين، نشرت مجلّتا «أوجي» و«خينتي» (كناية عن «باري ماتش» الإيطاليّة) عددًا من التقارير المصوّرة عن عائلة ساباتيني. كان ماركو وأخته التوأم ليفيا يبلغان من العمر حوالي عشر سنوات في ذلك الوقت. أظهر آل ساباتيني صورة العائلة السعيدة. جولات في قوارب «ريفا» على مياه بحيرة كومو، وعطلات تزلّج في كورتينا دامبيدزو، واستجمام في منزلهم في رأس أنتيب. لكنّ ليفيا تُوفّيت في سنّ التاسعة عشرة، أثناء نزهة في الدولوميت. منذ ذلك الحين، صار سلوك ماركو متقلّبًا، متأرجحًا بين حقن الهيروويين، والتمرّد المناهض للرأسماليّة، والمغامرات الطائشة على أنواعها. هذا الضلال الذي عاشه لخّصته مقالةٌ نُشرت عام 2015 في صحيفة «كوريري ديلا سيرا»:

ماركو ساباتيني، الابن الشقيّ لإمبراطوريّة أكوا ألتا، في المستشفى بعد جرعة زائدة

عُثر على نجل ليساندرو ساباتيني، المساهم الرئيسيّ في مجموعة أكوا ألتا، صباح أمس، فاقد الوعي في مسكن غير قانونيّ في حيّ كوارتو أوجيارو في ميلانو. كان رفيقٌ له في حفلة المخدّرات هو من تفطّن لطلب النجدة، مشيرًا إلى أنّ ابن الإنجنييري قد استهلك ما يعادل 5 غرامات من الكوكايين بعد حقن نفسه بالهيروويين. نُقل ماركو ساباتيني إلى مستشفى نيغواردا، لكن يبدو أنّه خرج من دائرة الخطر.

تخرّج الشاب البالغ من العمر 25 عامًا من أكاديميّة بريرا للفنون الجميلة، وهو الوريث الوحيد لسلالة ساباتيني منذ وفاة أخته ليفيا. وغالبًا ما كرّر عدم رغبته في تولّي أيّ مسؤوليّة في الشركة. خلال دراساته الجامعيّة، أنشأ موقعًا إلكترونيًّا للطلّاب ينادي بالحركة المناهضة للّيبراليّة والمحافظة على البيئة حيث كتب:
«الرأسماليّة هي أساس كلّ الآفات الاجتماعيّة. لا يمكن للبشريّة أن تستمرّ بوجودها. لا بدّ أن يدمّر هذا النظام نفسه في نهاية المطاف على المدى الطويل، لكن ليس لدينا الوقت للانتظار. علينا البدء بالقضاء على البورجوازيّة منذ هذه اللحظة، والعنف هو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك».

عندما رفعتُ عينيّ عن شاشة الهاتف، كان الليل قد حلّ وكانت الغرفة قد غرقت في ضوءٍ أسود بانعكاساتٍ زرقاء. على الجانب الآخر من الشارع، لمحتُ مراهقًا، على رأسه سمّاعات، يلعب على شاشة عملاقة. ارتفع نحوي صخب بعيد. صخب باريس شبه الخالية في شهر أغسطس التي تعود، على مدار بضعة أسابيع، ريفيّة بعض الشيء. أنعش نسيمٌ لطيفٌ الجوّ. كنتُ قد أنهيت زجاجة الفودكا. شعرتُ بدوار الثمالة، فأغمضتُ عينيّ للحظة. كان الشعور غريبًا. أصابني دوارٌ رهيبٌ لكنّني بقيتُ واعيةً بشكلٍ لا يُصدّق.

لطالما هدّأني نسيم الليل. ألاحظ أنّ إحباطي يضمحلّ وأفكاري تتوازن لتصبح واضحة وبنّاءة، وإن تسلّلت إليها المعاناة نفسها من جديد. معاناة أن تفلت حياتي منّي. معاناة أن أكون غريبةً عن وجودي. أن أكون مجرّد متفرّجة عاجزة عن كتابة مقطوعتها الخاصّة. أن أجرّ نفسي على

سكّة جانبيّة تُترك فيها القطارات التي لا وجهة لها. أن أعتقد أنّني أستحقّ حياةً أفضل. كما لو أنّ الربّ أخطأ عندما وزّع الأوراق التي تتيح لنا لعب حياتنا.

ما سرّ أولئك الذين يُوفّقون في كلّ شيء؟ تسأل سيلين ديون في إحدى أغانيها. شخصيًّا، أعاني في مواكبة عجلة العالم بالطريقة التي تدور بها. متخلّفةً عن ركابها، أجدني أسلك طريقًا موازيًا، يتعثّر ويتكرّر، حتى تهت. لم أعد أعرفني، ولم أعد أعرف ماذا أريد.

مجنونةٌ بعض الشيء.

يتردّد صدى هذا التعبير في رأسي كلّما أوشكتُ على نسيانه.

أنتِ مجنونةٌ بعض الشيء، يا أنجيليك.

على لسان أمّي. على لسان أولئك اللّواتي كنّ صديقاتي ذات يوم وأولئك الرجال القلائل الذين عبروا حياتي.

مجنونة بعض الشيء، يا ابنتي.

مجنونة قليلًا لأنّني أمقتُ الرداءة التي تحيط بي وأشعر بأنّها تحاصرني. مجنونة قليلًا لأنّني أفكّر بأنّ الحياة مدرارة أكثر على الجانب الآخر من السياج. مجنونة قليلًا لأنّني لم أبتلع حكاية الأفراح الصغيرة في الوجود التي من المفترض أن تمنح نكهةً للحياة. مجنونة قليلًا لأنّني أرغب في الفرار، لأنّني أقول لنفسي إنّ حياة أخرى هي أمرٌ ممكن. مجنونة قليلًا لأنّني أفضّل دومًا «جنون العواطف على رصانة اللامبالاة». مجنونة قليلًا لأنّني أبتغي أفضل من هؤلاء الرجال الوضعاء الذين يتراخون في المغازلة من خلف شاشتهم بين جولة لعب عبر الإنترنت وجلسة استمناء أمام موقع «بورن هاب».

.4

فتحتُ عينيّ. تبادرت فكرةٌ إلى ذهني. فكرةٌ «مجنونةٌ بعض الش يء» بالتحد يد. أع دتُ تش غيل ه اتف ماركو المحمول وطلبت رقم... والدته. استغرق الاتّصال وقتًا ليأتي بنتيجة. كنت أرتجف، تردّدتُ في إنهاء المكالمة. ميّزتُ نغمة الاتّصال الخاصّة بأميركا الشماليّة، ثمّ:

[1] Marco, mi amore, va bene? –

– مرحبًا سيّدة ساباتيني، سمحتُ لنفسي بالاتّصال بكِ من هاتف ابنكِ، لكن...

– من أنتِ؟ سألتني بالفرنسيّة.

– اسمي أنجيليك شارفيه، أردت أن أُعلمكِ أنّ ماركو تعرّض لوعكة صحّيّة.

– !O Dio mio [2] هل الأمر خطير؟ أين هو؟

– في مستشفى جورج بومبيدو.

أخذت الوقت الكافي لأشرح لها الوضع. شعرتُ باضطرابها على الطرف الآخر من الخطّ، ولكن أيضًا برغبتها في ألّا تنجرف بالعاطفة وأن تتّخذ القرارات الصحيحة.

– أنا في نيويورك. شرحَتْ قائلةً ثمّ أردفَتْ: إنّها الساعة الثالثة بعد الظهر. سأحاول اللحاق بطائرةٍ إلى باريس الليلة. أشكركِ على إخباري بالأمر.

– إنّه من واجبي.

– أيا تُرى لديكِ رقم المستشفى؟

زوّدتُها به وقدّمتُ لها اقتراحًا:

– أتريدين أن أذهب إلى المطار وأنتظركِ هناك؟

– لكن... لماذا؟

– يمكننا الذ هاب مباشرةً إلى بومبيدو لرؤية ماركو معًا.

رصدتُ صمتًا طويلًا جدًّا، ثمّ:

– هذا ما اعتقدتُه: لم يخبركِ ماركو عنّي أبدًا، أليس كذلك؟

– أنا... لا أعتقد أنّه فعل، هذا صحيح.

– أنا أنجيليك، حبيبته.

---

[1] ماركو، حبيبي، كيف حالك؟

[2] يا إلهي!

7

في المكان الصحيح

«بين المسؤوليّة وعدم المسؤوليّة، أرضٌ مبهمة، ميدانٌ غامضٌ حيث المغامرة خطرة».

جورج سيمنون

.1

بعد ستّة أيّام.

4 أيلول/سبتمبر 2021.

شارع مونتين.

في نهاية هذا الصيف، شكّل فناء بلازا أتينيه القلب النابض للفندق الفخم. محميًّا من ضوضاء حركة المرور، قدّم الفندق واحة من الهدوء والانتعاش. كانت نباتات اللبلاب والكرمة ترتفع على طول الواجهة باتّجاه الطوابق العليا. فاضت الشرفات بنبتة الجيرانيوم المزهرة التي عكست اللون الأحمر الزاهي للمظلّات.

نكهة الحياة الحقيقيّة كما تخيّلتها. نعم، على الجانب الآخر من السياج، كان كلّ شيء أكثر زهوًّا وقوّةً وتأثيرًا.

أخيرًا، أصبحتُ أمثّل في فيلم أؤدّي فيه دور البطولة. فيلم ديكوره ليس مصنوعًا من الورق المُقوّى وممثّلوه الثانويّون من حولي تخرّجوا من مدرسة جوليارد بدلًا من الرابطة المسرحيّة لقاعة احتفالات فيلنوف-ليه-دو-فيرج.

منذ أن جاءت بيانكا ساباتيني إلى فرنسا، اعتدنا اللقاء كلّ يوم هنا، على شرفة مطعم الفندق، حول وجبة غداءٍ خفيفة. كان زوجها، الإنجنييري، قد بقي في ميلانو لإدارة شؤون الأسرة. حاول في البداية نقل ابنه إلى المستشفى الأميركي في نويي، لكنّه سرعان ما تراجع عن قراره بعدما تأكّد من خدمة بومبيدو الممتازة.

كانت بيانكا تعشقني، لأنّني عرفت كيف أواسيها، ولأنّها لم تشكّ في حبّي لصغيرها، أو البامبينو كما تسمّيه. ولأنّه كانت لديّ قصّة رائعة أخبرها إيّاها.

كنتُ قد قابلتُ ماركو قبل عامين في كيه فولتير. كان مغادرًا متجر «سينولييه» حيث اشترى علب طلاء، فيما أنا خارجة من منزل مريض قصدتُه لآخذ عيّنة من دمه. اصطدم أحدنا بالآخر وشعرنا فورًا بقوّة جذبت كلًّا منّا إلى الآخر. عرض عليّ ماركو زيارة محترفه، ثمّ دعاني لتناول العشاء في مطعم سبتيم. في ذلك الوقت، كان قد غرق للأسف في المخدّرات من جديد، ولكن بما أنّ الحبّ يصنع المعجزات، فقد ساعدته على تركها وانتقلنا للعيش معًا. كما شجّعته على مواصلة رسم سلسلة لوحاته وعرضها على صاحب غاليري اسمه برنارد بينديك. في المساء، كنّا نحبّ طلب طبق الروبيان بالكاري من «لو بوتي كامبودج» ومشاهدة المسلسلات على نتفلكس. أيّام الأحد، كنّا نخرج للركض في حديقة لوكسمبورغ، ونركب الدرّاجات على طول قناة أورك، وأحيانًا نقضي عطلة نهاية الأسبوع عند

والدتي في تروفيل. كان ماركو قد وعدني بأن يصطحبني في العطلة القادمة لرؤية الشفق القطبيّ الشماليّ في أيسلندا. ثنائيّ برجوازيّ بوهيمي في مدينة هيدالغو.

رأتني بيانكا بهيئة الملاك الحارس الذي طالما أملَتْ أن ترسله السماء إلى ابنها لإعادته إلى الطريق الصحيح. العنصر المستقرّ الذي نجح في بناء إطار آمن حول قرّة عينها. شعرَتْ بالاطمئنان معي: ليست عيناي فارغتين كعينَي زوجة لاعب كرة قدم، ولستُ بابتذال المرأة السطحيّة، أو بطمع فتاة مُغوية في نوادي الشانزليزيه الليليّة. أنا ممرّضة لطيفة، قاتلت «في الجبهة» خلال الأزمة الصحّية وحوّلها الكوفيد إلى بطلة الحياة اليوميّة. أتميّز بأنّني غيريّة، ألتفتُ دائمًا نحو الآخرين. تطوّعتُ لفترة في مركز الرعاية لمنظّمة «أطبّاء العالم» في بلين-سان-دوني (هذا الجزء صحيح، ولو لم تدم فترة تطوّعي طويلًا). كان والداي مدرّسَيْن. بإمكاني إجراء مناقشة حول لوحة من عصر النهضة، وشاهدتُ أفلام المخرجَيْن الإيطاليَّيْن أنطونيوني وناني موريتي، وأعرف من هما ماريو دراغي وماتيو رينزي. أنا فتاة أرستقراطيّة جيّدة كما يتصوّرها الأغنياء.

وإذا بيانكا أحبّتني، فالحقّ يُقال، كان الشعور متبادلًا. تلك المرأة الإيطاليّة سحرتني. بلطفها غير المزيّف، بمزيج بساطتها وتميّزها. حتّى في المحنة، لم تفقد مظهرها الأرستقراطيّ. هي في أوائل الستينيّات من عمرها، وجهها طبيعيّ ومرتاح، شعرها أشقر بالكاد تخلّلته خصلات رماديّة، مربوط في كعكة. عكست ملابسها أناقة متحفّظة ومُتقنة، وأينما جلست، كان شعاعٌ من الشمس ينعكس دائمًا عليها في اللحظة المناسبة فيُبرز هالتها الملائكيّة.

كانت تتحدّث الفرنسيّة بطلاقة، ولكن في خضمّ المناقشة، كثيرًا ما كانت تتفلّت منها شرذمات جملٍ باللغة الإيطاليّة. أحبّت بيانكا أن تتكلّم عن أعمالها الخيريّة التي تقوم بها من خلال مؤسّستها. ركّزت مؤسّسة أكوا ألتا على التعليم والفنون ومكافحة الفقر من خلال تمويل المشاريع الصغيرة، وكان لها مكاتب في مانهاتن وتورينو تتعامل بملايين اليوروات.

لكن من الواضح أنّ موضوعها المفضّل هو ماركو الذي كانت قلقة للغاية عليه. في كلّ محادثة من محادثاتنا، تابعت رسم صورة الابن بضربات ريشة صغيرة. قصّته، بالنسبة إليّ، قصّة عاديّة لطفل بورجوازيّ شقيّ، وبالنسبة إليها، مسار صبيّ رائع، ذكيّ وحسّاس « molto sofferto» [1].

– Non so se te l'ho detto [2]، أنجليكا، لكنّ وفاة أخته هي التي قلبت كلّ شيء رأسًا على عقب. كان ماركو وليفيا مقرّبَين جدًّا، إلى حدّ الانصهار. لا شيء يفرّق بينهما. لكن عندما غادرتنا ليفيا، الظاهر أنّ ماركو أراد أن يلحق بها Inconsciamente [3]. بدأ بحرق حياته، وشكّك في سلطتنا، ورفض النظر في في العمل في شركة العائلة، واعتمد عبارات يساريّة.

– Per attirare l'attenzione di suo padre? [4]

سألتُ مستجمعةً ما بقي من لغتي الإيطاليّة من المدرسة الثانويّة.

– Probabilmente! [5] لكنّ ليساندرو لم يستطع تحمّل ذلك. يحبّ ابنه، لكنّه يفضّل أكوا ألتا، ثمرة ستّة أجيال من عائلة ساباتيني.

– أراد زوجك أن تتولّى ليفيا إدارة الشركة؟

– نعم. لطالما كان ماركو لطيفًا جدًّا، فنّانًا جدًّا. لم يرتقِ أبدًا إلى مستوى توقّعات والده. بالتالي، انقطع كلّ تواصلٍ بينهما منذ تسع سنوات. ذهب زوجي إلى حدّ حجب المصروف عنه، رغم أنّه يشكّ في أنّني أنا مَن دفع ثمن اللوفت في شارع بيلشاس ومَن...

بقيت جملة بيانكا مُعلّقة في الهواء، إذ قاطعها رنين هاتفها. فتحَت الخطّ، ومن بريق عينيها، فهمتُ على الفور أنّ الاتّصال من المستشفى.

للمرّة الأولى، كانت الأخبار عن صحّة ماركو جيّدة. بدأت العدوى الرئويّة الحادّة بالتقلّص، وحالته العامّة تتحسّن، ويعتقد الطاقم الطبّي أنّ بإمكانه استعادة تنفّسه الطبيعي. أشرق وجه الإيطاليّة. ومع إثارة تلك اللحظة، ضغطَت على ساعدي وشغّلت مكبّر الصوت لنتشارك الاتّصال بحماسة شديدة.

– لقد بدأنا بتقليل جرعة الدواء وسنخفّف من التخدير، أعلن الطبيب.

È una notiza eccezionale! Una grande – Speranza! [6]

– سنرى كيف سيستجيب ابنكِ، لكنّ الأمر سيستغرق بعض الوقت ليستعيد وعيه. نودّ أن تكوني مع الآنسة شارفيه هنا. غالبًا ما تسير الاستفاقة من الغيبوبة على نحو أفضل بوجود وجوه مألوفة. إذ يكون المرضى أقلّ تشوّشًا.

.2

أرادت بيانكا الذهاب إلى بومبيدو على الفور، لكنّ مقدّم الرعاية ثناها لحسن الحظ عن ذلك: الاستفاقة عمليّة تتمّ بالتدريج وتمتدّ على مدار يوم أو يومين. كان من الأفضل توفير طاقتنا للغد حين يكون وجودنا أكثر فائدة. كادت بيانكا تحلّق فرحًا، وفاضت عيناها بحماسةٍ أكبر من أن تبقيها مكتوفة اليدين، فقرّرت قضاء فترة ما بعد الظهر في ترتيب شقّة ماركو لتصبح أكثر راحةً، وأشبه بحضنٍ دافئٍ يمكّنه من استعادة قواه بمجرّد عودته إلى المنزل.

كانت الشقّة في الدور العلويّ الحلقة الأضعف في خطّتي. قبل الزيارة الأولى للمرأة الإيطاليّة، كنتُ قد نقلت على عجلٍ بعض مقتنياتي إلى شارع بيلشاس لإيهامها بأنّني أعيش مع ابنها، لكنّني لاحظتُ أنّ هذا لم يكن ما توقّعَته. ففبركتُ تفسيرًا: كنّا، ماركو وأنا، نبقى فترةً في شقّتي وفترةً أُخرى في شقّته.

بعد جولةٍ في محالّ الديكور في جادّة سان-جيرمان، أمضينا بقيّة اليوم في تنظيف المَرسم وإعادة ترتيبه. حقّقت بيانكا المعجزات ببطاقتها الائتمانيّة. بعدما علم متجر «نول» بهويّة زبونته، اقترح إقراضها المال وتسليمها الأثاث المعروض في اليوم نفسه: طاولة من تصميم سارينين، وكراسيّ شانديغار، وكرسيّ إيمز مع مقعده العثمانيّ، وسجّادة فاتحة اللون وطويلة الشعيرات. كانت الشقة مُماثلة أشبه بغلافٍ لمجلّة «آد ماغازين» للديكور.

أخذ التوتّر منّي كلّ مأخذ. شعرتُ بأنّ رياحًا هوجاء لا ترحم ستطيح بقصري الذي بنيتُه من ورق. ومع ذلك أحسستُ بقوّةٍ مجهولةٍ في داخلي. نيران، بدلًا من أن تلتهمني، كشفَتْ عن موارد لا حصر لها. أحببتُ القصّة

التي قدّمتها لِبيانكا. أحببتُ حياتي الجديدة. صحيحٌ أنّها كانت مبنيّةً بالكامل على كذبة، لكن أليس من الممكن تعديل الواقع ليتناسب مع ما نسجته مخيّلتي؟ عندما زارت الملائكة مهدي لتباركني، لم تمكث طويلًا، لكنّها منحتني بعض البصيرة ومسحة الجنون هذه التي تحثّني اليوم على خوض المجازفات.

في المساء، عندما حان وقت المغادرة، تبادلنا، بيانكا وأنا، العناق. نزلتُ معها إلى الشارع لمرافقتها إلى سيّارة الأجرة. ضمّتني إلى صدرها من جديد وقبّلتني على خدّي، ثمّ مرّرت يدها في شعري، مقتنعةً بأنّنا كنّا على موعد مع أيّام مبهجة. « Grazie Angelica, grazie figlia mia» [7]

.

حتى بعدما ركبَت السيّارة، خفضَت المرأة الإيطاليّة نافذتها وواصلت حديثها معي. ستعود حياة ماركو على المسار الصحيح. في النهاية، ستصبح هذه التجربة المؤلمة إيجابيّة. « I momenti belli e quelli difficili, non durano per sempre» [8].

انطلق السائق أخيرًا. لوّحتُ بيدين واسعتين مودّعةً بيانكا استجابةً لإيماءاتها، وفيما كانت السيّارة تغيب عن ناظريّ، بقيتُ على الرصيف لمدّة دقيقة تقريبًا، أشعر بفراغٍ كبير. ثمّ صعدتُ لإحضار حقيبتي من الشقّة.

كما في كلّ مرّة، تخوّفتُ من الالتقاء بالحارسة التي عادت من إجازتها، لكنّ غرفتها الرئيسيّة كانت في المبنى الآخر. هذا إلى جانب أنّني أشعر بأنّ هذه الحارسة – التي سبق أن التقيت بها مرّة واحدة فقط من دون أن توجّه لي كلمةً واحدة – لديها رؤية محدودة جدًّا لمسؤوليّاتها الوظيفيّة.

أغلقتُ الباب بهدوء، وما إن دخلتُ الغرفة حتّى رأيتُ الكرسيّ الجلديّ البيج المُبتاع حديثًا يدور حول محوره. صعقني المشهد ففلتَتْ منّي صرخةٌ صغيرة. كانت ستيلا بترينكو غارقةً في الكرسيّ الفخم، تضع ساقًا على الأخرى وتنظر إليّ راسمةً ابتسامةً رقيقةً على شفتيها.

.3

– إن كنتِ تعتقدين أنّني لم أفهم لعبتك الصغيرة، قالت الراقصة النجمة السابقة بلؤم.

– التنصّت من خلف الأبواب أمرٌ معيب، يا سيّدة بترينكو.

حاولتُ ألّا أظهر ارتباكي، لكنّ الراقصة أخافتني هذا المساء بعمامتها، وحذائها الأدكن اللون المصنوع من اللباد وشالها الأسود الضخم الذي لفّ جسدها بالكامل.

– التحايل على والدة ساباتيني وإيهامها بأنّكِ خطيبة ماركو، هذه هي خطّتك، أليس كذلك؟

– لا أعتقد أنّ الأمر يعنيكِ.

– على العكس تمامًا، فأنا أحبّ ماركو.

اكفهرّ وجهها فجأة. اضمحلّت كلّ معالم الودّ وحسن النيّة ولم يبقَ سوى ابتسامةٍ جامدةٍ جعلتها تبدو كساحرةٍ شرّيرة.

– أتعرفين مفهوم شادينفرويد (Schadenfreude)، يا أنجيليك؟

– أخبريني.

– هي كلمة ألمانيّة تدلّ على الشعور بالفرح الذي يختبره المرء عند مشاهدة مصيبة الآخرين.

كشفت ستيلا بترينكو عن سيجارة بين يديها وأشعلتها بولّاعة زيبو غريبة مزيّنة بعرق اللؤلؤ.

– تعلمين، هذا النوع من المتعة المذنبة التي تشعرين بها عندما تتلقّى نساء أجمل منك، وأصغر سنًّا، وأكثر ثراءً، وأكثر تألّقًا، صفعةً كبيرةً من الحياة.

– لا يكفي أن نكون سعداء، يجب أن يكون الآخرون تعساء، أليس كذلك؟

– لقد فهمتِ تمامًا.

شفطَتْ نفسًا طويلًا من النيكوتين ثمّ تابعت:

– أترين؟ عندما تُحفر التجاعيد حول عينيكِ، عندما تعجزين عن خسارة الكيلوغرامات الزائدة، عندما يذوي ثدياك، عندما يتدلّى الجزء السفلي من وجهك كما لو كان ينازع لينفصل عنه، عندما لا يعيرك الرجال في الشارع أيّ انتباه...

توقّفَتْ في منتصف جملتها لسحب نفسٍ جديد.

– (...) يأتي هذا اليوم بسرعة، صدّقيني، ويكون أثره عليكِ قاسيًا جدًّا – باختصار، عندما تفهمين أنّ أجمل سني عمركِ قد ولّت وأنّكِ على الأرجح لن تعيشي بعد ذلك قصص الحبّ والغرام، فإنّكِ تشعرين بالمرارة وتعتنقين اللؤم. وتدركين ذات صباح أنّ أعظم أفراحك باتت مصائب الآخرين.

– هذا لا يدعو للفخر أبدًا.

– صحيح، لكنّ هذا هو الواقع. تصبحين بلا ذرّة تعاطف أو شفقة. بل على العكس، تهلّلين بفرحةٍ خبيثة. تواسين نفسك بأنّكِ لستِ الوحيدة التي تعيش حياةً بائسة. وهذا ما يخفّف عنكِ.

– لماذا تخبرينني بكلّ هذا؟

– لأنّني رأيتُكِ على حقيقتكِ منذ اليوم الأوّل، على الرغم من وجهكِ اللطيف وألاعيبكِ. وتعرفين ماذا؟ أعتقد أنّكِ مثلي تمامًا، مسكونة بغضب واستياء رهيبَين. وها أنتِ الآن تخبرين نفسكِ أنّكِ ربّما وجدتِ منفذًا من حياتكِ البسيطة اللعينة يسمح لكِ بالتسلّل إلى ملعب الكبار.

– لكن أنتِ، لماذا أنتِ غاضبة؟

أطلقت ستيلا بترينكو ضحكةً عصبيّةً.

– لأنّني كنتُ تحت الأضواء ولم أعد كذلك. منذ اللحظة التي تتذوّقين فيها هذا العزّ، يبدو لكِ كلّ شيءٍ آخر بلا طعم. النزول عن خشبة المسرح أمرٌ فظيع. لم يولد الفنّانون للعيش في الظلّ.

ذكّرتني هيئتها، كما لو كانت تعكس السمّ الذي تقطّر من عباراتها، بالشخصيّة التي جسّدتها غلوريا سوانسون في فيلم «سانسيت بوليفارد»: وجه مُجعّد، رموش مغطّاة بالماسكارا، لعاب يسيل على الشفتين، حاجبان مقوّسان كالهلال. ثمّ قالت مُهدّدةً:

– سأذهب للعثور عليها، الأمّ ساباتيني. ويمكنني أن أؤكّد لكِ شيئًا واحدًا: ستكون غاضبةً جدًّا من هذه الكذبة. ليس من أمٍّ تقبل بأن يتعرّض ابنها للاستغلال، صدّقيني.

– أعتقد أنّ هذا الحديث مُضلّل، يا سيّدة بترينكو. برأيي يمكننا التوصّل إلى مساحة للتفاهم.

– لا أرى كيف يمكننا تحقيق ذلك.

أغرقتُ يدي في حقيبة القماش الموضوعة على منضدة القهوة، وفيها ظرفٌ أبيض سميك سلّمته إلى ستيلا بترينكو.

فتحَتْه الراقصة السابقة وبقيَتْ فاغرةَ فاها للحظة أمام الرزم من فئة الخمسين يورو. راحت تعدّها: واحد، اثنان،

ثلاثة، خمسة، تسعة، عشرة...

– عشرة آلاف يورو. هذه مساحة تفاهم جيّدة، أليس كذلك؟

أخذَت الحزم بكلتا يديها، ونظرَت إليها مثل جوهرةٍ ثمينةٍ، وكادت تقرّب أنفها لشمّها.

– أين وجدتِ هذا المال؟ سألَتْ، مدركةً أنّها قلّلَت من شأني.

رفعَت رأسها، ونظرَت حولها في الشقّة، ولمع بريقٌ في عينيها فيما دخلت في نوبةٍ من الضحك.

– لقد بعتِ اللوحات، أليس كذلك؟ لقد بعتِ بالفعل لوحات ماركو الثلاث، أيّتها الحقيرة الصغيرة!

---

[1] عانى الكثير.

[2] لا أعرف إن أخبرتكِ.

[3] في اللاوعي.

[4] لجذب انتباه والده؟

[5] من المحتمل!

[6] هذه أخبار رائعة! أنا متفائلة كثيرًا!

[7] شكرًا أنجيليكا، شكرًا لكِ، يا ابنتي.

[8] لا الأوقات الجيّدة ولا السيّئة تدوم إلى الأبد.

8

اتّخاذ الخطوة

«يحمل الإنسان في قلبه من الإنسانيّة بقدر ما يحمل الدجاج في أجنحته من قوّةٍ على الطيران».

لويس-فردينان سيلين

.1

بعد مغادرة ستيلا بترينكو، بقيتُ وحدي لفترة طويلة في الشقّة، متّكئةً على الشرفة، مُطفئةً كلّ الأضواء.

أصابتني الروائح اللاذعة للطلاء والغراء بالدوار. ستكون هذه الليلة مصيريّة. يجب ألّا أخادع نفسي: كان العائق أعلى ممّا تصوّرت. كما أنّه ظهر في طريقي أبكر ممّا توقّعت، لكن، إذا استسلمتُ للذعر، فسوف ينهار كلّ ما بنيتُه. عليّ أن أحافظ بأيّ ثمنٍ على الإثارة والزخم الإيجابيّ اللذين حملتهما الأيّام الأخيرة. تلك الصحوة للإمكانيّات غير المُستغلّة التي شعرتُ بها في داخلي والتي فتحَت لي

آفاقًا جديدة. كان عليّ حلّ كلّ مشكلة بمفردها. عليّ التصرّف. حالًا.

نزلتُ الدرج. كانت الليلة رطبة وحارّة. لم أرغب في أن أكون داخل فرن المترو. كانت محطّة استئجار درّاجات أبعد بقليل، في شارع كازيمير-بيرييه. شكليًّا، كانت مجموعة كبيرة من الدرّاجات متاحة – الزرقاء ذات الدعم الكهربائيّ والخضراء، الميكانيكيّة – عدا أنّه، كما هي الحال دائمًا، كانت جميعها لا تعمل. كانت «المدينة الهادئة»، بطلة مفهوم «النقل المستدام» الذي طالما أشادت به البلديّة، في الواقع مدينة يسودها الخراب وكلّ ما فيها مُعطّل. وإخفاق إدارة الدرّاجات التشاركيّة خير مثالٍ عن ذلك: إطارات مثقوبة، وعجلات مسروقة، وبطّاريات معطّلة وسلاسل محطّمة. إذ لم يكن حلٌّ آخر متاحًا أمامي، ركبتُ درّاجةً بعجلةٍ معوجّة. أحدثت الفرامل صوتًا مزعجًا وكانت الدوّاسة على وشك أن تسقط، لكنّ هذه الدرّاجة تبقى أفضل من لا شيء.

هيّا، دوسي يا فتاة.

هدّأني الهواء المنعش وخفّف المجهود من قلقي بعض الشيء. شارع لونيفرسيتيه ثمّ سولفيرينو باتّجاه نهر السين. ثمّ التقدّم فقط على طول الضفّة نحو الغرب. كان ذلك مساء السبت والأرصفة تعجّ بالناس. في هذه الأجواء من أواخر الصيف، كان الباريسيّون يحتفلون، وفي الخلفيّة حانة روزا بونور، أو برج إيفل أو جسر ميرابو. الكحول، والموسيقى والنشوة، ولدرء الوباء: الكمامات، والفحوص والتهديدات بالحجر في هذه الأزمة الصحّية التي يبدو أنّها ستستمرّ إلى الأبد.

بعد اجتيازي حديقة أندريه-سيتروين، تركتُ درّاجتي في ساحة مولان–دو–جافيل وتوجّهتُ إلى مباني المستشفى.

.2

كان مستشفى بومبيدو عبارة عن كومة من البلوكات أشبه بقطع ليغو عملاقة شيّدها طفلٌ بلا موهبة. وضعتُ حقيبتي على مقعد محطّة للحافلات وأخرجتُ ملابس الممرّضة لأرتديها فوق الجينز والتي-شيرت: بلوزة بأزرار وسروالٌ طبّي بخصرٍ مطّاطي.

كان للسقف الزجاجيّ الذي يعلو الفناء المركزيّ كما دائمًا تأثيره المدهش. صارت الساعة الحادية عشرة. من مدخل الطوارئ الذي يفتح من الجانب الآخر، ناحية شارع ديلبار، بدا المستشفى هادئًا إلى حدّ ما. تسرّب ضوءٌ أزرق من خلال السقيفة الزجاجيّة بمشهدٍ خياليٍّ، فبات المكان أشبه بسفينة فضائيّة.

منذ أسبوع وأنا أرافق بيانكا يوميًا إلى هنا. لذا تسنّى لي الوقت الكافي لرصد المكان وتصوّر كلّ ركن من أركان الردهة. كان رجال أمن يقومون بالحراسة، لكنّهم كانوا مأخوذين بهوسهم بالقواعد الإداريّة المتعلّقة بالكوفيد. لاحظتُ كذلك كاميرات مراقبة، لكنّها لم تقلقني. لا حاجة لخفض رأسي. يكفيني اعتماد المظهر الروتيني للممرّضة الآتية للمناوبة أو التي استُدعيت لتقديم المساعدة.

رحتُ أراوغ، متردّدةً حتّى اللحظة في المضيّ قدمًا. كانت خطّتي تستند إلى استراتيجيّة مارتينجال [1] التي لا أتقنها تمامًا. لكنّني أدرك جيّدًا أنّ ما من شيء سيتغيّر إن

لم أكن قادرةً على المخاطرة. لقد تربّصت هذه الفرصة عشرين عامًا. عشرون عامًا أنتظر فيها أن تُفتح أمامي نافذة. لطالما اعتقدتُ أنّ فرصةً واحدة في العمر، تأتينا جميعًا لتغيير حياتنا. في العصور القديمة، كان الإغريق يطلقون عليها اسم «كايروس»: اللحظة الحاسمة التي من شأنها أن تقلب كلّ الموازين. طرفة عين عابرة تحتّم التصرّف أو تضيع الفرصة إلى الأبد.

عليّ التصرّف.

قبل أن تُغلق النافذة.

ضغطتُ على الزرّ لطلب المصعد. نحو الطابق الأوّل. ارتعدت أطرافي كلّها. لا يزال بإمكاني التراجع. كان الأمر كما لو أنّ كلّ القرارات التي اتّخذتُها في حياتي حتّى الآن، سواء كانت جيّدة أو سيّئة، لم تخدم إلّا لإحضاري إلى هذه النقطة، عند مفترق الطرق هذا حيث ألعب الجزء الثاني من حياتي وحيث يمكنني إمّا الفوز بكلّ شيء أو خسارة كلّ شيء.

فتحتُ الأبواب على ممرّات وحدة العناية المركّزة.

لتذكيري بهذا الجنين الذي يعقّد مخطّطي، أصابتني رائحة المطهّرات الوحشيّة والطعام المسخّن بشكلٍ رديء بالغثيان. كما لو كنتُ مُسيّرة عن بعد، تقدّمتُ إلى منتصف المتاهة بين العربات المعدنيّة، والنقّالات والكراسيّ البلاستيكيّة نحو الغرفة التي يرقد فيها الوريث. بفضل علاقات بابا، كان ساباتيني يحظى بغرفة مفردة. عليّ التنفيذ بسرعة كبيرة. قد يظهر طبيب أو مساعد تمريض أو ممرّض في أيّ وقت. نظرتُ إلى «خطيبي»، مستلقيًا على ظهره، عيناه مغلقتان بشرائط لاصقة رقيقة. بدا بلحيته وشعره الطويل مثل المسيح، وشكّل تشابك الحقن

والقساطر فوق رأسه تاج الشوك. على شاشة المراقبة، كانت المؤشّرات الحيويّة تتموّج وتومض – معدّل ضربات القلب والتنفّس، ضغط الدم، تشبّع الأوكسجين – لتشهد على استعادة حبيبي صحّته.

.3

إذا مثلتُ يومًا أمام محكمة الجنايات، فلن أتمكّن من التظاهر بأنّ تصرّفي لم يكن متعمّدًا. لقد درستُ الموضوع جيّدًا، وقلّبتُ المسألة عدّة مرّات في رأسي، وأجريت بعض الأبحاث، حتّى إنّني اتّصلتُ بصديقٍ في قسم الإنعاش محاولةً ألّا أبدو كأنّني قد ألجأ إلى هذا الأمر. كانت فكرتي الأولى هي حقن ساباتيني بالبوتاسيوم سريعًا عن طريق الوريد. تُستخدم عادةً حقنةٌ بسيطةٌ من كلوريد البوتاسيوم بوزن خمسة غرامات علاجًا على المدى الطويل لرفع مستويات بوتاسيوم الدم. لكن إذا حُقنت دفعةً واحدة، يمكن لزيادة التركيز في البلازما أن تسبّب تباطؤ ضربات القلب والانقباض. المشكلة أنّ قياس معدّل البوتاسيوم يحصل من خلال اختبار تركيز الكهارل ويمكن بالتالي ملاحظة النسبة المرتفعة في حال التحليل البيولوجيّ بعد الوفاة. فرضيّة مرفوضة، إذن.

شعرتُ بضيقٍ في صدري. ابتلعتُ لعابي وأخذتُ نفسًا عميقًا. هل الخطّة التي وضعتها بتأنٍّ كبير قابلةٌ للتحقّق فعلًا؟ والأهمّ من ذلك، هل لديّ الشجاعة الكافية لتنفيذها؟

أخرجتُ المعدّات الطبّية من حقيبة ظهري. من بينها حقنة محميّة بواسطة سدادة آمنة. يعمل الكالسيوم بمبدأ

مختلف عن البوتاسيوم. يؤدّي الحقن السريع لستة أو سبعة غرامات من كلوريد الكالسيوم إلى زيادة استثارة القلب مع تسرّع القلب البطيني ثمّ الرجفان حتّى السكتة القلبيّة. الميزة: لا يظهر الكالسيوم في اختبار تركيز الكهارل. لن يُلاحظ معدّله إلّا إذا جرى البحث عنه بالتحديد.

أقدر أو لا أقدر؟

ينبغي أن لا أقول لنفسي إنّني مُشوّشة. بل أن أذكّرها بأنّ هذه الفرصة لن تتكرّر. وأؤكّد لها أنّني أزن جيّدًا نتيجة ما أفعله، وأنّني أتحمّل مسؤوليّته. لا يمكننا منح أنفسنا بداية جديدة إلّا بالدخول عنوةً.

غرزتُ الإبرة.

وأطلقتُ صرخة.

اللعنة!

فتح ساباتيني عينيه برغم الأشرطة اللاصقة! تمسّك بذراعي بكلّ قوّته الهزيلة وحدّق في وجهي، نصف مشوّش ونصف مرعوب. تمالكتُ نفسي لئلّا أصرخ واستجمعتُ شجاعتي لمواجهة نظراته وضغطتُ على المكبس.

أعي تمامًا أنّ قصّتي ستنقسم قسمين: ما قبل اللحظة وما بعدها.

أنّني تجاوزت للتوّ نقطة اللاعودة.

ولكن، أيضًا، أنّ ذلك كان الثمن الذي يجب أن أدفعه لاستعادة حياتي.

---

[1]استراتيجيّة مارتينجال هي استراتيجيّة مراهنة تضاعف فيها رهانك بعد كلّ خسارة.

9

ابنة العائلة

«المرعب على هذه الأرض أنّ لكلّ شخصٍ أسبابه».

جان رينوار

1.

الكوفيد -19 يخطف ماركو ساباتيني

لا ستامبا – مع وكالة الأنباء الفرنسيّة.

تُوفيّ الرسّام ماركو ساباتيني، نجل ليساندرو وبيانكا ساباتيني، في باريس، عن عمر يناهز 31 عامًا، من مضاعفات إصابته بعدوى فيروس كورونا. وتدهورت حالة الشابّ بسرعة ليل السبت الأحد، عقب دخوله العناية المركّزة قبل عدّة أيّام في مستشفى جورج بومبيدو الأوروبيّ.

كان ماركو ساباتيني، الوريث الوحيد لمجموعة أكوا ألتا الفاخرة بعد وفاة أخته ليفيا في عام 2009، بعيدًا دائمًا عن أعمال العائلة وانتقل للعيش في باريس منذ سنوات

عديدة. عُرضت أعماله منذ عام 2019 في غاليري برنارد بينديك المرموقة.
كتب والداه في بيان: «لقد غادرنا ابننا ماركو للانضمام إلى أخته ليفيا. على الرغم من الرعاية التي أمّنها الطاقم الطبّي والتزامه في بذل كلّ جهوده، وعلى الرغم من الشجاعة التي أظهرها ماركو، لم تكن لديه الطاقة للفوز في هذه المعركة».
سيوارى جثمانه في الثرى، كسائر أفراد عائلته، في تورتونا (بييمونت)، المعقل التاريخيّ لهذه السلالة منذ قرنين.

.2

6 أيلول/سبتمبر 2021.

أعطاني ليساندرو ساباتيني موعدًا عند «شي لوكا»، المطعم الإيطاليّ في شارع بوكادور. كانت الساعة لا تزال العاشرة صباحًا، لكنّ المطعم فتح له أبوابه خصّيصًا. مطعم بسيط، أو كما يسمّونه «تروتيريا»، يتميّز بأناقته والخشب الأدكن اللون والجدران المعتّقة بلون اللوز الأخضر والأرضيّة المصمّمة على نسق لوح الشطرنج بالأحمر والأبيض.

كان المطر يهطل في ذلك اليوم. غطّت غيمة من التوتّر والرطوبة المرتفعة على باريس فسرقت أنفاسها. كان ضوء المكان خافتًا لدرجة عزّزت هذا الشعور بالاختناق الذي يولّده رهاب الأماكن المغلقة. جلس الإنجنييري في الجزء الخلفيّ من الغرفة، على مقعد جلديّ أسود خلف طاولة رخاميّة صغيرة متلألئة اللون. بكامل أناقته المتّزنة والراقية، كانت هيئة رجل الأعمال مطابقة للصور التي رأيتها له على الإنترنت. قامة نحيلة وطويلة، بدلة مع طيّات عريضة بقصّة ضيّقة، حذاء موكاسين برباط، ساعة

الكرونومتر الرنّان من شركة «إف بي جورن» موضوعة فوق كمّ القميص، على غرار جياني أنيللي[1].

دعاني بإيماءة من يده للجلوس على الكرسيّ أمامه. أمعن في التدقيق بكلّ تفاصيلي لبضع ثوانٍ، من دون أن يشعرني بعدم الارتياح.

– كنت أودّ لو التقيت بكِ في ظروفٍ أخرى، أنجيليك، لكن هكذا هي الحياة. أخبرتني بيانكا عن مدى دعمكِ لها في الأيّام الأخيرة وأشكرك على ذلك.

أومأت برأسي، محاولةً الحفاظ على رباطة جأشي، عيناي مثبّتتان على الحائط خلفه حيث عُلّقت صور بالأبيض والأسود لمناظر طبيعيّة قاحلة في بوليا وصقلية.

استأنف ساباتيني، مستسلمًا للقضاء والقدر:

– لا يمكنني القول إنّني مندهش من هذه النهاية. لقد استعددتُ منذ فترة طويلة لسماع خبر وفاة ابني يومًا ما. تخيّلتُ أن يكون السبب جرعة زائدة، أو انتحارًا، أو طعنة سكّين من تاجر مخدّرات. لا، في النهاية، جاء هذا الكوفيد اللعين...

أخرج من جيبه صورة لماركو وأخته خلال طفولتهما البريئة في سنّ العاشرة. بابتسامتهما العريضة، بدا الطفلان يستمتعان في بركة مليئة بالكرات الملوّنة. بهجة الحياة الطفوليّة التي لا تُقدّر بثمن.

– لم أتحدّث إلى ماركو منذ سنوات، لكنّني احتفظتُ في قلبي بكلّ اللحظات السعيدة التي تشاركناها عندما كان طفلًا.

بقيتُ معتصمةً بالصمت، فأردف ليساندرو منزعجًا:

– لا بدّ أن ماركو أخبرك بأسوأ الأشياء عنّي، لكن لا شيء منها صحيح. على الرغم من أعمالي، لم أكن أبًا بعيدًا

أو غائبًا. كنتُ أرافقه وأخته إلى المدرسة كلّ صباح. أشرفتُ على واجباتهما المدرسيّة يوميًّا وكنت أعود في وقتٍ مبكرٍ من المساء لأخبرهما قصّةً قبل العودة إلى المكتب. بيانكا وأنا لم نربِّ طفلينا مثل الأمراء، نحن...

– ماركو لم يخبرني أيّ شيء فظيع عنك، قاطعتُه قائلة. كان ببساطة يلومك على عدم إعطائه الحقّ في اختيار حياته.

– الحقّ في اختيار حياته؟ ولكن منذ متى لدينا الحقّ في اختيار حياتنا؟ هل اخترتِ حياتكِ أنتِ؟

أرخى ساباتيني عقدة ربطة عنقه.

– كوني صادقة: قضى ماركو وقته في رسم الزومبي ذي العينين المتفجّرتين! أتعتقدين أنّ هذا أفضل من إدارة شركة توظّف ألفين وخمسمئة شخص؟

– أنت تحاول أن تبشّرني بما أؤمن به أصلًا.

فاجأه جوابي. لم يشبه ساباتيني البطريرك العجوز بشيء. في أوج حياته، كان يتباهى بسمرة متوسّطيّة خفيفة، وصدغين بالكاد لوّنهما الشيب، ونظرة واضحة حادّة، وجاذبيّة صارمة ووقورة. كان بإمكانه أن يكون بنفسه عارض الأزياء لإعلان الملابس الفاخرة التي تبيعها أكوا ألتا.

– لقد طوّرتُ هذه المؤسّسة كما فعل والدي وجدّي من قبلي. وكما فعلت خمسة أجيال قبلهما. وكان من حقّي أن أتوقّع من ماركو أن يقوم بدوره.

– لكن يمكن لأشخاص آخرين حمل الشعلة، أليس كذلك؟ أخبرتني بيانكا أنّ لديك شقيقين وأختًا ولديهم أيضًا أبناء.

– الأمر ليس نفسه، هتف قائلًا. هم ليسوا أبنائي. كنتُ آمل أن يعود ماركو في النهاية إلينا. أن يصبح أقوى. أن يصبح، مع تقدّمه بالعمر، فخورًا بسلالتنا.

– لكنّ ماركو لم يكن قادرًا على إجراء مثل هذا التحوّل. كنتُ قد جمّلتُ اللوحة بعض الشيء لِبيانكا. الحقيقة هي أنّ ماركو لم يكن قد تفلّت من براثن المخدّرات. كان بحاجة إلى ملاك حارس أربعًا وعشرين ساعة في اليوم.

فرك الإنجنييري جفنيه.

– أهنّئكِ على صراحتكِ وأشكركِ على أدائك هذا الدور. ستقام جنازة ماركو في تورتونا، على أراضي العائلة. إن كنتِ ترغبين في المجيء، فسيكون مرحّبًا بكِ.

– سوف آتي بالطبع.

توقّفتُ قليلًا قبل أن ألعب الورقة الأهمّ في خطّتي.

– كان لابنك أيضًا ميّزات، سيّد ساباتيني. على الرغم م ن خلافاتكما ، كا ن معجبً ا ب ك كثيرً ا وق د عان ى آثار ابتعادك. وعلى الرغم من مشاكله، لم تكن كلّ تفاصيل حياته مُلطّخة بالأسود.

بدوري، أخرجتُ صورة من حقيبتي كنتُ قد قضيت عدّة أيّام في تنقيحها على برنامج فوتوشوب. لقطة بالأبيض والأسود لماركو ولي على شاطئ مهجور.

سلّمتُ الصورة إلى ساباتيني.

– التُقطت قبل ثلاثة أسابيع في نورماندي. كنّا سعيدين جدًّا.

أمعن النظر فيها لفترة طويلة، بلا حراك، ولاحظ حتمًا يد ابنه على بطني.

– أنا أنتظر طفلًا من ماركو.

تجمّد رجل الأعمال بمجرّد سماعه الخبر. كان الأمر كما لو أنّني دخلتُ المطعم بقنبلة يدويّة مُخبّأة في حقيبتي وفجّرتها للتوّ.

– اطمئنّ: لا أطلب شيئًا على الإطلاق من عائلتكم. لن أطلب منكم المال أبدًا. سأربّي هذا الطفل بمفردي و...

– انتظري، انتظري، طالب وهو يضع يده على ساعدي.

أعلم أنّه يفكّر بأقصى سرعة. أنّه استيقظ هذا الصباح وهو على يقين من أنّ الأيّام المقبلة ستكون مؤلمة. أنّ السنوات الطويلة المقبلة ستكون مؤلمة. خالية من الفرح. قاتمة. غير أنّه حدث تغيير في اتّجاه الرياح قد يكون فتح للتوّ فجوةً صافيةً في هذه السماء المريرة. « Buon tempo e mal tempo non dura tutto il tempo» [2].

أعلم أنّ ساباتيني، مثلي، يعرف مفهوم كايروس. مثلي، يقول لنفسه إنّ الحياة توفّر له فرصة غير مُتوقّعة لقلب الطاولة. حلٌّ جاهزٌ لكلّ مشاكله: مصالحة بعد الوفاة مع ابنه ووريث ليخلفه يومًا ما على رأس أكوا ألتا. شرط أن يعرف كيف يغتنم هذه الفرصة. إمّا الآن أو أبدًا.

– هذه أخبار رائعة، يا أنجيليكا!

ابتسمتُ له.

– سنقوم بالأمور بالطريقة الصحيحة. لديّ نفوذ، كما تعلمين. في تورينو، يمكنني أن أحصل على اعتراف بأبوّة ماركو بعد وفاته. إن كنتِ توافقين على ذلك، بالطبع.

وفيما كنتُ أومئ برأسي، نهض الإنجنييري من مقعده وأخذني بين ذراعيه.

– أنتِ ابنة العائلة الآن.

.3

في اليوم نفسه.

الساعة الحادية عشرة والنصف.

ظننتُ بسذاجة أنّ جريمة القتل الأولى هي فقط التي تكون باهظة الثمن، فهي التي ترمي المرء في خانة القتلة، وأنّه إن كان عليه القتل من جديد، فسيكتفي بوضع علامة جديدة على قائمة الصيد الخاصّة به.

من الواضح أنّ الأمر ليس كذلك. لكن لا خيار لديّ. كنتُ قد دفعتُ قطعة الدومينو الأولى التي أدّت إلى سقوط القطع الأخرى. ولكي أبقى سيّدة مصيري، يجب أن أرتكب جريمةً أُخرى. هدفي الليلة ستيلا بترينكو. الشخص الذي بفضله بدأ كلّ شيء. الشخص الذي بسببه قد ينتهي كلّ شيء.

في أقلّ من عشرة أيّام، حقّقتُ المستحيل. رصدتُ فجوةً وتسلّلتُ إلى داخلها. دبّرتُ فرصتي. لعبت ورقة بوكر جريئة وخطيرة. لقد راهنتُ بكلّ أموالي. وها أنا على وشك كسب الرهان. ستيلا بترينكو هي العقبة الأخيرة في طريقي.

أعرف كيف ستنتهي الأمور إن لم أتصرّف. ستصبح راقصة الباليه السابقة أكثر تهديدًا حالما تدرك نجاح خطّتي. سوف تطلب منّي باستمرار المزيد من المال. مهما فعلتُ، أينما ذهبتُ، فإنّ سيف ديموقليس هذا سيبقى مُصلتًا فوق رأسي.

رابضةً على أسطح الزنك، أذكّر نفسي بأنّ موت ستيلا هو الخطوة الأخيرة التي عليّ عبورها قبل نيلي حريّتي. استخدمتُ درج الخدمة حتّى لا تلاحظ عودتي. بمجرّد وصولي إلى شقّة ماركو، خرجتُ عبر أحد المناور وكدتُ

أهشّم عظامي. تسلّلتُ أسفل المزراب. وها أنا أنتظر منذ ثلاثة أرباع الساعة.

في البداية، كنت أرتجف خوفًا من رأسي حتّى أخمصيّ، خاشيةً كسر عظامي. أمّا الآن، فقد تخدّرت ساقاي. كاد سربٌ من طيور النورس، لا أعرف من أين خرج، يوقعني من علوّ ستّة طوابق، لكنّني استعدت توازني في اللحظة الأخيرة. على عكس ما خشيتُه، لم أكن مكشوفةً جدًّا. فكان المشهد بعيدًا كلّ البعد عن فيلم «النافذة الخلفيّة». في المبنى المُقابل، وحده الطابق الثاني كان مُضا ءً. لطا لما أده شني هذا الأ مر: عدد الـ شقق غير المأهولة في باريس. قد يكون هذا الواقع صعبًا على النائمين في العراء، لكنّه من حسن حظّي. كان الوقت قد تأخّر، وقبل نصف ساعة من منتصف الليل، لا يمكن اعتبار الدائرة السابعة المنطقة الأكثر حيويّةً في العاصمة. من دون أن أرى صاحب الحانة، سمعتُه في زاوية الشارع يوضّب الكراسيّ وهو يصفّر. جاثمةً على مرصدي المصنوع من الأردواز والزنك، كانت لديّ إطلالة شاملة على شرفة ستيلا بترينكو. كانت العجوز ترتدي الجوارب والتنّورة وثوبها الضيّق، مُرتميةً على مقعد البيرجير. تذوّقَت لفّة حشيش وهي تضحك ثمّ جرعت ثلاثة أكواب من نبيذ البرغندي قبل أن تغفو لعشرين دقيقة. نهضت أخيرًا، وراحت تدلّك رقبتها، ثمّ اتّكأت على شرفتها وهي تدندن مقطوعة أوبراليّة:

Il était un roi de Thulé,
Qui, jusqu'à la tombe fidèle,
Eut, en souvenir de sa belle,
Une coupe en or ciselé…

كان قلبي يخبط في صدري. شعرتُ بغصّة في حلقي.

الآن!

قفزتُ. عن علوٍّ يزيد قليلًا عن المترين، لكن لا يزال ضمن قدرتي. هبطتُ على الشرفة ويداي مثبّتتان على الأرض. نهضتُ على الفور.

حاولَت ستيلا الالتفاف، لكنّني أمسكتها من ركبتيها ورفعتها بكلّ قواي لإطاحتها فوق الدرابزين. بقيَت صرخة احتجاجها عالقةً في حلقها.

فات الأوان.

كانت قد تحطّمت على الرصيف.

رميتُ المرشّة إلى الشارع وغادرتُ الشرفة متسلّقةً السور الحديديّ للعودة إلى الأسطح.

لم يكن الأمر بهذه الصعوبة في النهاية.

---

[1]جياني أنيللي هو رئيس نادي يوفنتوس السابق، وأحد أبرز رجال الأعمال في القرن العشرين، منحدر من عائلة أنيللي الإيطاليّة العريقة التي تمتلك شركتَي السيارات فيات وفيراري.

[2]الطقس الجيّد كما الطقس السيّئ لا يدوم إلى الأبد.

.III

ماتياس تايفر



10

بلا أثر

«للأشياء الصغرى أهميّة كبرى،
فدائمًا ما نفقد أنفسنا بسببها».

فيودور دوستويفسكي

1.

الأربعاء 29 كانون الأوّل/ديسمبر.

رفع ماتياس تايفر ياقة معطفه وهو يغادر المحطّة. على الرغم من صداع ما بعد الثمالة، بذل الشرطيّ جهدًا للاستيقاظ مبكرًا، وحلْق ذقنه، وارتداء قميص وسترة نظيفَيْن. كان قد أخذ الخطّ «ب» من محطّة سيتيه-أونيفرسيتير، القريبة من منزله. استغرق الأمر نصف ساعة، أشبه بدهرٍ، لعبور باريس والوصول إلى أولنيه-سو-بوا.

توقّف في الفناء الأماميّ لإشعال سيجارة وأدخل في هاتفه الآيفون عنوان أنجيليك شارفيه الذي حصل عليه بفضل نورا مسعود. سحب نفخات صغيرة بتوتّر، كما لو أنّ

للتبغ قدرةً على تزويده بالوقود، ثمّ تفقّد الطريق الذي اقترحه نظام الجي بي أس.

الساعة العاشرة صباحًا. كانت السماء صافيةً تمامًا، لكنّ بردًا قطبيًّا خدّر المدينة. في عطلة عيد الميلاد هذه، فقد التجمّع السكاني في العاصمة جزءًا كبيرًا من عناصره. تحت أشعّة الشمس واللوحة الشتائيّة، عكس مركز أولنيه-سو-بوا صورًا متناقضة، بين الدائرة الرابعة عشرة عند ساحة ميشيل أوديار وضواحي المدينة حيث صُوّر فيلم ماتيو كاسوفيتز.

شيئًا فشيئًا، بدأ الشرطيّ السابق يتعرّف إلى المكان. كان قد جاء إلى هنا قبل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، أثناء تحقيقٍ قام به. لم يتغيّر الكثير. كان الآسيويّون يفتحون أبواب مطاعمهم على طريق بوندي، وحرّاس الأمن يدخّنون أمام المونوبري، فيما تتسكّع مجموعة من الرجال العاطلين من العمل أمام جمعيّة الحيّ. في جادة ستراسبورغ، كان يوم التسوّق. استعدادًا لليلة رأس السنة الجديدة، احتشد الأولنيزيّون حول طاولات البيع في جوٍّ من التوتّر. كِمامات، معقّم اليدين، تباعد اجتماعيّ: كانت فرنسا مُرتبكة في ظلّ ظهور متحوّر جديد من فيروس كورونا. في اليوم السابق، ولأوّل مرّة، تجاوز عدد الإصابات المئتي ألف. قبل يومين من ليلة رأس السنة الجديدة، مزّق أوميكرون العائلات: عزلة قسريّة، اشتباكات بين المؤيّدين والمعارضين للّقاح، قيود مُتشدّدة على التنقّل.

توقّف تايفر لاهثًا عند صيدليّة لشراء أقراص إيزوميبرا زول وأسبرين مع الفيتامين. منذ استيقاظه وهو يعاني من حرقة رهيبة في المعدة. كان رأسه ثقيلًا، يشعر بألم في رقبته ومعنويّاته هابطة. الأكثر غرابةً أنّه كان

يكافح لتركيز انتباهه. كانت أفكاره تتدافع، تتشتّت، تفلت منه. فضلًا عن الدوخة: فقد الواقع تفاصيله وبدا العالم طافيًا من حوله. تسارعت دقّات قلبه، يطارده سؤال واحد: أيا تُرى أُصبتُ أنا أيضًا بهذا الفيروس اللعين؟

كان من بين أوّل من تلقّوا جرعةً من اللقاح نظرًا لخضوعه لعمليّة زرع قلب. بالنسبة لأمثاله، يتضاعف خطر الوفاة بسبب تناولهم مثبّطات المناعة. واقتناعًا منه بأنّ الخوف من الوباء أخطر من الوباء نفسه، حاول حتّى الآن ألّا يقلق كثيرًا، غير أنّ تطوّر الحالة الصحيّة العامّة غيّر قواعد اللعبة.

في طريقه خارج الصيدليّة توقّف عند حانة في الهواء الطلق في السوق لشراء الكرواسان وزجاجة مياه صغيرة. كان يـ شتهي ا لقهوة، لـ كنّ م عدته ع ارضته ا لرأي و كاد يسمعها تهمس له: «لا تحاول حتّى». بينما كان يبتلع دواءه، شعر بهاتفه يهتزّ في جيبه. لويز كولانج. تجنّب الردّ. آخر شيء أراده الآن هو أن يتحمّل إزعاج هذه الطفلة.

استأنف طريقه إلى مبنًى صغير من الحجر الرمليّ الخشن في زاوية ساحة جنرال-لوكليرك وشارع جاك-شيراك. طابقان غير جذّابَيْن بجملونات مُتدرّجة وواجهات مُسودّة بفعل التلوّث.

لم يتردّد ماتياس طويلًا. دفع البوّابة التي أحدثت صريرًا وتسلّق الدرجات باتّجاه باب خشبي مزيّن بزخارف حديديّة قديمة الطراز. رأى جرسَين. الأوّل باسم أنجيليك شارفيه، والثاني باسم بياتريس باروس. كان المكان هادئًا، لكنّ غرائزه الشرطيّة نبّهته إلى خطرٍ مُحتمل. للاطمئنان، احتاج إلى تلمّس مسدّسه السيج سوير الذي حفظه جيّدًا في جيبه المُلصق بسرواله بالفيلكرو. بالكاد اقترب إصبعه

من الجرس حتّى انفتح الباب وظهر أمامه مخلوقٌ فضائيّ. عملاق أشقر بطولٍ يقارب المترين وشعر مُموّج. خلقة مُتورّمة بالكاد يمكن رؤيتها من خلف الكمامة الكبيرة ذات الفلتر المُزدوج.

– ما الذي تبحث عنه؟ سأل العملاق.

لم يكن صوته الرفيع والأنفيّ الذي يذكّر بأبطال الرسوم المتحرّكة ملائمًا لهيئته البدنيّة. بل بدا كما لو أنّ الرّجل تعاطى غاز الضحك.

– ماتياس تايفر، فرقة مكافحة الجريمة. وأنت؟

– جوزيف فيغازس، المالك.

ظهرت امرأة صغيرة من خلفه. مترٌ وأربعون سنتمترًا، شعرٌ أسود حالك. وجهٌ يوحي بوجه فأرة عابسة.

– اطلب منه بطاقته، جوزيف.

نفد صبر تايفر:

– من أنتِ سيّدتي؟

– مونيكا فيغازس، والدته.

دلّك الشرطيّ جفنيه. كان الثنائي سيصعّب الأمور عليه، لقد شعر بذلك.

– أبحث عن أنجيليك شارفيه.

– لم تعد تسكن هنا.

– دعونا نتحدّث في الداخل، أصرّ قائلًا. الجوّ بارد.

لكنّ هي مان [1] والماما بقيا مسمّرَيْن عند الباب، مصمّمَيْن على عدم التنازل عن شبر واحد من الأرض.

فكّ تايفر أزرار سترته للكشف عن قِراب مسدّسه نصف الأوتوماتيكيّ وزوج من الأصفاد المعلّقة بحزامه.

– يمكننا الذهاب إلى مقرّ الشرطة القضائيّة إن كنتما تفضّلان ذلك. شارع باستيون، في باتينيول. المبنى جديد،

سأريكما المكان.

آتى التهديد ثماره ووافق كلبا الحراسة على مضض على التراجع.

.2

دخل تايفر الشقّة في الطابق الأوّل. أرضيّة باركيه مغطّاة بقماش مشمّع، سلالم نقّالة، ركائز خشبيّة، علب طلاء. كان المنزل غارقًا في ورشة. شقّة من غرفتين أُضيفت إليها أريكة، وسرير، وبعض الأثاث المحميّ بلفّافات البولي إيثيلين.

– هل هذا هو المكان الذي عاشت فيه أنجيليك شارفيه؟

– نعم، أجاب جوزيف بعد تبادل النظرات مع والدته.

كان قد تخلّص من كمامة الورشة وكشف عن وجه بغيض: تصفيفة شعر عموديّة، عينا بغل، خدّان ممتلئان مُورّدان.

– سلّمَت عقد إيجارها في منتصف سبتمبر، أوضحت الفأرة. حذت المستأجرة في الأعلى حذوها بعد شهر. نغتنم الفرصة لتجديد الشقق. قد يكبّدنا ذلك خسائر كبيرة، لكن هذه حال الحياة.

– هل تركت أنجيليك شارفيه عنوانًا عند المغادرة؟

– لا، لا شيء على الإطلاق. تلك الحقيرة لم تأخذ الوقت الكافي حتّى لترتيب أوراق حالة المسكن عند المغادرة. آه، العربون، لن تسترجعه في حياتها!

من الناحية الجسديّة، كانت المرأة على طرفي نقيض مع ابنها: خمسة وأربعون كيلوغرامًا حدًّا أقصى، شعر أملس يؤطّر وجهًا هزيلًا، نظرة قاتمة تخترق مَن أمامها، صوتٌ واضح يُسمع من بعيد. من الصعب تصديق أنّهما كانا أمًّا وابنها.

– لمَ تبحث عنها الشرطة؟ سألت.

تنصّل تايفر من الإجابة:

– أيَّ نوع من المستأجرين كانت؟

ضحكت المرأة الفأرة ساخرةً وأجابت:

– النوع الذي لا يدفع. كان لا بدّ من مطالبتها بتسديد الإيجار مرارًا وتكرارًا.

– كانت تسكن وحدها؟

– أظنّ ذلك، أجاب جوزيف. على أيّ حال، في كلّ مرّة جئتُ فيها لإصلاح شيء ما، كانت وحدها.

جال تايفر في الصالون.

– هل هذا الأثاث لها؟

– لا، استأجرت الشقّة مفروشة. الكتب فقط لها.

توقّف تايفر أمام المكتبة ورفع الغلاف البلاستيكيّ لمعاينة محتوياتها. روايات معاصرة، كلاسيكيّة، مقالات، كتب فنّية، اجتماعيّة، طبّية، مجلّات موضة. كانت أنجيليك قارئة نهمة بذوقٍ انتقائيّ. رصد العديد من إطارات الصور على الرفوف. صور «سيلفي» تفنّنت فيها لتُظهر أجزاءً محدّدة من وجهها فتجعلك تتخيّل خمسين وجهًا لأنجيليك، من الغرّة الشقراء والشعر الأملس إلى قصّة الشعر الكستنائيّ المربّعة والمبعثرة. الأنا والنرجسيّة المعاصرة. فتاة وحيدة اختارت أن تفرض نفسها عوضًا عن

الاعتماد على نظرة الآخرين. فتاة قادرة على التنكّر بهويّات مختلفة. متغيّرة، كالحرباء. خطيرة، ربّما...

عندما اقترب من النافذة الخلفيّة، لاحظ أنّ الزجاج محطّم وأنّه قد رُقع مؤقّتًا بكيسٍ للنفايات. انحنى فاكتشف أنّ مصراعين اثنين قد خُلعا من مكانهما.

– هل جرت محاولة اقتحام؟

– ما أكثر الحثالة من الناس هنا، قالت مونيكا فيغازس.

– متى حصل هذا؟

– بعد رحيل شارفيه، على ما أظنّ، أو ربّما كسرتها بنفسها وحرصَت على عدم الإبلاغ عن الأمر.

– هل تركت أنجيليك أيّ شيء آخر؟ ملابس؟ أوراق؟

– تركت تلك الحقيرة فوضى لا تُصدّق، اشتكت المالكة وهي تشخر.

مسحت خيطًا من المخاط بكمّها وأومأت إلى حاويتين عبر الشارع.

– لم تقم بالتنظيف وكانت صناديق القمامة تفيض من كلّ جانب.

تجهّم الشرطيّ.

– لكن... ألم تنظّفوا الشقّة حتّى اليوم؟

– لقد بدأنا أوّل من أمس، ولم ننهِ بعد. مع عمليّات الفرز والعطلات الرسميّة، لا تزال الصناديق كلّها في مكانها هناك.

لم يصدّق تايفر عينَيْه. خرج من المبنى، واجتاز الشارع ثمّ فتح الحاويتَين. قلبهما على الرصيف واستهلّ البحث. كان العمل شاقًّا، لكنّه أدّاه بجدّية من دون أن يعرف عمّا كان يبحث فعلًا.

كانت فضلات أنجيليك شارفيه عاديّة جدًّا. لم تدّعِ الفتاة أنّها مناصرة للبيئة وكانت تحبّ الشراء عبر الإنترنت. وجد علب كرتون وطرودًا من علامات تجاريّة عصريّة – سيزان، روج... – ولكن أيضًا الكثير من عبوات البيرة كورونا، وزجاجات مياه بلاستيكيّة، وبطّاريّات وحشوة البوليسترين. بعد عشر دقائق من التنقيب، توقّف تايفر. جمّد الهواء الجليديّ رئتيه وأصابه برعشات في مختلف أنحاء جسده. على عكس جبهته التي كانت تحترق وتُشعره بأنّ رأسه على وشك الذوبان. كان بالطبع قد بالغ في تقدير نتائج مثل هذه العمليّة، إلّا أنّه فرك يديه ليتشجّع ويعود إلى العمل. عاين الأوراق التي كان قد وضعها جانبًا. قسائم دفع، فواتير، إيصالات إيجار، كشوفات حساب من مصرف كريدي موتويال: شهدت المستندات الماليّة على وضع ماليّ متذبذب، لكن لا قيمة له.

لفتت انتباهه رسالةٌ مُمزّقة – أشبه بتلك التي كانت تُرسل قبل أن يغزو العالم الرقميّ حياتنا. ألقى بعقب سيجارته، ثمّ ركع وبسط أجزاء الورق على الرصيف لتفكيك اللغز. كانت رسالة طويلة موجّهة إلى أنجيليك من عاشقٍ ولهان. كورنتين لوليفر. زمّ تايفر عينيه لفكّ رموز الخطّ. من الواضح أنّ الشابّ كان يعاني. من خلال نثره المتدفّق، سرد مرارًا وتكرارًا عذابه لتعرّضه للرفض من الشخص الذي أحبّه. كان يتوسّل الممرّضة لتمنحه فرصة أخرى. دسّ الشرطيّ الرسالة في جيبه. أثارت فيه شعورًا مختلطًا من الاشمئزاز والتعاطف. ربّما كان مُخطئًا، لكنّه لم يتخيّل شارفيه مع هذا المخربش الرديء في عصره. نهض مجدّدًا

ونفض الغبار عن سترته وسرواله قبل أن يعيد ما بقي من القمامة إلى الحاويات.

كان يعلم أنّه لن يجد أيّ شيء آخر. في القطار، هذا الصباح، لاحظ أنّ وجود أنجيليك شارفيه على الإنترنت كان محدودًا. أقسمت نورا مسعود أنّها رأت لها حسابًا على الإنستغرام في ذلك الوقت، ولكن لا بدّ أنّه أُغلق.

لقد حلّق العصفور بعيدًا. هذا مؤكّد.

التقط صندوقًا أخيرًا وأراد أن يتحاذق كما في لعبة كرة السلّة، ليسدّد هدفًا في الحاوية، لكنّ الصندوق ارتدّ من الحافة وسقط على الرصيف. أثناء التقاطه لاحظ عصا بلاستيكيّة داخله. ظنّ في البداية أنّها جهاز فحص كورونا مُستخدم، ولكن عندما نظر إليها عن كثب، فهم أنّه أخطأ. هذا اختبار حمل. إيجابيّ.

ردّ تايفر غطاء الحاوية بعناية، مُستغرقًا في التفكير. عقّم يديه بدفقة كبيرة من الجل. لا وقت للمرض. لم يستطع إخفاء ابتسامته. بعد خمس سنوات من استبعاده من الشرطة، ها هو يحصل أخيرًا من جديد على قضيّة ليحلّها. كان دليله ضعيفًا ولكن مثيرًا للاهتمام. كان يعرف هذا الشعور بالضبابيّة، هذه الصور المشوّشة، هذه الخيوط التي تشكّل ظاهريًّا كرةً يستحيل فكّها. لكنّ هذا لم يُخِفْه. عاجلًا أو آجلًا، سيظهر عنصرٌ ما ليعيد ترتيب هذه الفوضى. ولكن أين تلك القطعة من الأحجية؟ في شقّة ستيلا بترينكو؟ لقد كان متهاونًا للغاية خلال زيارته. وبدافع الأدب، لم يضطلع بالتفتيش بقدر ما يجب. لكنّه سيفعل قريبًا.

.3

شغّلت لويز الإشارة الضوئيّة والتحقت بشارع بيلشاس. هذه المرّة الأولى التي تأتي فيها إلى هنا وتواجه خيارات عديدة تجعلها تحتار أين تركن السيّارة. لم يسبق أن بدت باريس فارغة إلى هذا الحدّ، منقّاة من سيّاحها، مُستضعفة بفعل الوباء. أمست شوارع حيّ سان-توماس-داكين بزينة عيد الميلاد الهزيلة أشبه بديكور سينمائيّ. «شينِشيتا [2]» بدون كومبارس.

ركنت سيّارتها عند زاوية شارع لاس كازيس. دخلَت المبنى المهجور وطلبَت المصعد نحو الطابق الخامس. بالكاد ذاقت عيناها طعم النوم تلك الليلة إذ غمرها الإحباط لعدم إحرازها أيّ تقدّم في «تحقيقها». أرهقها العيش في هذه الضبابيّة، فقرَّرت التجرّؤ على مواجهة شبح والدتها. ولتحقيق ذلك، كان عليها أن تتحلّى بالشجاعة للوغول في الميدان الأقلّ بريقًا، ميدان حياة ستيلا بترينكو الخاصّة. يعني ذلك أوّلًا، من الناحية العمليّة، تمشيط شقّتها من دون الخوف من العثور على «كومة الأسرار الصغيرة البائسة» التي يجرّها كلٌّ منّا.

أقفلت الباب خلفها بالمفتاح وتركت حقيبتها على كرسيّ. على الرغم من أشعّة الشمس المُبعثرة على الأرضيّة الخشبيّة، كانت الشقّة جليديّة. شغّلت لويز السخّانات على الحرارة القصوى. أعادت تعليق لوحة ساباتيني على الحائط، وبينما كانت تنتظر المكان ليدفأ، سكبت الماء في ماكينة القهوة وحضّرت فنجان إسبرسو كبيرًا. كانت قبل بعض الوقت قد اتّصلت بتايفر لطلب مساعدته، لكنّ الشرطيّ تجاهلها. لا يهمّ، فهي ذكيّة بما يكفي لتستغني عنه.

شربَت قهوتها في رشفات صغيرة، سارحة النظر، تفكّر في مسيرة والدتها التي تميّزت بالعمل وخيبة الأمل. منذ أن كانت طفلةً، صبّت ستيلا بترينكو حياتها على هدف واحد فقط: الارتقاء إلى مكانة راقصة الباليه النجمة في أوبرا باريس. بالنظر إلى الوراء، تبيّن لِلويز أنّ هذا الهدف كان أساس كلّ الإحباطات التي سمّمت حياة والدتها. إذا واجهنا الأمور على حقيقتها، نلاحظ أنّ هذه التضحية بالنفس والآلاف من الساعات المُكثّفة من العمل ولّدت لها آلامًا أكثر ممّا منحتها لحظات فرح. سرعان ما أدركت ستيلا أنّها لم تكن الراقصة الأكثر جمالًا، ولا الأكثر رشاقة، ولا الأكثر موهبة. غير أنّها صعدت الدرجات كلّها بصعوبة، وحصلت على لقب النجمة مع الوقت والمثابرة. بقدر ما تستطيع تذكّره، كانت لويز تسمعها دائمًا تقول إنّها «اقتلعته بأسنانها».

تجلّت مأساة ستيلا في أنّها لم ترغب في أن تكون محبوبةً فقط، بل أرادت أن تكون «مُفضّلة»، لأنّها اعتقدت بصدق أنّها تستحقّ ذلك أكثر من الآخرين. الوضع في أوكرانيا، اقتلاعها من عائلتها، مرسيليا، أيّام التدريب لمدّة عشر ساعات، الجسد المُنهك، الحادث، الإصابات. لم ترقص ستيلا يومًا من دون أن تشعر بألمٍ ما. كانت حياتها المهنيّة عبارة عن طريق وعر وشاقّ، لكن يقود إلى أين؟ بضع رفرفات بأجنحة هشّة بالكاد رفعتها نحو السماء حتّى كان عليها أن تفسح الطريق لغيرها قبل أن تتوارى عن الأنظار نهائيًّا.

كان لتقاعدها من أوبرا باريس دورٌ في تعجيل سقوطها، ولم تسهم الدورات التي تمكّنت من تقديمها بعد ذلك في معهد «ميناجري دو فير» في تغيير مصيرها.

ماري-أنييس جيلو، وأوريلي دوبون، وسيلفي غيام، وماري كلود بيتراجالا، تمكّنّ جميعًا من تجديد صورتهنّ والبقاء على القمّة. أمّا ستيلا بترينكو، فلا. كانت دائمًا على شفير الانهيار، جسديًّا وعاطفيًّا. عاشت هذا الفراغ الكبير كصدمة عاطفيّة. كيف تجرؤ الحياة على استرداد ما كافحت ستيلا لسنواتٍ لتنتزعه منها؟

كانت لويز قلقةً عليها. لم تكن والدتها قد بنت أيّ شيء. من بعد لوران كولانج، لم يكن لأيّ رجل مكانةٌ حقيقيّة في حياتها. كانت عندما تزورها، تجدها وحيدةً وتعيسة، مليئةً بالغضب، مُلوّثةً بمرارة هائلة ازدادت وضوحًا مع كلّ يوم.

أغرب الأمور أنّ ستيلا لم تكن حتّى والدتها البيولوجيّة. في الواقع، كانت المرأة التي «أنجبتها» – كما يقول والدها – عازفة فلوت سابقة في أوركسترا راديو فرانس. امرأة غير متوازنة، حياتها فوضويّة، أُدخلت عدّة مرّات إلى مستشفًى للأمراض النفسيّة بين ألمانيا وهولندا. كانت قد شاركت حياة والدها، لوران كولانج، في أوائل عام 2000، وحملت منه عن غير قصد.

تردّدت في البداية، لكنّها اختارت الاحتفاظ بالطفل من دون أيّ حماسة. شكّل حملها معاناةً لها وعجّل مجيء الطفل الأمور. في غضون خمسة عشر يومًا من الولادة، كانت قد غادرت إلى برلين، تاركةً طفلتها الرضيعة لشريكها. عاشت لبعض الوقت في مسكن غير قانونيّ مع نشطاء من مجموعة أبوكاليبس، وهي حركة عصيان مدنيّ ألمانيّة ناضلت ضدّ تقاعس الدولة أمام تعذيب الحيوانات وتغيّر المناخ.

كان لوران كولانج قد فقد أثرها في ذلك الوقت ولم يلقَها بعد ذلك أبدًا. ثمّ دخلت ستيلا حياته عندما كانت لويز تبلغ من العمر ستّة أشهر. قامت راقصة الباليه بتربية لويز كما لو كانت ابنتها. لم يكذب لوران وستيلا بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكن نظرًا لأنّ عازفة الفلوت لم تظهر أبدًا لرؤية الطفلة، فقد تناستها العقول وغاب اسمها عن الألسن. إلى ذاك اليوم من عام 2010 عندما تلقّى لوران كولانج مكالمة من هولندا لإخباره أنّ شريكته السابقة قد تُوفّيت بسبب سرطان الثدي في مستشفى روتردام. نهاية حزينة لحياة رماديّة. انتظر والد لويز بلوغها الخامسة عشرة من عمرها ليكشف لها عن وفاة والدتها البيولوجيّة. هذه القصّة، التي بقيت في خلفيّة بعيدة طوال طفولتها ومراهقتها، لم تغيّر مشاعر لويز تجاه ستيلا بترينكو. لم يكن لديها أمّ أخرى. كانت قد ذهبت إلى روتردام في العام السابق لمقابلة جدّتها البيولوجيّة، لكن لم يحدث بينهما انسجام. لم يكن لديهما أخبار تتبادلانها، ولا تاريخ يجمع بينهما. لقد عزّزت برودة الباتافيّين ولامبالاتهم فكرة أهميّة جذورها وحبّها لستيلا، والدتها الأولى والوحيدة على الرغم من كلّ عيوبها.

.4

غسلت الشابّة فنجانها في المجلى وانكبّت على المهمّة التي حدّدتها لنفسها: قلب الشقّة رأسًا على عقب. كما يحدث في عمليّات التفتيش التي نراها في المسلسلات التلفزيونيّة، فكّكت خزّان المرحاض، وفحصت ألواح الباركيه، وفتحت الأدراج، وبعثرت أكوام الملابس،

وتفقّدت محتويات كلّ الخزائن، وراجعت أوراق المكتب، وفتّشت الفرن، والشفّاط، وفكّت أنابيب المصابيح، وتفحّصت السقف والجدران الفاصلة، إلى أن...

أثار صوتٌ أجوف اهتمامها في الحائط الفاصل للمطبخ شبه المفتوح. تمكّنت من أن تدير غطاءً زجاجيًّا برّاقًا لتكتشف فجوةً بين الجدارَيْن. وعندما صوّبت مصباح هاتفها نحوه، رأت ظرفَيْن مُخبّأين.

ما من سرٍّ إلّا تكشفه الأيّام، قالت ذلك في نفسها وهي تمرّر يدها لتلتقط الطيّات بين سبّابتها وإصبعها الوسطى. كان الأوّل ظرفًا سميكًا من الورق المُقوّى الأبيض المزخرف، فيه حزمٌ من الأوراق النقديّة من فئة خمسين يورو. أفرغت لويز المحتويات على منضدة الغرانيت وقيّمت سريعًا الغلّة. عشرة آلاف يورو بالضبط. هل كانت مُدّخرات؟ تفحّصت الظرف ولاحظت طابعًا بريديًّا جافًّا في إحدى الزوايا. شعارٌ يتكوّن من حرفَيْ «B» متشابكَين. تذكّرَت هذا الرمز: كان لغاليري برنارد بينديك. ربّما ثمن لوحة لماركو ساباتيني كانت ستيلا باعتها له؟ لكن إن كان تخمينها صحيحًا، فلماذا لم يخبرها صاحب الغاليري بذلك؟

تضمّن الظرف الثاني، الأصغر حجمًا، نا قل بيانات يو إس بي فقط. أخرجت الحاسوب المحمول من حقيبة ظهرها وجلست على كرسيّ أمام مكتب الصالون. وصّلت اليو إس بي بالكمبيوتر بتوجّس. كان فيه مجلّدٌ واحدٌ فقط، بدون عنوان، يحتوي على عشرات الأفلام لا يدوم كلٌّ منها أكثر من ثلاث دقائق. شغّلت عشوائيًّا أحد الفيديوهات، ومن الصور الأولى، وضعت يديها أمام فمها. كان يصوّر، من بعيد، والدتها وهي تمارس الجنس مع رجل لم تكن تعرفه. فتحت الملفّ الثاني، ثمّ الثالث، ثمّ...

كانت كلّ الأفلام متشابهة. وحده الشريك الجنسيّ لوالدتها اختلف. بعد جهدٍ هائل، حاولت الحفاظ على مسافة ممّا شاهدته للتوّ. الملاحظة الأولى: لم تكن هذه المشاهد عدوانيّة. ولم تبدُ ستيلا تحت تأثير مادّة ما. لكنّها لم تكن أيضًا مجموعة عاديّة من الأفلام الجنسيّة التي سُجّلت على مرّ السنين. أوّلًا، كانت الصور حديثة، مُؤرّخة كلّها من الأشهر الأخيرة. ثمّ كان الديكور دائمًا نفسه: الأريكة في الصالون. أخيرًا، كانت مُصوّرة عن بعد، بنوعٍ من العدسات المُقرّبة المُوجّهة حتمًا إلى... الغرفة التي كانت هي فيها في تلك اللحظة بالذات. خفضت الشاشة بضربة قويّة ورفعت عينيها. كانت الشمس قد توارت خلف تراكم السحب السوداء. أمست الشقّة غارقة في عتمة نهاية اليوم. اللعنة. شعرت لويز بأنّها مُراقَبة. الرجل الذي صوّر والدتها في تلك المشاهد لم يكن ليتمكّن من القيام بذلك إلّا من خلال مرصد من الجانب المقابل الشارع. هرعت إلى الباب الزجاجيّ لسحب الستائر قبل أن تعود إلى المطبخ. كانت خائفة. ظنّت أنّها ذكيّة ويمكنها الاعتماد على نفسها في تفتيشها للشقّة، لكنّ شخصًا آخر يمسك بالخيوط. مُحرّك دمًى لا بدّ أنّه كان، في هذه اللحظة، مبتهجًا خلف نافذته.

تسمّرت في مكانها برهة طويلة في سكونٍ تامّ. من صوّ ر هذ ه الأفلام ؟ والأهمّ مـن ذلك ، لأيّ غرض ؟ لابتزاز والدتها؟ ولكن كيف كانت هذه المشاهد مدعاةً للمساومة؟ لطالما تمتّعت ستيلا بحياة غراميّة متشعّبة لا تخجل بها. طال الصمت المُقلق، ليقطعه ضجيج المصعد الذي طُلب إلى الطوابق السفليّة. ماذا لو قرّر الرجل الذي يراقبها المجيء وتسوية حسابه معها؟ لا، لم يكن هذا

الخوف منطقيًّا البتّة. ومع ذلك، تقوقعت لويز في زاوية من المطبخ، تصغي بانتباه شديد. بات صوت المصعد أكثر وضوحًا ليتوقّف عند الطابق الخامس. اللعنة.

سمعت خطوات ثقيلة تقترب في الممرّ. ثمّ رأت المقبض الداخلي ينخفض والباب يهتزّ بفعل هجمات الشخص الدخيل. عضّت قبضة يدها حتى لا تصرخ. ما العمل؟

ساد الصمت مرّةً أخرى قبل أن تسمع قعقعة معدنيّة. كان الرجل يحاول فتح القفل باستخدام مجموعة أدوات. بات الخطر قريبًا جدًّا. صرخت لويز «النجدة! النجدة!» عدّة مرّات. كان لصراخها تأثيرٌ وحيدٌ، هو الضغط على المعتدي وتحريضه على تغيير طريقة اقتحامه. بات الآن يحاول كسر الباب. هزّت ضربتان قاضيتان اللوح الخشبيّ لتقتلعه الثالثة من مفصّلاته وتفجّر القفل. اختبأت لويز تحت المنضدة. وها هي ركلة أخيرة تقضي على الباب وتكشف عن قامة رجل في المدخل.

كان ماتياس تايفر.

---

[1]هي مان بطل خارق والشخصيّة الرئيسيّة في مسلسل «هي مان وأسياد الكون» الكرتونيّ.

[2]أكبر استوديو أفلام في روما، إيطاليا.

11

هيكيكوموري

«عندما لا يعيش المرء حياةً واقعيّ ةً جيّدةً، يخ لق عالمًا آخر وهميًا في مخيّلته، فذلك العالم أفضل من لا شيء».

أنطون تشيخوف

1.

– لقد أخفتني، أيّها الأحمق! صرخت لويز وهي تخرج من مخبئها.

– أنتِ من أخافني، ردّ تايفر. لماذا بدأتِ بالصراخ هكذا؟

دخل الغرفة وهو ينظر إلى الباب الذي كسره للتوّ، محاولًا عبثًا إعادته إلى مكانه.

– ماذا تفعل هنا؟ صاحت الفتاة.

– اهدئي.

– لمَ لا تجيب على مكالماتي؟

– أحضرتُ لكِ الكرواسان، قال وهو يلوّح بالكيس الورقيّ الذي حمله معه من سوق أولنيه.

– ضعها في مؤخّرتك!

دخلت الحمّام وأغلقت الباب بعنف.

تنهّد الشرطيّ. من الصعب حتّى التفكير بأنّ بعض الناس لديهم مراهقون يتحمّلون تصرّفاتهم كلّ يوم في المنزل. لا بدّ من أنّ هؤلاء الناس ممّن يستمتعون بتعذيب أنفسهم. راح يدفئ يديه أمام السخّان. كانت الأدوية قد بدأت تظهر مفعولًا. شعر بتحسّن كبير. بنشاط أكثر. معجزة الكيمياء. حتى إنّه سمح لنفسه بتناول بعض القهوة لطرد الضباب من رأسه. وقع نظره، وهو يضع الكبسولة في جهاز تحضير القهوة، على العشرة آلاف يورو الموضوعة على المنضدة. من أين أتت كلّ هذه الأموال؟ لاحظ الفتحة في الحائط، ثمّ وجد الظرف المفتوح مع الحرفين «BB» فربط بعقله فورًا بينهما وبين برنارد بينديك. كانت لويز كولانج قد سبقته في تفتيش الشقّة.

– هيّا، عودي! صرخ لها. لديّ معلومات أخبركِ بها.

لا جواب. انتهز الفرصة لتوصيل هاتفه بالطابعة عن طريق الواي–فاي وسحب صورة لأنجيليك شارفيه. لقطة شاشة بالأبيض والأسود لصورة من صفحة الممرّضة على «لينكد إن». الأثر الوحيد لأنجيليك الذي وجده على الإنترنت.

جعلته لويز ينتظر ثلاث دقائق طويلة قبل أن تظهر، عابسة الوجه. محاولًا كسب ثقتها، أخبرها تايفر عن الدليل الذي حصل عليه عن أنجيليك شارفيه التي اتّبعها إلى أولنيه-سو-بوا.

– هل قابلتِها من قبل في زيارة لوالدتكِ؟

هزّت لويز رأسها. أدرك تايفر أنّها كانت في حالة صدمة.

– هل وجدتِ أيّ شيء آخر في الحائط؟

– ناقل بيانات يو إس بي.

ذهبَت لإحضار لابتوبها من المكتب وشغّلت المقطع الأوّل.

اتّسعت عينا تايفر الذي فهم حين ذلك سبب استياء الفتاة عند وصوله.

– المقاطع الأخرى مثله، حذّرته قائلة. الشريك وحده يتغيّر.

أخرج تايفر هاتفه الخلويّ والتقط بشكلٍ فطريٍّ ثلاث لقطات من المشهد. حكّ رأسه. ها هو التحقيق يتّخذ من جديد اتّجاهًا غير متوقّع. فاحت منه رائحة الابتزاز، القصص الأخلاقيّة... أشياء لم يشعر يومًا بالارتياح لها. لكن، كانت الزاوية الّتي التُقطت منها المقاطع هي أكثر ما أزعجه.

قفز من مقعده وخرج على عجل إلى الشرفة. جذب تحرّك ضوءٍ انتباهه إلى نافذةٍ في المبنى المقابل كان أحدهم يُنزل ستارتها. النافذة نفسها التي رأى فيها انعكاسًا عندما جاء إلى هنا بعد ظهر أمس.

– أنتِ ابقي هنا، قال وهو يلتفت إلى لويز. سأذهب لزيارة المتلصّص علينا.

– مستحيل، سآتي معك.

– لا، قد يكون خطيرًا. لا نعرف من هو المجنون الذي سنقع عليه و...

– سوف تحميني، قاطعته مشيرةً إلى مسدّس السيج سوير في جرابه.

تجهّم تايفر، لكنّه لم يضيّع أيّ وقت لإقناعها. أخيرًا بعض الحركة! شعر بالانتعاش والجهوزيّة للقتال. هرع إلى أسفل الدرج، ثمّ عبَر الشارع مثل الكلب المجنون ليرنّ كافّة أجهزة الاتّصال الداخليّ في المبنى المُقابل، مكرّرًا بصوتٍ مهدّدٍ عبارته المفضّلة: «هنا الشرطة! هنا الشرطة!».

.2

فُتح الباب أخيرًا. ولويز في أعقابه، تغاضى عن استخدام المصعد وأسرع إلى الطابق الخامس حيث انتظرتهما امرأة، بنظرةٍ مُرتابة، مُختبئة جزئيًّا وراء فتحة الباب.

لمح الشرطيّ، فور دخوله، الاسم على جرس الباب: كارين لوبلان. صبغةٌ حمراء، قصّة شعر مربّعةٌ، آثار حوالي خمسين عامًا شاقًّا على وجهها، جسمٌ محصورٌ في سترتها المنفوخة. بوشاحها المربوط حول رقبتها، بدت على وشك المغادرة.

– سيّدة لوبلان؟

وقفت مذعورة، ثمّ سألت وهي ترتعد:

– أتيتما لأجل رومويالد، أليس كذلك؟ ماذا فعل هذه المرّة؟

حاول تايفر شقّ طريقه إلى الداخل بالقوّة.

– أتسمحين لنا بالدخول للحظة؟

من دون انتظار الإجابة، تسلّل إلى الممرّ الذي أدّى إلى غرفة معيشة صغيرة كئيبة وقديمة بعض الشيء.

– هل هذا منزلكِ؟

– نعم. ماذا تريد منّي؟

كانت كارين لوبلان قد خلعت وشاحها وفتحت سترتها.

– هل أنتِ من التقط هذه الصور؟ سأل تايفر، وهو يضع فجأة شاشة هاتفه أمام عينيها.

– يا إلهي! لا، بالتأكيد لستُ أنا!

– لكنّها مأخوذة من نوافذ بيتكِ. أتعرفين من التقطها؟

– أظنّ أنّه ابني، رومويالد، ردّت متنهّدة.

– ابنكِ؟ كم عمره؟

– عشرون عامًا قريبًا.

– هل هو هنا؟

– إنّه في غرفته، لكن...

– أريد أن أتحدّث معه. على الفور.

أطلقت تنهيدةً ثانيةً طويلةً جدًّا.

– قبل أن تستجوب رومويالد، دعني أوضح لك الأمور.

بدت كارين لوبلان مُرهقة. كانت تقاسي جهدًا كبيرًا مع كلّ كلمة. جرّت نفسها إلى المطبخ وشغّلت الغلّاية. تبعتها لويز مع تايفر. كان الشرطيّ على وشك المتابعة بسؤال عندما أسكتتهُ لويز بنظرة مُعبّرة.

– تريدان الشاي؟

– بكلّ سرور، أجابت الفتاة.

– وحضرتكَ؟

غمغم تايفر إجابةً غير مسموعةٍ اعتبرتها كارين لوبلان «نعم»، إذ وضعت ثلاثة فناجين على الطاولة. ثمّ بدأت الكلام ونظرتها مُثبّتة على الماء الذي كان يغلي:

– كان زوجي مُدرّسًا للّغة الفرنسيّة في المنطقة الإداريّة رقم 92. مثل العديد من المعلّمين، عانى من التغييرات في مهنته وإهمال التعليم الوطنيّ. وعلى مدى السنوات العشر الماضية، مشى تائهًا في مسار حياته في حالة من الإرهاق التامّ.

كانت كارين لوبلان تتحدّث بصوتٍ خافتٍ، من دون القدرة على إخفاء غصّتها:

– شعر بأنّه بلا قيمة، وكان دومًا يردّد: «كيف وصل بنا الأمر إلى هذا الحدّ؟» وبعدما كان ملتزمًا جدًّا بالحزب الاشتراكيّ، قطع علاقاته مع أصدقائه السياسيّين السابقين، مذهولًا من التجاوزات التي أقدم عليها اليسار الهويّاتي. شعر بالضياع وعاش بأسفٍ شديد التطوّر المميت لمجتمعا تنا الممزّ قة. لم يـ فهم كيف أ صبح الـ ناس غير قادرين على التحدّث بعضهم مع بعض، والعيش معًا، وإيجاد الحلول للمشاكل المشتركة.

انطفأ ضوء إبريق الشاي. بدأ صبر تايفر ينفد. أخرجت كارين من علبة كرتونيّة ثلاثة أكياس من الموسلين ووزّعتها في الفناجين.

– في كانون الثاني/يناير 2020، صباح يوم الاثنين، أضرم زوجي النار في نفسه في مدرسته بعد مشادّة مع طالب. أثارت القضيّة ضجّة كبيرة. أقدم بعض الدنيئين على تصوير المشهد وبثّه على مواقع التواصل الاجتماعيّ. تلـ ك المأسا ة دمّر ت ابني . ومنـ ذ وفا ة والده ، لـ م يغادر غرفته.

اتّسعت عينا لويز من الدهشة. لم يبدِ تايفر أيّ تأثّر.

– لم يكن ابني يومًا اجتماعيًّا جدًّا. منذ عشر سنوات وهو يقضي أيّامه أمام شاشاته. إنّه موهوب، لكنّ هذا

الهوس جعله يفعل ما لا يُحصى من الحماقات. لعلّك تعرف ذلك مُسبقًا، لكن لديه سجّلًا جنائيًا.

أخفى تايفر دهشته وأومأ برأسه بتراخٍ مدّعيًا الفهم. أوضحت كارين:

– عندما كان في الثالث الثانويّ، اخترق منصّة الويب Parcoursup التي تدير تعيينات الطلّاب بعد البكالوريا، لتمكين فتاة أراد إثارة إعجابها من الحصول على القبول في البرنامج الذي طمحت إلى التخصّص فيه.

سكبت الماء المغليّ فوق أكياس الشاي قبل أن تواصل، مستسلمةً لقدرها:

– وهنا، انتقلنا إلى مرحلة أُخرى. ترك رومويالد المدرسة. لم يعد لديه أصدقاء وانقطعت علاقاته الاجتماعيّة. على مدى العامين الماضيين، أمضى أيّامه مختبئًا في غرفته، نائمًا أو يشاهد المسلسلات ويتصفّح الإنترنت. أحيانًا، لا يفتح حتّى الستائر طوال اليوم. هو قادرٌ على قضاء أسبوعٍ من دون أن يستحمّ، وعلى التبوّل في قنانٍ بلاستيكيّة. يرفض أن يرى طبيبًا نفسيًّا. لم أعد قادرة على التحمّل. أخشى أن يكون هذا الصدع أبديًا وألّا يعود أبدًا إلى الحياة الطبيعيّة.

كانت لويز مأخوذةً بالقصّة، فيما بقي تايفر مُتشكّكًا في صحّتها. قرأ لسنوات مقالات عن «هيكيكوموري»، مجموعة الشباب المنعزلين طوعًا في اليابان. وفي كلّ مرّة كانت الفكرة نفسها تتبادر إلى ذهنه: بعض الأشخاص يحتاج إلى صفعة!

– لِمَ لا تعاقبينه؟ سأل وهو ينفخ في الشاي.

– العنف، دائمًا... تنهّدت كارين لوبلان.

– اطرديه من المنزل، اقطعي عنه المصروف، اغتاظ تايفر. سترين أنّه سيعيد تواصله الاجتماعيّ بسرعة. على أيّ حال، هذه المعلومات لا تعفيه من الاستجواب.

– استجوبه، بالطبع، لكن بلطف. آه، شيء أخير: سترى، رومويالد يكره رجال الشرطة.

.3

دفع تايفر باب وكر مهووس التكنولوجيا كما يدخل المقاتل الجبهة. المفاجأة الأولى: الحجم الكبير للغرفة. كان الشابّ قد استولى على أكبر غرفة في الشقّة. سفينة بمساحة خمسة وعشرين مترًا مربّعًا مع إطلالة جهنّميّة على أسطح المنازل.

المفاجأة الثانية: بنيته الجسديّة. تخيّل تايفر أنّه سيقابل رجلًا بطول لاعب كرة سلّة، لكنّ رومويالد كان ذا بنيةٍ صغيرةٍ ولم يبدُ أبدًا في العشرين من عمره. بقميصه الجينز المفتوح على تي–شيرت تحمل صورة فرقة الروك الأميركيّة فو فايترز، كان أشبه بطالبٍ لحيمٍ وسوقيٍّ في المدرسة الثانويّة. مراهقٌ بعينين مستديرتين مراوغتين، وجهه مُغطّى بالبثور، يرتدي نظّارة طبّية ويعتمر قبّعة بيسبول فوق قصّة شعر دائريّة مضحكة. لحسن الحظ، بدا كأنّه ا غتسل أ خيرًا و لم ت كن ز جاجات ب ولٍ م رميّةً ف ي الأرجاء.

– مرحبًا رومويالد، أنا لويز، قالت الفتاة مُقدّمةً نفسها.

فرك لوبلان عينيه. كان يرتدي صندلًا من دون جوارب، ويجلس خلف ثلاث شاشات كبيرة مُرتّبة في قوس

حول جهاز ماك بوك برو مُغطّى بالملصقات. لعلّه سمع محادثة والدته مع الشرطيّ، لكنّه فوجئ عندما رأى الفتاة.

– وأنا من الشرطة، أعلن تايفر.

تبادل الطفلان النظر، وكلٌّ منهما مفتون بالآخر بعض الشيء. انتهز ماتياس الفرصة للتجوال في الغرفة. على الحائط، بضع ملصقاتٍ مُجدّدةٍ لأفلام يعرفها – «لقاءات قريبة من النوع الثالث»، «روبوكوب» – وغيرها التي لم يسمع بها من قبل – «ذا بريستيج»، «زومبي لاند». كانت الرفوف ملتوية تحت أكوام الكتب: قصص مصوّرة، مانجا، روايات خياليّة علميّة، كتب عن السحر والألاعيب الذهنيّة. يعاني الشرطي رهاب الفوضى، لذلك، ضاقت عليه هذه الغرفة رغم مساحتها. فبدت كما لو مرّ بها إعصار، إذ انتشرت أكوام من الأغراض في كلّ زاوية منها، من غيتار جيبسون فايربيرد إلى مُركّب الصوتيّات رولان جونو مرورًا بتمثال غريندايزر مُتكسّر. من أين حصل هذا المهووس على المال لدفع ثمن كلّ هذه الأغراض؟

– تنبعث من المكان رائحةٌ نتنة! قال وهو يفتح النافذة على مصراعيها.

اجتاح تيّار جليدي الغرفة.

– يا أنتَ، لقد تجمّدنا، تذمّر رومويالد.

– سيفيدك ذلك، أكّد الشرطيّ. سيعمل على تهوية دماغك وهو أمرٌ جيّدٌ للذاكرة، سترى.

اقترب تايفر من الفتى وطوّح قبّعته بعيدًا.

– لا نبقي القبّعة على رأسنا في الداخل يا صاحبي. ألم تتعلّم ذلك في المدرسة؟

– هل أنت مجنون؟ صرخ الصبيّ كما لو كان تلقّى صفعة لتوّه.

نظرت لويز إلى ماتياس بنظرة عتاب، لكنّ تايفر استمرّ في الاستفزاز:

– هل سبق أن رتّبت غرفتكَ؟ سأله مشيرًا إلى العبوات المتراكمة في سلّة المهملات: بونبون، وعلب دجاج كنتاكي، وكباب، وعلب الصودا.

من دون خجل، فتح أدراج المكتب لإلقاء نظرة.

– مهلًا! ليس لك الحقّ في البحث في خصوصيّاتي!

– اخرس، أيّها المعتوه.

بدأ مهووس التكنولوجيا بالصراخ:

– ولكن لماذا جئتَ تستفزّني، أيّها الشرطيّ النتن!

– وما هذا؟ سأل الشرطيّ مشيرًا إلى التلسكوب المُثبّت على حامل ثلاثيّ القوائم أمام النافذة. هل للنظر إلى النجوم أم لاختلاس النظر إلى جيرانك؟

– أنا...

– وهذه المقاطع، أنت من صوّرها، إيه، أيّها المغفّل؟ صرخ وهو يضع هاتفه المحمول أمام عينيه.

حرّر رومويالد لوبلان نفسه من قبضة تايفر، وبعد لحظة طويلة من التفكير، غيّر نبرته واستراتيجيّته جذريًّا ليقرّ بأفعاله من دون أدنى شعورٍ بالندم.

– نعم، هذا أنا، وماذا في ذلك؟ أنا في بيتي، أفعل ما أريد.

– أتعرفها، ستيلا بترينكو؟

– بالتأكيد. منذ أن انتقلنا إلى هنا.

– لماذا احتفظَتْ بهذه المقاطع في منزلها على جهاز يو إس بي؟ هل كنتَ تبتزّها؟

أطلق مهووس التكنولوجيا ضحكةً شرّيرة:

– ها ها! بل العكس صحيح.

– اشرح.

– هي طلبَت منّي تصويرها.

– أنتَ تكذب! زعقت لويز.

لم يكن تايفر متأكّدًا من أنّه فهم قصده.

– ماذا تقول؟

– كانت حيلة أعدّتها لجني المال. رصدت رجالًا متزوّجين، معظمهم من الريفيّين أو معجبين سابقين. كانت تُحضرهم إلى منزلها ثمّ تصرّ على ممارسة الجنس في الصالون.

– وأنت، عبر الشارع، اعتبرتَ نفسكَ ستانلي كوبريك.

– لم يصوّر كوبريك أفلامًا إباحيّة قطّ، لكنّ هذا مغزى الحديث، نعم.

– ثمّ تطلبان منهم المال مقابل عدم نشر المقطع...

استعاد مهووس التكنولوجيا ثقته:

– أرأيت؟ لقد فهمتَ كلّ شيء، يا جدّي.

– هذا تصرّفٌ دنيء، جزم تايفر.

– لكنّه ليس شرّيرًا.

في حالةٍ من الذهول، رمت لويز المزيد من الزيت على النار:

– تصيبني بالغثيان.

– هيّا! لم يمت أحد!

– بلى، بالضبط. ستيلا ماتت.

عاد روموبالد للتربّع على كرسيّه.

– ما علاقة ذلك بموضوعنا؟ لقد تحطّمت بسقوطها من الشرفة.

– قد يكون دفعها أحد، لا؟ سأل تايفر، مشيرًا إلى المشهد البانوراميّ الباريسيّ عبر النافذة. في الليلة التي ماتت فيها، ألم تلاحظ أيّ شيء غريب؟

– لا، سبق أن جاؤوا لاستجوابي من قبل.

– مَن؟

– أنت من يجب أن يعرف، أليس كذلك؟ شرطيّة. من أصل سنغالي، على ما أظنّ. قامت بجولة على سكّان المبنى في اليوم التالي للحادث.

لعلّها الملازم فاتوماتا ديوب من المديريّة الثالثة للشرطة القضائيّة.

اقترب تايفر من النافذة وأشعل سيجارة. أثار هذا الطفل اهتمامه ورسم سلوكه في ذهنه صورة باشا مستلقيًا على عرشه مثل هرٍّ كبير. بفضل شبكة الإنترنت وأجهزة الكمبيوتر الخاصّة به، لم يكن الشابّ مُنقطعًا عن العالم الخارجيّ على الإطلاق، بل كان حابسًا نفسه في ملاذه المريح فقط. أعادته إخفاقات روموبالد إلى طفولته، ولكن بأسلوب الصورة السالبة. مونبلييه، حيّ لا باياد. كم عدد أيّام الأربعاء والسبت والعطلات المدرسيّة التي قضاها في مرافقة والده في الورشات وهو لم يناهز سنّ الرابعة عشرة؟ كم عدد فترات ما بعد الظهر التي عانى فيها تحت أشعّة الشمس الحارقة لجلب بضع عشرات من الفرنكات إلى المنزل؟ ذكريات مؤلمة جعلته يكره التنابل أمثال لوبلان حتّى آخر يومٍ في حياته.

تابعت لويز الحديث:

– قد يكون من بين الرجال الذين ابتززتماهم من أراد الانتقام.

– لا، انسي الأمر، كانوا فلّاحين ولم نطلب منهم سوى مبالغ صغيرة: ألف وخمسمئة، ألفي يورو... وقد دفعوا جميعهم في كلّ مرّة.

– سترسل لي القائمة عبر البريد الإلكتروني، أمر تايفر وهو يدوّن عنوان بريده الإلكتروني على ورقة ملاحظات لاصقة. ماذا كنت تفعل ليلة وفاة ستيلا؟

تنهّد رومويالد وهو يعبث بعلبة سمّاعات الإيربودز:

– سبق أن قلتُ كلّ شيء يا رجل.

– حسنًا، إذن قل ذلك من جديد، أيّها المغفّل.

– كنتُ أشاهد مباراة كرة قدم على شاشة التلفزيون: بلجيكا ضدّ تشيكيا.

– ليست المباراة الأكثر إثارة، أليس كذلك؟

– والدتي بلجيكيّة. لديّ جنسيّة مزدوجة. واللاعبون أقوياء للغاية، الشياطين الحمر.

– هم بارعون، لكنّهم لا يفوزون أبدًا في النهاية، أليس كذلك؟

شعر رومويالد بالإهانة.

– حسنًا، هل أنتَ هنا لتتحدّث عن كرة القدم أم...؟

– في أيّ وقت تنتهي المباراة عادةً؟ أردف الشرطيّ.

العاشرة، الحادية عشرة. ماذا فعلتَ بعد ذلك؟

– لعبتُ على الإنترنت وسمّاعات الرأس تغطّي أُذنيّ إلى أن ظهر رجال الشرطة والإطفاء في الشارع وأحدثوا جلبةً لا تُصدّق.

سحق تايفر عقب سيجارته تحت نعله قبل أن يرميه من النافذة. ماكر، متلاعب، لكن ذكيّ: كان هذا الشابّ قطعةً مهمّة من لعبة الأحجية، لقد شعر بذلك. ليمونة لم يعصرها بعد بما يكفي. ثمّ جاءته فكرة:

– أتعرف هذه الفتاة؟ سأله وهو يوجّه نحوه جهاز الآيفون الذي كانت بطّاريّته على وشك أن تفرغ.

– لا بأس بها، تفاخر رومويالد بعد إلقاء نظرة خاطفة على الشاشة. ما اسمها؟

– أنجيليك شارفيه. هل رأيتها من قبل؟

– كانت هناك في اليوم الذي وصلت فيه خدمة المساعدة الطبّية الطارئة لأخذ الرسّام الذي تُوفّي بسبب الكوفيد، ماركو بانتاني.

– ماركو ساباتيني، صحّحت لويز.

– نعم، هذا هو. تكلّمَتْ لفترة طويلة مع أحد المسعفين الذي كان في حالة مزرية.

الأسلوب المُبهم نفسه في الكلام.

– هل هي من أبلغتهم؟

– هذا ممكن، لا أعرف شيئًا.

– وهل رأيتها مجدّدًا منذ ذلك الحين؟

– أوه نعم، وهو الأمر الأغرب... عادت في الليلة نفسها.

– عادت إلى أين؟

– إلى شقّة الرسّام. جلست على الشرفة وقدّمت لنفسها مشروبًا بكلّ راحة كما لو كانت في المنزل.

شعر تايفر بالارتياب.

– هل أنت متأكّد ممّا تقوله؟

– بل واثق. رأيتُها تجرع الفودكا من الزجاجة.

– لماذا لم تتحدّث مع رجال الشرطة عن ذلك؟

– ليس من شأني.

– ربّما كانت شارفيه حبيبة ساباتيني، خمّنت لويز.

– لا، صدّقيني، لم تكن لديه حبيبة، سخر رومويالد.

– كيف يمكنك أن تكون حازمًا لهذه الدرجة؟

– كان ساباتيني مثليّ الجنس. كان في بعض الأحيان يُحضر الرجال إلى مرسمه وليس فقط ليريهم لوحاته، لكنّني لم أر يومًا فتاة عنده. وليس ذلك بسبب تقاعسي عن المراقبة.

تبادل لويز وتايفر النظرات: هذا لا يتطابق مع ما قاله برنارد بينديك. من المؤكّد أنّ صاحب الغاليري لم يكن واضحًا. كان هو الشخص الذي عليهما استجوابه من جديد الآن.

– حسنًا، جدّي، هل أنا رهن الاعتقال؟ سأل مهووس التكنولوجيا بنبرة مازحة.

تنهّد تايفر.

– لا أتعاطف مع أمثالك من الحمقى. تموت أمّك من القلق بسبب سلوكك. عليك أن تخجل من العذاب الذي تُلحقه بها. أنت تقتلها ببطء بدلًا من حمايتها.

– حسنًا، أيّها العجوز! لم تعد المرأة تريد أن يحميها أحد. أهلًا بك في عام 2022!

– لا تعبث معي، أيّها الأحمق.

– وإلّا؟

– أفجّر رأسك.

– ها ها! ستُنحّى قبل نهاية اليوم.

لامس تايفر بجبينه جبين الشاب.

– لم أعد شرطيًّا منذ سنوات، أيّها الوغد. وحده معتوهٌ مثلك يصدّق ذلك. يمكنني أن أحطّم عظامك متى شئتُ.

– بوو، لقد أرعبتني.

تدخّلت لويز مع تصاعد حدّة اللهجة.

– هيّا، تعال ماتياس، لنخرج.

لكنّ تايفر أمسك المهووس من ياقة قميصه.

– زومبي فاشل! صرخ وألقاه إلى الطرف الآخر من الغرفة.

12

بلاس دو ليتوال

«حقيقة الرجل في ما يخفيه».

أندريه مارلو

.1

بداية فترة ما بعد الظهر.

كان من الصعب التعرّف إلى ساحة بلاس دو ليتوال. منذ ثلاثة أسابيع وقوس النصر ملفوفٌ بالقماش الأزرق الفضّي والحبال الحمراء. أدّى هذا التجهيز الفنّي الذي أتى كمشروع ما بعد الوفاة للفنّانَين كريستو وجان كلود إلى تقسيم الباريسيّين، لكنّه أثار فضول الجميع.

قادمةً من شارع فريدلاند، بلغت لويز الدوّار بأسرع ما يُمكن. اخترقت العربة بصعوبة حركة المرور. كانت المستديرة حول قوس النصر من الأخطر في فرنسا باعتبارها صلة وصل بين ما لا يقلّ عن اثني عشر طريقًا رئيسيًّا.

– احذري، قال تايفر. وراءكِ سائقٌ أحمق يلتصق بكِ.

في كلّ مرّة جازفت بالقدوم إلى هنا، كانت لويز تشعر بأنّها تعتلي منصّة الإعدام. لم تكن تجد نفسها أبدًا

في هذا المكان، وكانت تخلط بين أسماء الطرقات: واغرام، هوش، فوش، مارسو... رموز نابليونيّة قديمة جرفتها من ذهنها كما من ذهن العديد من الباريسيين، صور السترات الصفراء التي خرّبت قوس النصر. كان الجرح لا يزال مفتوحًا، لكنّ النصب التذكاريّ استعاد اليوم ألوانه. تموّجت طيّاته المُنوِّمة مع أشعّة شمس الشتاء المُنعكسة على واجهته النسيجيّة. مكتسيًا بثوبٍ جديدٍ من النور، كاد يعطي انطباعًا بأنّه حيّ.

– احترسي من الحافلة، السائق يقود مثل المجنون. غيّري مسارك. أين قلتِ يقطن برنارد بينديك؟

– عند الدائرة 16، شارع كليبر، هذا ما قالته مساعدته، لكنّه قد يكون غادر إلى المطار.

– أسرعي.

– أقود بأقصى سرعة، ماتياس!

تلوّى تايفر في كلّ الاتجاهات، غير قادرٍ على إخفاء نفاد صبره. كانت لويز تستجمع تركيزها. لم تكن القواعد هي نفسها بالنسبة للدوّارات الأخرى. على السيّارة التي دخلت أن تعطي الأولويّة للمركبة التي تدخل. فاجأها إعياء مفاجئ عند مغادرتهما غرفة الشابّ المهووس في شارع بيلشاس. رمشت بعينيها عدّة مرّات. أصابها الحجم العملاق للساحة بالدوار. تكاثر طرق المرور، أبواق التزمير العدائيّة، غياب اللافتات أو العلامات على الأرض...

– انتبهي!

ظهرت درّاجة سكوتر من العدم وقطعت طريقها. قانون الغاب. أُصيبت لويز بالذعر، وارتكبت خطأً برغبتها في اجتياز الشاحنة المُزركشة لبائع زهور من اليمين للخروج بأسرع ما يمكن من التقاطع، لكنّ عربتها انزلقت

على الرصيف وتلقّت صوت بوق طويلًا. تمزّع تايفر غضبًا. خفض نافذته ورفع قبضة مهدّدة باتّجاه سائق الشاحنة.

وفيما راح يقذفه بوابلٍ من الشتائم، فكّرت لويز في كم من الجيّد وجود شخص بجانبنا يدعمنا ويقف في صفّنا حتّى عندما نكون مخطئين. ولم تستطع سوى أن تقدّر له ذلك.

– ها هو، هناك!

– ماذا؟

مثل ناجيَين من سفينةٍ غارقةٍ على قاربٍ متخلخلٍ، نجَوَا من عاصفة ساحة بلاس دو ليتوال. كان شارع كليبر على الجانب الآخر من المظلّة الزجاجيّة الضخمة لفندق بينينسولا.

– ها هو، برنارد بينديك، في السيّارة القديمة! كرّرت لويز.

زمّ ماتياس عينيه. اندفع شخصٌ إلى داخل سيّارة أجرة من شركة «كلوب آفير» فيما حمّل السائق حقيبةً في صندوق السيّارة. سارعت لويز إلى إلصاق عربتها أمام المرسيدس ومنعها من السير.

كان تايفر قد أخذ زمام المبادرة ووضع حول ذراعه شارةً برتقاليّة قديمة تحمل علامة «الشرطة» وجدها هذا الصباح بين أغراضه. طريقة دائمًا ما تثبت نجاحها. في حمّى المعركة، تساوي أهميّة المظاهر أهميّة الواقع. لا حاجة حتّى للبطاقة. يكفي أن يلوّح بمحفظته المفتوحة ويقول بصوتٍ واثقٍ:

– الشرطة، أطفئ المحرّك!

– لكن...

– اخرج من السيارة، سيّد بينديك.

– سأفوّت طائرتي!

– ليس إن أجبت عن أسئلتي بسرعة. الأمر كلّه متروكٌ لك.

.2

جلس صاحب الغاليري على شرفة مقهى صغير مجاور، يلقي نظرات قلقة على ساعة نوتيلوس حول معصمه. أمامه، منذ خمس دقائق، حاول تايفر ولويز كسب الوقت للضغط عليه. كان الشرطيّ قد رفض استجوابه بجوار سيّارة الأجرة وأصرّ على احتساء مشروب.

– سأتّصل بمحاميَّ.

حاول إقناعه بالعدول عن ذلك:

– ستكون أفضل طريقة لتفوّت طائرتك. ولا أعتقد أنّ العديد من الرحلات اليوميّة المباشرة تتّجه إلى سان خوسيه.

– هي الوحيدة، اعترف برنارد بينديك.

– نهاية ديسمبر هي الفترة المُناسبة للذهاب إلى كوستاريكا، صحيح؟ بداية موسم الجفاف، أليس كذلك؟

– حسنًا، هذا يكفي! هل ستسألني أسئلتك اللعينة، نعم أم لا؟

كشف تايفر عن ورقته الأولى بإخراج الظرف الذي يحتوي على عشرة آلاف يورو من جيبه.

– هل يمكنك أن تشرح لنا من أين أتت هذه الأموال؟

مقبوضًا عليه بالجرم المشهود، ابتلع صاحب الغاليري لعابه، غير قادرٍ على إخفاء حرجه.

– هذا... هذا جزء من المبلغ الذي أعطيته لخطيبة ماركو ساباتيني.

– لأيّ سبب؟

– شراء ثلاث لوحات.

– لماذا تقول «جزء»؟

– جاءت لتريني ثلاث لوحات جميلة. عرضتُ عليها شراءها منها مقابل عشرة آلاف يورو لكلٍّ منها.

– الدفع نقدًا، هذه أسهل طريقة لتجنّب دفع الضرائب.

– حسنًا، أنت من فرقة مكافحة الجرائم أم مراقب ماليّ؟

– أبقِ صوتك منخفضًا معي، بينديك.

حوّل صاحب الغاليري نظرته بعيدًا للحظة، عيناه مثبّتتان على الواجهات المقابلة التي كانت غارقة بأشعّة الشمس.

– عندما يتعلّق الأمر بلوحات ماركو، لديّ قائمة انتظار لا تنتهي، واصل قائلًا. كما أنّ شعبيّته ازدادت ثلاث مرّات منذ وفاته. لم أكن لأفوّت فرصة اقتناء أعمالٍ جديدة.

– لمَ الكلّ مفتونٌ بلوحات ساباتيني إلى هذه الدرجة؟

– لأنّ هواة الجمع كالخِراف: يحبّون ما يحبّه الجميع.

– ماذا أيضًا؟

– يرسم ساباتيني دائمًا اللوحة نفسها، لكنّ قلّة من الرسّامين نجحوا مثله في رسم الخوف.

– ممّ كان خائفًا برأيك؟

هزّ بينديك كتفيه.

– من الوحدة، من الموت، من عودة فرانسيس لالان إلى خشبة المسرح... كيف تريدني أن أعرف؟

– والعينان في رسومه، بدون بؤبؤ أو قزحيّة، فارغتان ولامعتان كالفضّة؟

– إنّهما من مادّة الإيريديوم، صحّح صاحب الغاليري. العيون الفارغة ليست جديدة تمامًا في مجال الرسم. من موديلياني إلى شون لورينز، لجأ العديد من الفنّانين إلى هذه الطريقة.

– هل هذه خطيبة ساباتيني؟ سأل الشرطيّ.

أخرج هاتفه ليريه صورة أنجيليك شارفيه، لكنّه لاحظ أنّ البطّاريّة كانت فارغة. فعاد عندئذ إلى الطبعة الورقيّة لصورتها على موقع لينكد إن.

– بالتأكيد، وافق بينديك. فتاة غريبة. مراوغة. من الصعب تصنيفها.

– أتعرف أين هي اليوم؟

اتّسعت عيناه.

– كيف لي أن أعرف؟ التقيتُ بها مرّة واحدة فقط في حياتي.

– لم تكن أنجيليك شارفيه خطيبة ساباتيني أبدًا، أكّد تايفر.

هزّ صاحب الغاليري كتفيه من جديد. فعزّز تايفر ضغطه عليه.

– كان ساباتيني مثليّ الجنس. وأعتقد أنّك تعرف ذلك.

– مهلًا جدّي، نحن في عام 2021! سخر بينديك. لم تعد تُنسب للناس هويّة جنسيّة واحدة.

أنهى فنجان الإسبريسو بجرعة واحدة وبدا أنّه أدرك فجأةً أنّ تايفر لم يكن لديه ذخيرة ضدّه.

– حسنًا، لديّ طائرة للّحاق بها. إذا شئتَ، أرسل لي موظّفي الوزارة في بيرسي للتفتيش الضريبيّ، ولكن، وليبقَ الأمر بيننا، لديّ حدسٌ بأنّك لن تفعل ذلك.

.3

كانت لويز تغمر فنجانها بيديها لتدفئتهما. لم تعد تشعر بالتعب. كانت في حالة توتّر لم تختبرها من قبل. في غضون ساعات قليلة، ظهر في قضيّة وفاة والدتها دليلٌ جديد. مثل المربّعات الملوّنة لمكعّب روبيك، تداخلت معلومات متفاوتة لتجد مكانها في مجموعة متماسكة. بعد أن تبادلت الأفكار مع تايفر، تمكّنا من تصوّر سيناريو الأيّام الأخيرة لستيلا.

جاءت أنجيليك شارفيه، وهي ممرّضة بديلة حامل بطفلها الأوّل، لتغيير ضمادات ستيلا في نهاية الصيف. في 28 أغسطس، صادفت ماركو ساباتيني في وضع صحّي سيّئ يعاني عوارض حادّة لكوفيد -19. أبلغت خدمة المساعدة الطبّية الطارئة ثمّ عادت إلى شقّة الرسّام للاستيلاء على ثلاث لوحات باعتها لبينديك متظاهرةً بأنّها خطيبة ساباتيني. أعطت جزءًا من المال لستيلا ثمّ تبخّرت مع الباقي. عدا أنّه في غضون ذلك، ماتت ستيلا.

كانت القصّة تحوي عدّة ثغرات، طبعًا، لكنّ كلّ الاحتمالات قادت إلى أنجيليك الغامضة، محور هذا اللغز الضبابيّ.

– لدينا دليلٌ حقيقيٌّ! من الضروري إبلاغ زملائك حتى يستجوبوا شارفيه.

لم يكن تايفر متحمّسًا مثلها.

– يمكننا محاولة العثور عليها بأنفسنا.

– وكيف؟ لقد ذهبت.

– أنتِ لا تعرفين كيف تعمل الشرطة. لن يحرّك رجال الشرطة ساكنًا لإيجادها.

– لا أستطيع أن أصدّق ذلك.

– قد يفتحون تحقيقًا إضافيًا بعد العطلة، لكنّ الأمر سيستغرق شهورًا. نحن في فرنسا، البلد الأكثر بيروقراطيّةً وكافكاوية في العالم.

– إن كنتَ لا تريد أن تأتي معي إلى الشرطة، فسأذهب وحدي، قرّرَت وهي تنهض من مقعدها.

أطلق تايفر تنهيدةً طويلة.

– إنّها مضيعة للوقت، لكنّني على استعداد لمرافقتكِ لتجنيبكِ الانتظار إلى الأبد.

ترك ورقة نقديّة من فئة عشرة يورو على الطاولة قبل الانضمام إلى لويز في الخارج.

في الشارع، كانت الشمس تتلألأ بين أغصان أشجار الدلب. بقي ماتياس بلا حراك للحظة، محوّلًا وجهه نحو أشعّة الشمس، بحثًا عن التجدّد، كما لو أنّ جسمه يعمل على الطاقة الشمسيّة.

– هل أتولّى أنا القيادة؟ سأل مشيرًا إلى السيّارة الصغيرة.

– لا، سأكون بخير.

استقرّ معوجًّا في مقعد الراكب مع ذاك الانطباع الدائم المزعج بالجلوس في لعبة أطفال.

– أسهل طريقة هي الذهاب إلى مركز الشرطة في الدائرة 14، ارتأى بعد لحظة من التفكير. يقع في المبنى 114، شارع مين.

– هل يمكنكَ إدخال العنوان في الجي بي إس؟ سألت وهي تلصق هاتفها على الزجاج الأماميّ قبل الانطلاق.

امتثل تايفر لطلبها. بينما كانت سيّارتهما تنزل جادّة مارسو، خطرت للشرطيّ فكرة:

– سأتّصل بفاتوماتا ديوب، الملازم من المديريّة الثالثة للشرطة القضائيّة التي تابعت القضيّة، قال وهو يخرج هاتفه. كنتُ قد احتفظت برقمها.

فيما كان الشرطيّ على الهاتف، لاذت لويز بأفكارها. كان جفناها يصارعان لكي لا يطبقا على عينيها إذ تقلّصت الحدقة فيهما. أحسّت بإرهاق من جديد. لم تبتلع شيئًا منذ فطيرة الكريب في اليوم السابق وشعرت بجوعٍ شديدٍ كذلك الذي يُعجّز راكب درّاجة عن صعود جبل فانتو. ندمت لعدم قبول الكرواسون التي جلبها تايفر وبقيت منسيّة في المطبخ. فتّشت في جيب سترتها بحثًا عن أيّ شيء يؤكل فوجدت بسكويت سبيكولوس كان النادل قد قدّمها مع القهوة.

عبرا نهر السين على جسر ألما. تائهةً في تأمّلاتها، حاولت لويز من دون جدوى الربط بين العناصر الأخيرة التي جمعاها. وتساءلت أيضًا عن مغزى هذا البحث عن الحقيقة. هل ستشعر بتحسّن بعد حلّ لغز وفاة والدتها؟

حيّ شان-دو-مارس ثمّ إينفاليد. كانت باريس تسير بوتيرة بطيئة، تطوّقها النيران الأخيرة لعام 2021، العام الكئيب الذي أعقب عام 2020 المروّع. كان السذّج الذين آمنوا بخرافة «العالم ما بعد جائحة كورونا» قد بدأوا

يفهمون أنّ العالم سيبقى يدور كما في السابق. للأسوأ. لم يلح في الأفق سوى التشاؤم والضبابيّة. كان القطار المجنون قد انطلق منذ فترة طويلة. أقنعنا أنفسنا أحيانًا بأنّه يمكننا إيقافه، لكنّ ذلك غير صحيح، وفي أعماقنا، كنّا جميعًا نعرف ذلك. لقد خسرنا الجولة. سيغدو الكوكب أقلّ قابليّة للحياة شيئًا فشيئًا، وستستمرّ مواقع التواصل الاجتماعي بإضعاف الأنظمة الديمقراطيّة، و...

– يا للحظّ! قال تايفر وهو يغلق الخطّ. ديوب ليست في إجازة، لكن إليكِ المزيد: ستبقى في مركز الشرطة طوال فترة ما بعد الظهر وها هي تنتظرنا!

بقيت لويز منزوية داخل شرنقتها، وواصلت دورانها حول التأمّلات في المستقبل والمعلومات المتعلّقة بقضيّتهما. كانت نوعًا ما تتخبّط في كلّ الاتّجاهات، لكن مع انطباعٍ غريب بأنّ الجزء الذي كشفا عنه لم يكن سوى سحابةٍ دخانيّة تخفي حقيقةً وواقعًا لا يزالان بعيدَي المنال.

– العثور على موقف هو الجحيم بذاته هنا، تذمّر تايفر عند وصولهما إلى تقاطع جادّة مونبارناس وشارع مين.

لمعت إشارة إنذار في ذهن لويز. خطرٌ ما لاح في الأفق.

– انعطفي هنا، شارع سيل. في منتصف الشارع طريقٌ مسدودٌ، على اليمين. هناك يركن عادةً أفراد شرطة الحيّ سيّاراتهم.

شغّلت لويز إشارة الانعطاف، وقادت مئة متر قبل أن تدخل شارعًا مرصوفًا يربط بين المنازل الصغيرة التقليديّة للدائرة 14. كانت تناور لركن السيّارة عندما اصطدمت بما

وضعها في حالة إنذار: كانت بطّاريّة هاتف تايفر لا تزال حتمًا فارغة. اشتدّ قلقها. لم يتمكّن الشرطيّ السابق من إجراء تلك المكالمة الهاتفيّة إلى مركز الشرطة. لقد كذب عليها.

لكن لماذا؟

تبادلا نظرة. وفهم أنّها فهمت.

عبرت عصفة من القشعريرة ساقيه، ثمّ صدرها وساعديها فيما أدركت أنّها لا تعرف على الإطلاق الرجل الجالس بجانبها.

– لويز، لويز... لمَ لم تستمعي إليّ؟ تنهّد وهو يهزّ رأسه.

كان عليها أن تجرّب فتح الباب والفرار، لكنّها لم تحاول حتّى. بقيَت مجمّدة ومذهولة من هذا الوضع الأشبه بالكابوس. فكّ تايفر حزام الأمان.

– انظري إلى المأزق الذي تضعيننا فيه. قلت لكِ أن تقلبي الصفحة. قلت لكِ ألّا تلحقي بي.

مسمّرةً في مكانها، شعرت لويز بكتلة تصعد في حنجرتها ثمّ لسعة تحرق معدتها.

– أخبرتكِ أنّني خطير.

أسقط الشرطيّ يده الضخمة عليها وأمسك برقبتها.

لم تدافع حتّى عن نفسها. أرادت أن تموت، هنا، الآن.

– أنتِ لا تتركين لي خيارًا سوى قتلكِ، قال بشيءٍ من الأسف.

13

النظام والفوضى

«(...) خطران يهدّدان العالم باستمرار: النظام والفوضى».

بول فاليري

.1

قبل ثمانية عشر عامًا.

محطّة غار دو نور: شرطيّ من مكافحة الجرائم ينقذ امرأة من اعتداء

6 تشرين الأوّل/أكتوبر 2003

لو باريزيان – مع وكالة الأنباء الفرنسيّة

تدخّل ماتياس تايفر، ضابط شرطة بملابس مدنيّة، حوالي الساعة العاشرة مساء يوم الجمعة، على الخطّ 4 من مترو باريس لحماية امرأة تعرّضت لهجومٍ بالسلاح الأبيض.

كان ثلاثة شبّان في العشرينيّات من العمر قد استقلّوا قطارًا متّجهًا إلى غار دو ليست وحاولوا خلال الرحلة سرقة امرأة جالسة في المقصورة بوضع سكّين على عنقها وآخر بين فخذيها. عندها، اتّجه الرائد في فرقة مكافحة الجرائم، الذي كان عائدًا إلى المنزل بعد خدمته، نحو المهاجمين طالبًا منهم التوقّف عن أفعالهم. وبعدما لكمه أحد الشبّان في صدره، أخرج الضابط بطاقته وكشف عن مهنته. وهي مبادرة أدّت إلى إشعال الفتيل حيث هيّأ أحد الشبّان ذراعه لطعن الشابّة. تدخّل الضابط لحماية المرأة بجسده فتعرّض لطعنات عنيفة في الصدر واليدين والذراعين. عند وصولهم إلى غار دو ليست، غادر المعتدون الثلاثة المقصورة بسرعة. على الرغم من إصاباته، تمكّن ضابط الشرطة من سحب سلاحه، وجرّ نفسه إلى الرصيف وإطلاق النار على أحد المهاجمين الذي أصيب برصاصة في العمود الفقريّ، فيما تمكّن شريكاه من الفرار.

نُقل ماتياس تايفر إلى المستشفى في سان-أنطوان لكنّ حياته لا تبدو في خطر. أمّا الشابّ الذي أصيب بالرصاصة فيُعتقد أنّه قاصر يبلغ من العمر 17 عامًا ومعروف لدى الشرطة بسوابقه، وقد نُقل إلى مستشفى بيشا في حالة خطيرة.

رفض مدير الشرطة، الذي ذهب على الفور إلى مكان الحادث، اتّخاذ موقف قبل صدور نتائج استخراج الصور من كاميرات المراقبة بالفيديو للهيئة المستقلّة للنقل في باريس واستنتاجات التحقيق الداخليّ. وحرصت الشابّة التي تعرّضت للهجوم، السيّدة أليس باكر، على أن تشيد بمُنقذها. «لقد أنقذ الشرطيّ حياتي. لم يتدخّل أحد سواه في القطار. اتّخذ دور الدرع وتلقّى الضربات عنّي. سأكون مُمتنّة له إلى الأبد وآمل ألّا تكون إصاباته خطيرة للغاية».

.2

شجار على الخطّ 4: الشرطيّ رهن التحقيق

10 تشرين الأوّل/أكتوبر 2003

لو باريزيان – مع وكالة الأنباء الفرنسيّة

وُضع ماتياس تايفر، الرائد في فرقة مكافحة الجرائم الذي أنقذ امرأة شابّة من اعتداء في مترو باريس (انظر طبعة 6 أكتوبر)، قيد التحقيق نتيجة «العنف المُتعمّد بواسطة السلاح من قبل شخص في السلطة العامّة». وقد اتُّهم بإطلاق النار على شابّ يبلغ من العمر 17 عامًا، يُدعى إلياس عبّاس، من رواسي-أون-بري، كان قد طعنه في وقت سابق. ووُضع تايفر تحت المراقبة القضائيّة،

مصحوبةً خاصّةً بحظر ممارسة نشاطه كشرطيّ، بحسب ما أعلن مكتب المدّعي العامّ في باريس. وقد أُدخل ضابط الشرطة، الذي أصيب بجروح خطيرة في صدره وأطرافه، إلى مستشفى سان-أنطوان ولم يكن بالإمكان الاستماع إليه في وقت سابق. وأكّد ضابط الشرطة أثناء احتجازه، أنّه أطلق النار «لكفّ أذى أفراد شديدي الخطورة».

وفيما لم يرغب محاميه في التعليق في هذه المرحلة من التحقيق، ردّت نقابات الشرطة بقوّة على التهمة الموجّهة إليه. واعتبر تحالف الشرطة الوطنيّة وشرطة أونسا، في بيانٍ مُشترك، أنّ هذا الاتّهام «شائنٌ وغير مسؤول» محذّرَين: «تعزيز أمن مواطنينا لا يُحقّق بتشويه سمعة الشرطة».

بدورها، قالت أليس باكر، الشابّة التي حماها ماتياس تايفر من الطعنات، إنّها «ساخطة» على هذا القرار. «ذهبتُ إلى المستشفى في أقرب وقت ممكن لإظهار دعمي لهذا الضابط وشكره على إنقاذ حياتي. هذا الرجل بطل. هذا الانقلاب في القيم يثير اشمئزازي إلى أعلى درجة».

القصّة مختلفة من جانب عائلة إلياس عبّاس الذي نُقل أيضًا إلى المستشفى في حالة خطيرة بعد إصابته برصاصة في أسفل الظهر. «إلياس ولدٌ جيّدٌ لم يشكّل أيّ تهديد، وأُطلقت النار عليه مثل الحيوان، من دون أيّ مبرّرٍ حقيقيٍّ»، قالت جوليا

كارل، محامية العائلة التي رفضت إدانة أعمال العنف في المناطق الحضريّة التي تهزّ رواسي-أون-بري منذ عدّة أيّام. هذا وسوف تُنظّم مسيرة احتجاجيّة في نهاية هذا الأسبوع من ساحة دار البلديّة، وقد فُتح صندوق لجمع التبرّعات لدعم عائلة إلياس عبّاس.

14

متلازمة القلب المُنكسر

«ا لوقوع في الحبّ تـعبيرٌ خطيرٌ جدًّا، هذا التعبير الذي يشير إلى شعور نادرًا ما يختبره المرء [...]. هذا الجنون الذي [...] يجمع بين السعادة والخطر في آنٍ واحد».

باتريشيا هايسميث

.1

مُلحق مديريّة الشرطة

2 شباط/فبراير 2007

دكتور بواسو: صباح الخير، رائد تايفر.

ماتياس تايفر: صباح الخير.

دكتور بواسو: تفضّل. أتعرف ما هو دوري؟

تايفر (وهو يجلس على الجانب الآخر من المكتب): حسنًا، أنت اختصاصيّ نفسيّ.

بواسو: أفضّل «طبيب نفسيّ». أنت تعلم أنّ الإجراء الإداريّ لا يزال مستمرًّا في ما يتعلق بإعادتك إلى وظيفتك. مسؤوليّتي اليوم هي إصدار رأي في ما إن كنت مؤهّلًا لاستئناف منصبك في فرقة مكافحة الجرائم. هل تفهم؟

تايفر: حتّى الآن، فهمتُ، نعم.

بواسو: لأكن واضحًا: رأيي استشاريٌّ بحت. لستُ صاحب قرار في أيّ شيء.

نظر ماتياس إلى ساعته وفكّ أزرار سترته الجلديّة من دون خلعها، متأهّبًا للمغادرة إذا ساءت الأمور.

بواسو: قرأتُ ملفّك بعناية. تعود القضيّة الآن إلى أكثر من ثلاث سنوات. ما رؤيتك إليها اليوم؟

تايفر: رؤيتي؟ لقد ثُقب جسمي بستّ طعنات سكّين! أتريد رؤية الندوب؟ أتظنّ أنّك تستطيع تحمّل هذه الرؤية؟

بواسو: لا داعي لأن تكون عدوانيًّا. أنا هنا لأساعدك.

تايفر: لا أظنّ ذلك.

بواسو (و هو يعـ بث بالقلم): ما أحا ول اكتشا فه هو كيف تنظر إلى الضحيّة اليوم.

تايفر: الضحيّة؟ تقصد المرأة التي تعرّضت للاعتداء، أليس باكر؟ لا أعلم. لم أعد أعرف عن أخبارها منذ فترة طويلة.

بواسو: لا، الضحيّة الأخرى.

تايفر: الضحيّة الأخرى هي أنا.

بواسو (وهو يهزّ رأسه): أنا أتحدّث عن الضحيّة التي اعتديتَ عليها.

تايفر: هل أنت جادّ فعلًا؟

بواسو (رأسه في الملفّ): إلياس عبّاس، سبعة عشر عامًا في وقت الحادث...

تايفر: ...وسجلّ جنائيّ لا ينتهي.

بواسو: أُطلِقت النار على الشابّ من سلاح الخدمة الخاصّ بك، ما تسبّب له بإصابة خطيرة في العمود الفقريّ وشلل نصفيّ دائم. بسببك، سيقضي هذا المراهق بقيّة حياته على كرسيّ متحرّك.

تايفر (وهو يكتف ذراعيه): أنت تعكس الأدوار.

بواسو: لا يبدو أنّ مصيره يؤثّر فيك كثيرًا.

تايفر: أقلّ ممّا يؤثّر فيك، هذا أمرٌ مؤكّد.

بواسو: اسمع، أيّها الرائد، قرأتُ تقرير المفتّشيّة العامّة للشرطة الوطنيّة و... كيف أقول ذلك؟ بعض التفاصيل تشغل بالي في هذه القضيّة.

تايفر: مثل ماذا؟

بواسو: نقطة الانطلاق أوّلًا. إنّها ليلة الجمعة. أنهيتَ أسبوع عملك. تتوجّه إلى المنزل، تجاوزَت الساعة العاشرة مساءً. أنت في قطار الأنفاق هذا وتشهد على عمليّة سرقة عاديّة.

تايفر: سرقة عاديّة؟ بواسطة سكّين؟

بواسو: سرقة هاتف محمول. يحصل هذا أكثر من مليون مرّة في السنة. لماذا شعرتَ بأنّك مضطرّ للتدخّل؟

تايفر: إنّها وظيفتي، اللعنة!

بواسو: لم تكن في الخدمة.

تايفر: الشرطيّ دائمًا في الخدمة. ماذا كنت تتوقّع منّي؟ أن أسمح بالاعتداء على هذه المرأة؟

بواسو: لو لم تتدخّل، لما كان هذا الشابّ على كرسيٍّ متحرّك اليوم.

تايفر (دافعًا كرسيّه للنهوض): أتعلم ماذا؟ أعتقد أنّنا سنتوقّف عند هذا الحدّ.

بواسو: وأنا أعتقد أنّك أردتَ أن تؤدّي دور البطل.

تايفر: أنت لا تدرك ما تقوله. انظر إلى الصور من كاميرات المراقبة.

بواسو: أوه، أقول ما أقول تحديدًا لأنّني رأيتها. لقد تدخّلتَ لتلقّي الطعنات بدلًا من تلك الشابّة، أليس باكر، أُقرّ بذلك، لكن بعد ذلك...

تايفر: ماذا؟

بواسو: عند وصولهم إلى محطّة غار دو ليست، غادر الشبّان الثلاثة قطار المترو بسرعة. زال الخطر، لكنّك جررتَ نفسكَ إلى الخارج على الرغم من إصاباتك وأطلقتَ عليهم النار.

تايفر: و...؟

بواسو: المشهد مذهل، ألا تعتقد ذلك؟ أنت تنزف، مصابٌ بجروح بالغة، لكنّك تزحف على الأرض وتجد القوّة للنهوض وإطلاق النار على هذا الشابّ في ظهره...

تايفر: أنت وقح فعلًا.

بواسو (بإصرار): إنّها ليلة الجمعة، الرصيف مُزدحم وأنتَ تخاطر بإطلاق النار. غار دو ليست، وقت المغادرة في عطلة نهاية الأسبوع. كان من الممكن أن يسقط أحد المارّة. كنّا على بعد خطوتين من وقوع مذبحة.

تنهّد ماتياس محاولًا الحفاظ على هدوئه، نظر من النافذة وبحث عن زاوية من السماء، عن شعاعٍ من أشعّة الشمس، عن شيء يتشبّث به.

بواسو: سأخبرك بما أعنيه. لديّ ابنة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا. تأخذ المترو عشيّة نهاية كلّ أسبوع

للعودة إلى منزل والدتها. كان من الممكن أن تكون على هذا الرصيف في ذلك اليوم ولم أكن لأرغب في أن تقابل شخصًا مثلك.

تايفر: لقد صددتُ معتديًا. لم أقتل أو أجرح أيّ مسافر. لا تعتمد عليّ للاعتذار عن أيّ شيء. إذا اضطررتُ إلى القيام بذلك مرّة أخرى، فسأتصرّف بالطريقة نفسها تمامًا.

بواسو (رافعًا صوته، لتظهر في لفظه لهجة جنوبيّة-غربيّة خفيفة): إنّه لأمرٌ شائنٌ أن تقول ذلك!

تايفر: إلياس عبّاس، الشخص الذي ما زلتَ تسمّيه الطفل...

بواسو: كان طفلًا، أيّها المغفّل! كان عمره سبعة عشر عامًا!

تايفر: إنّه مجرم. ستعرف أنّه كذلك لو درستَ سجلّه. لحسن الحظّ، فعل آخرون ذلك.

بواسو: لصٌّ صغيرٌ لا يستحقّ أن يُطلق عليه الرصاص في ظهره.

تايفر: عبّاس ليس مجرّد لصّ. قبل ستّة أشهر، غرز سكّينه في مهبل امرأةٍ شابّة في حيّ لا روناديير في رواسي-أون-بري. كم هو لطيفٌ طفلك!

بواسو: لكن عندما أطلقت النار عليه، لم تكن تعرف كلّ ذلك.

تايفر: كنتُ أعرف أنّه اعتدى على امرأة أمامي. كنتُ أعرف أنّه مُسلّحٌ، وفارٌّ وخطيرٌ جدًّا.

بواسو: وهذا يكفي بالنسبة إليك لاتّخاذ قرار قتل رجل؟

تايفر: أتفعل كلّ هذا عن قصد؟

.2

بواسو (موجّهًا قلمه نحو الشرطي): سأطرح عليك السؤال للمرّة الأخيرة وأنصحك بالإجابة عنه من دون أن تتذاكى: لماذا أطلقت النار على إلياس عبّاس؟

تايفر: سبق أن أجبتك. ماذا تنتظر منّي بالضبط؟

بواسو: أن تندم على فعلتك على الأقلّ، فهذا ما سيساعدنا في المضيّ قدمًا. بل سيساعدكَ على المضيّ قدمًا.

تايفر: اذهب إلى الجحيم.

بواسو: سأخبرك أنا عن السبب الذي جعلك تطلق النار على ذلك المراهق. لقد فعلتَ ذلك لأنّك استسلمت لمتلازمة الغطرسة. اعتقدتَ أنّكَ بمثابة حامٍ للمدينة. تشارلز برونسون [1] باريسيّ، سكران برجوليّته. اعتقدتَ نفسكَ خالق الكون، أيّها الرائد تايفر.

تايفر: هل هذا كلّ شيء؟ هل انتهينا؟

بواسو: ليس تمامًا، لا. أودّ أن نتحدّث عن أليس باكر. تدّعي مقالة صحافيّة أنّك أقمتَ علاقةً معها.

تايفر: مقالة مُدوّنةٍ مُتطرفةٍ نُشرت لتشويه سمعتي، تتحكّم فيها عن بعد لجنة دعم إلياس عبّاس ومحاميتها الاجتماعيّة المعتوهة.

بواسو: ربّما، ولكن هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟

تايفر: جاءت أليس باكر لرؤيتي في المستشفى بعد الاعتداء لتشكرني. شعرنا بالانسجام وعشنا قصّة قصيرة جدًّا استمرّت أربعة أو خمسة أسابيع.

بواسو: إذن، استغللت منصبك لإغواء ضحيّة؟

تايفر: هل تريدني أن ألكمك في نصف وجهك؟ كانت أليس باكر ضائعة بقدري بعد صدمة الاعتداء.

بواسو: إذن كنتَ ضائعًا. إنّها كلمة قويّة.

تايفر: قد تكون طبيبًا نفسيًّا، لكن ليس لديكَ أيّ فكرة عمّا يمثّله هذا الدور. نعم، لقد ضعت: جروح الطعنات التي تلقّيتُها في أحشائي كشفَت عن حالة مرضيّة موجودة مسبقًا.

بواسو: وماذا يعني هذا؟

تايفر: عندما نُقلت إلى المستشفى بعد الاعتداء، كشفت صورة الصدر عن انتفاخٍ في قلبي فيما لم يكن في التأمور دم. اتّضح أنّني أعاني اعتلال عضلة القلب الذي من شأنه أن يدمّرني لبقيّة حياتي.

بواسو: في النهاية، لو لم تصادف إلياس عبّاس، ما كنتَ لتكتشف هذا المرض أبدًا في مراحله الأولى...

تايفر: أتظنّ نفسك ذكيًّا؟

بواسو: هذا استنتاج. أفضّل أن أحذّرك، تقريري لن يكون إيجابيًّا.

تايفر: لا شكّ لديّ في ذلك.

تأهّب ليغادر.

تايفر: نسيتُ أن أسألك: ما اسمها؟

بواسو: من هذه؟

تايفر: ابنتك.

بواسو: كونستانس، لكنّني لا أرى ماذا...

تايفر: أعتقد أنّه لو كانت ابنتك هي التي تعرّضت للاعتداء في تلك المقصورة، لكانت سعيدة جدًّا بمصادفة رجلٍ مثلي في طريقها. فكّر في الأمر عندما تكتب تقريرك...

3.

مكتب استشارات الأمراض النفسيّة

ساحة هنري-بيرغسون – الدائرة الثامنة في باريس

6 تشرين الثاني/نوفمبر 2021

الدكتورة آن بارتوليتي: صباح الخير، سيّد تايفر.

الطبيبة النفسيّة شابّة بالكاد تبلغ من العمر ثلاثين عامًا.

ماتياس تايفر: صباح الخير.

بارتوليتي: تفضّل بالجلوس.

تهالك تايفر على الكرسيّ محمومًا، مُرهقًا، بعينَي من فقد عقله. ثقل العالم على كتفيه.

بارتوليتي (وهي تنظر إلى شاشتها): لقد حدّدتَ موعدًا الشهر الماضي وأيضًا في الشهر السابق، لكنّك لم تأتِ.

تايفر: هذا صحيح. المعذرة.

بارتوليتي: لمَ أتيت اليوم إذن؟

تايفر: أظنّ أنّه لم يعد لديّ خيا ر آخر . إمّا هذا أ و الهلاك.

بارتوليتي: لماذا انتظرتَ كلّ هذا الوقت لطلب المساعدة؟

تايفر: فلنكتفِ بالقول إنّ لديّ تجربةً سيّئةً مع الاختصاصيّين النفسيّين.

بارتوليتي: هل قابلتَ الكثير منهم؟

تايفر: اثنين أو ثلاثة، لكنّ هذا كان كافيًا بالنسبة إليّ.

بارتوليتي: فهمتُ: للأسف، الأغبياء كثر في مهنتي.

تايفر: في مهنتي أيضًا.

صمتٌ طويل. أغرق تايفر وجهه بين يديه وتنفّس بصوتٍ عالٍ.

بارتوليتي: أخبرني. ما بك؟

تايفر: أنا... أتألّم. من الصباح إلى الليل.

بارتوليتي: أين؟

تايفر: في كلّ مكان. أنا...

قفز من مكانه ورفع سحّاب سترته.

تايفر: اسمعي، لن ينجح الأمر. لا أستطيع فعل ذلك: الجلوس وإخبارك عن حياتي. لستُ مُستعدًّا.

بارتوليتي: لقد أخبرتني للتوّ أنّه لم يعد لديك خيارٌ آخر. قلتَ: «إمّا هذا أو الهلاك». لذا، من الواضح أنّك جاهز. إن لم تفعل ذلك الآن فلن تفعله أبدًا.

تايفر: لا، لن أكون مستعدًّا أبدًا. فقط أعطيني بعض الأدوية لأتجاوز الأمر. شيئًا للنوم، للنسيان، لإيقاف مفتاح التشغيل. هذا ما أريده. نزع القابس الكهربائيّ. أن أكون بلا حراك، خاملًا، في الظلام.

بارتوليتي: سأصفها لك، لكن يمكننا التحدّث لخمس دقائق، أليس كذلك؟

تايفر: لا ليس هنا، أنا أختنق، أنا...

نهضت آن بارتوليتي من مكتبها للذهاب إلى النافذة. في الأسفل، كانت ساحة مارسيل-بانيول مشمسة لأوّل مرّة منذ عشرة أيّام وبدت تدعوها للنزول.

بارتوليتي: دعنا ننزل إلى الساحة، الطقس جميل.

4.

ساحة مارسيل-بانيول

الدائرة 12، شارع لابورد

جلس تايفر، بين يديه عبوة كوكاكولا زيرو، على كرسيّ فيه مقاعد من الجانبين الأماميّ والخلفيّ، وهو من الكراسيّ القليلة التي نجت من النهب المنظّم للبلديّة. كان قد هدأ. أشعره الهواء النقيّ بالاسترخاء. راح يتذوّق الانعكاسات الضوئيّة التي تتسلّل من بين أشجار الدلب والكستناء، تلك الأشجار لملعب المدرسة. بدأ يحكي:

ماتياس تايفر: حدث لي ذلك في وقتٍ لم أكن أتوقّعه أبدًا. كما سبق أن شرحتُ لكِ، طريقي وعر. بعد قضيّة الخطّ 4 تلك، أُعيد تنصيبي في فرقة مكافحة الجرائم بعد جهدٍ جهيد، ولكن منذ خمس سنوات، عانيتُ قصورًا خطيرًا في القلب وهذه المرّة...

آن بارتوليتي: وجب عليك أن تقبل الخضوع لعمليّة زرع حتّى لا تموت.

تايفر: نعم، ولم يكن العثور على متبرّعٍ مطابقٍ بالإجراء السهل، لكن هنا أيضًا، أفلحتُ في البقاء حيًّا. كانت الأشهر التي أعقبت عمليّة الزرع فظيعة. بسبب حالتي الصحّية، تمكنّوا من تهميشي في فرقة مكافحة الجرائم وفضّلتُ ترك الشرطة بنفسي بدلًا من أن يقوموا هم بتنحيتي. اتّضح لي لاحقًا أنّ هذا القرار الذي تسرّعتُ في اتّخاذه كان صعب التنفيذ. شعرتُ بأنّني فقدتُ مكاني في العالم نوعًا ما...

توقّف تايفر لإشعال سيجارة. فتحت الطبيبة فمها لثنيه عن ذلك ثمّ غيّرَت رأيها.

ماتياس تايفر: تصلّبتُ مكاني. أيّامٌ تلت الأيّام. لم أعد أتلذّذ بشيء. كنت أقرأ قليلًا، أذهب لمشاهدة مباريات باريس-سان-جيرمان، استمتعت بالحياة الثقافيّة في باريس، لكنّ التقاعد في الثانية والأربعين لم يناسبني.

بارتوليتي: وهنا قابلت تلك المرأة...

تايفر: نعم، في القصر الكبير، في الممرّات التي نُظّم فيها المهرجان الدوليّ للفنّ المعاصر. كان اسمها لينا حدّاد. ثمانية وثلاثون عامًا في ذلك الوقت. كانت لبنانيّة أميركيّة عملت في صالة عرض فنّية مقرّها سان-فرانسيسكو. جاءت إلى باريس لحضور المهرجان.

بارتوليتي: هل وقعت في حبّها على الفور؟

تايفر: نعم. ولم يحدث لي ذلك من قبل. كان كلّ شيء جديدًا. أحببت الشخص الذي كنتُه مع لينا. شعرتُ بكياني كلّه يتنفّس من جديد كما لو زُرعت زهورٌ أو نباتاتٌ في جسدي. عندما يحبّكِ أحد، تصبح للحياة نكهة أخرى، تأثيرٌ آخر. عندما يحبّكِ أحد، تفهمين رجعيًّا كلّ ضلالاتك، كلّ الهراء الذي أجبرتكِ الحياة على ابتلاعه.

بارتوليتي: هل كان هذا الحبّ متبادلًا؟

تايفر: في البداية طبعًا! عشنا معًا في باريس لمدّة ثلاثة أشهر. أقرّت لي لينا منذ اليوم الأوّل بأنّها متزوّجة، لكنّ علاقتها مع زوجها كانت قد انتهت تمامًا.

بارتوليتي: وبعدها؟

تايفر: في أحد الأيّام، فجأةً، أخبرتني أنّها لا تستطيع الاستمرار على هذا النحو. كان ذلك في 28 كانون الأوّل/ ديسمبر 2017. عندما استيقظتُ في الصباح، أخبرتني أنّها

لا تزال تحبّ زوجها. أنّها بتصرّفها هذا، لم تكن صادقةً معي أو معه.

بارتوليتي: ألم تتوقّع حدوث ذلك؟ ألم تتنبّه إلى أيّ إشارة؟

تايفر: لعلّي ساذج، لكن لا. في اليوم نفسه، اشترَت تذكرة عودة إلى سان-فرانسيسكو. رافقتُها إلى رواسي مضطرب العقل، ولحظة صعودها إلى الطائرة إلى كاليفورنيا، طلبت منّي شيئًا وجدتُه غير منطقيّ.

بارتوليتي (وهي تقضم أظافرها): وما هو؟

تايفر: أعطتني موعدًا. موعدٌ بعد عام، في اليوم ذاته، في مطعمنا الإيطالي المفضّل. وبين التاريخين، لم يحصل أيّ تواصل بيننا: لا اتّصالات، لا بريد إلكتروني، لا رسائل نصّيّة.

توقّف الشرطيّ ووجّه نظره نحو طائرَي شحرور يتعاركان على العشب في أسفل شجرة قيقب فضّية اللون.

تايفر: أوقعني هذا الانفصال في فجوةٍ مظلمة. لقد فقدتُ مكاني في العالم. فقدتُ النظرة التي أعطتني، لأوّل مرّة في حياتي، صورةً عنّي كنتُ في سلامٍ معها.

بارتوليتي: والموعد؟

تايفر: ذهبتُ إلى هناك في السنة الأولى. في 28 ديسمبر 2018، كانت لينا تنتظرني على طاولتنا في مطعمنا «نوميرو 6». استعدتُ الأمل. قضينا يومين معًا، ولكن مرّة أخرى، غادرَت مؤكّدةً لي أنّها، حتّى وفاتها، ستعود إلى باريس كلّ 28 ديسمبر.

بارتوليتي: هذا صعب، لكنّها لم تغلق قناة التواصل. حافظَت على تواصلٍ ضعيفٍ، هذا واضح، ولكنّه حقيقيّ.

تايفر: في ديسمبر 2019، لم تكن لديّ القوّة للذهاب إلى المطعم. في اليوم السابق، كتبتُ لها رسالة تركتُها مع النادل شرحتُ فيها أنّني لا أريد أن أعيش هذا الموقف بعد الآن وأنّني لن آتي إلى الموعد مجدّدًا.

بارتوليتي: هل التزمتَ بكلمتِك؟

تايفر: في العام الماضي، لم يكن الأمر مطروحًا، لأنّ المطاعم كانت مغلقة بسبب حظر التجوال.

بارتوليتي: وهذا العام؟

تايفر: لا، لا أريد ذلك بعد الآن. أواجه صعوبةً كبيرةً في استعادة توازني. أودُّ لو أقطع رأسي لاستخراج ذكرى لينا من عقلي.

بارتوليتي: لا أنصحك بذلك، سيؤلمك كثيرًا.

لم يتمكّن تايفر من إخفاء ابتسامته، فيما كان برج جرس الكنيسة القريبة يدقّ الساعة الرابعة كاتمًا الصوت الهادئ للنافورة.

بارتوليتي: اسمع ماتياس، ما يحدث لك هو ما يحدث في لعبة الحبّ منذ فجر التاريخ. يمنحكَ الحبّ كلّ شيء، ويمكنه أن يأخذ منكَ كلّ شيء. هذا ما نعرّض أنفسنا له عندما نجازف ونحبّ.

تايفر: وأنتِ ستتقاضين منّي مئة يورو لتخبريني أنّ الحبّ لعبةٌ قاسية؟

بارتوليتي: لا، سأتقاضى منك مئتي يورو لأخبركَ أنّني أعرف أنّك تخفي شيئًا آخر.

تايفر: شيءٌ آخر؟

بارتوليتي: شيء آخر يفترسك. شيء آخر لا تريد التحدّث عنه ويفسّر حالتك.

تايفر: أتعلمين ماذا، أيّتها الدكتورة؟ سنتوقّف عند هذا الحدّ اليوم.

---

[1]ممثّل أميركي عُرف بأدوار «الفتوّة» حيث كانت معظم أدواره إمّا دور محقّق بوليسيّ أو راعي بقر أو جنديّ أو ملاكم أو رجل المافيا.

15

الرجل ذو المعطف الأحمر

«عاد برفقة رجلٍ مُقنّعٍ يغطّي
جسده معطفٌ أحمر كبيرٌ. تبادل
اللورد دو وينتر والفرسان الثلاثة
النظرات الحائرة. لم يستطع أيٌّ
منهم الإجابة عن تساؤلات
الآخرين، لأنّهم كانوا يجهلون
جميعًا من كان هذا الرجل».

ألكسندر دوما

.1

عندما استعادت لويز وعيها، كانت مربوطةً من رأسها إلى أخمص قدميها، جالسةً على كرسيٍّ معدنيٍّ في صالون ماتياس تايفر. لم تكن الغرفة مُدفّأة وكان الجوّ باردًا جدًّا على الرغم من خيوط شمس الشتاء التي تسلّلت إلى الغرفة في وقتٍ متأخّرٍ من بعد الظهر. استغرق الأمر دقائق عدّة لكي تخرج الفتاة كليًّا من الضباب. كان قلبها ينبض بشدّة. شعرت بأنّ الجزء الخلفيّ من جمجمتها على وشك

الانفجار. كان ثمّة حريقٌ يسري على طول أسفل رقبتها ومنعتها قطعة قماش مغروزة في فمها من الصراخ والتنفّس بشكل طبيعيّ.

كابوسٌ حقيقيّ.

كان كاحلا لويز مُكبّلَين وكلتا يديها مُلصقتَين بظهرها إذ حوصرتا بربطة كابل من النايلون. وما إن أدركَت تمامًا خطورة الموقف حتّى تسارعت نبضات قلبها أكثر فأكثر. ارتعد جسدها وذرفَت عيناها. أحسَّت بنبضٍ قويٍّ عند صدغيها. من كان هذا الرجل؟ ما هذه المصيبة التي أوقعَت نفسها فيها؟ كانت لا تزال على قيد الحياة، لكن لِكم من الوقت؟

كانت ركبتاها تصطدمان الواحدة بالأُخرى. حاولت الالتفاف على نفسها، لكنّ الأربطة أعاقت أيّ حركة. في تلك اللحظة، سمعَت صوت خطًى تقترب وظهرَت قامة تايفر الضخمة أمامها. مع مسدّسه في اليد اليمنى.

لم يكن بالمظهر الذي عرفَته به. شعره منكوش، عيناه غائرتان، وجه أسود. حاولَت أن تجعله يبادلها النظرات، لكنّ الشرطي كان قد أصبح غريبًا عنها.

لقّم تايفر مسدّسه نصف الأوتوماتيكيّ ووجّه فوهته إلى جبين الفتاة. مرعوبةً، شعرت لويز بضيق في التنفّس. لم يعد دماغها قادرًا على النظر إلى الوضع بموضوعيّة. أرادت أن تصرخ، لكنّ صرخاتها بقيت عالقة في حلقها. لا يُعقل أن تموت هكذا! بدون تفسير، بدون فهم أيّ شيء عمّا يحدث لها، بدون معرفة سبب وجودها هنا...

2.

واضعًا إصبعه على الزناد، كان ماتياس تايفر يفقد تركيزه. اللعنة.

كان قد توقّع حدوث ذلك. منذ اللحظة الأولى، قال لنفسه إنّ هذه الفتاة ستجلب له المتاعب. منذ الكلمات الأولى، زعزعت لويز كولانج استقراره. بإجاباتها، بعزمها، ببريق الذكاء الذي قرأه في عينيها. لماذا انتهك قواعد الحيطة كافّة، وسمح لها بدخول حياته؟

لماذا توقّف عن توخّي الحذر بهذه السهولة؟

ربّما لأنّها لم تترك لي خيارًا آخر.

ثبّت عينيه في عينيها. قرأ فيهما الذعر والرعب والحيرة. لكن ما عساه يفعل الآن بعدما عبر نقطة اللاعودة؟ الآن بعدما انعدم الأمل في أن تتحسّن الأمور. الآن بعدما بقيت الحلول السيّئة وحدها المطروحة. خفض السيج سوير في يده والقماش عن فم لويز.

سأمنح نفسي المزيد من الوقت.

سأؤجّل موعد النهاية.

سأتّخذ الحلّ الذي يلجأ إليه الجبناء...

كما توقّع، بدأت الفتاة بالصراخ فشجّعها قائلًا:

– هيّا يا صغيرتي، أرضي نفسك، أريحيها.

صرخة أوّليّة طويلة لطرد خوفها، لدرء هبّة الموت التي اقتربَت منها.

– لكن أُفضّل أن أحذّرك الآن، بفضل الزجاج المزدوج، يمكنكِ الصراخ قدر ما تشائين، لن يسمعكِ أحد.

بعد الصراخ، صمتٌ قلقٌ. ثمّ السؤال:

– لماذا...؟ لماذا تفعل هذا؟

– كم مرّة قلت لكِ أن تتركيني وشأني؟ عوى قائلًا.

– ...

– كم مرّة قلتُ لكِ إنّني لستُ شخصًا جيّدًا؟

راح تايفر يحوم، بعدوانيّة متزايدة، في محيطٍ صغيرٍ أمام الكرسيّ حيث كانت لويز مُقيّدة.

– ألم أخبركِ أنّكِ في خطر إذا بقيتِ معي؟

– ...

ضرب الشرطيّ السابق الطاولة بقبضته وهو يصرخ:

– أجيبيني! هل أخبرتكِ بذلك أم لا؟

– نعم، اعترفَت لويز، لكن...

– لا يوجد «لكن»، لقد حذّرتكِ.

كان حلقها جافًّا، وحتّى بدون الكمامة، ما زالت تشعر بالاختناق. سالت قطراتٌ من العرق من مؤخّرة رقبتها حتّى أسفل عمودها الفقري.

– أردتُ أن أجد قاتل أمّي. لديّ الحق في معرفة كيف ماتت.

– اخرسي.

– من أنتَ، تايفر؟ من أنتَ حقًّا؟

شعرت لويز بأنّ المعتدي عليها قد يفقد أعصابه في أيّ وقت. كان مجال تحرّكه ضيّقًا. عليها أن تستعيد رباطة جأشها، وتضبط تنفّسها، مع المجازفة بالتقدّم.

– ماذا حدث، ماتياس؟ لماذا تفعل هذا بي؟ اشرح لي!

– ما من شيء لشرحه.

– هذه ليست إجابة، تعلم ذلك جيّدًا. لم أفعل أيّ شيء لأستحقّ رصاصة في رأسي.

– كنتِ فضوليّةً جدًّا.

– هذا ليس جوابًا. أنا أطالبكَ بالحقيقة.

– اللعنة، لا يمكنكِ أن تطالبيني بشيء! أنتِ طفلةٌ تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا يجب أن تكون في غرفتِها، في منزل والديها، تدرس لامتحاناتها!

– حلّ وثاقي! حلّ وثاقي، ماتياس!

– اصمتي!

– أتحسَب أنّك قويٌّ جدًّا لأنّك تحمل مسدّسًا؟

– هذا يساعد، نعم.

لعبَت لويز ورقتَها الرابحة.

– حرّرني إن كنتَ تريد منّي أن أخبرَك عمّا اكتشفتُه عن المرأة التي تعتقد أنّها لينا حدّاد.

لينا حدّاد؟

سكوتٌ تامّ. اعتقد تايفر في البداية أنّه أساء الفهم، ثمّ قطّب حاجبيه. هذا ما كان ينقصه الآن. لماذا دخلت المرأة اللبنانيّة فجأة في المحادثة؟ استغرق الأمر منه وقتًا طويلًا للعودة إلى الواقع.

– قلتِ لي إنّها لم تأتِ إلى المطعم.

– حسنًا، لقد كذبتُ عليك. كما كذبتَ أنتَ عليّ.

– إن كنتِ تعتقدين أنّني سأقع في فخّكِ الرخيص!

– هذا ليس فخًّا. بالمناسبة، لينا حدّاد ليس حتّى اسمها الحقيقيّ. هي ليست أميركيّة، ولا تعيش في سان-فرانسيسكو. لكنّ هذا التفصيل فاتك أيضًا. لم تكن شرطيًّا جيّدًا. لا عجب أنّ فرقة مكافحة الجرائم قد استبعدتك.

شعر تايفر بطبلة أذنه تطنّ وحموضة رهيبة تحرق معدته.

– قولي لي ما عرفتِه.

– ليس قبل أن تفكّ وثاقي.

لا يحبّ تايفر تلقّي الأوامر. مرّةً أخرى، وجّه مسدّسه باتّجاه الشابّة.

– لن أكرّرَ ما أمرتُكِ به.

لكنّها هذه المرّة تحدّته بنظراتها.

– لن نتظاهر بأنّكَ ستطلق النار ماتياس.

كان يغلي من الغضب ويتنفّس بصخبٍ، باذلًا جهودًا خارقة لاحتواء سخطه.

– كنتَ فعلتَ ذلك بالفعل لو كانت لديك النيّة.

– قولي لي ما تعرفينه! أصرّ وهو يضرب جبين لويز بفوهة المسدّس.

لكنّ لويز بقيَت باردة، وشعر تايفر بكلّ طاقته تنهار. كانَت على حقّ، لن يقتلها. لقد سئم من كلّ هذا. فجأةً، مستنزفًا كلّ غضبه، حرّرها من قيودها من دو ن أن ينظر إليها.

– تكلّمي الآن!

– أنتَ أوّلًا. لماذا أردتَ منعي من الذهاب إلى الشرطة؟ سألَت وهي تفرك معصميها من الألم.

– ليس لديكِ أيّ فكرة عمّا تعرّضين نفسك له، أيّتها الصغيرة.

دفعَت لويز شعرها المتعرّق إلى الخلف.

– قبل دقيقتين أردتَ أن تطلق رصاصة في رأسي. لا أرى حقًّا ما أتخوّف منه أسوأ من ذلك!

– في يومٍ من الأيّام قد تتوسّلين إلى أحد لإنهاء حياتكِ برصاصة في رأسكِ.

إذ أنهكه التعب، استسلم تايفر. تريد أن تعرف... حسنًا، فليكن...

إلّا أنّه هو نفسه لم يكن يعرف من أين يبدأ.

.3

كان النهار في آخره. انعكاس غروب الشمس على الألواح المشمّعة لأرضيّة الباركيه ألبس الصالون ثوبًا ذهبيًّا زاد من سحر الغرفة. كان تايفر قد ارتمى على كرسيّه ويشبون القديم، وهو الكرسيّ الوحيد الذي لم يؤلم ظهره كثيرًا، وبدأ الكشف عن سرّه.

– قبل بضع سنوات، بعد عمليّة زرع القلب، جرى تهميشي في وظيفتي وتركتُ الشرطة في نهاية المطاف. كنتُ في الثانية والأربعين من عمري وكان جسدي في حالةٍ يُرثى لها. بين ليلةٍ وضحاها، وجدتُ نفسي من دون وظيفة، من دون عائلة أو علاقات اجتماعيّة حقيقيّة.

خرجت الكلمات من حلقه بصعوبة، ولكن حتّى بالنسبة إلى رجلٍ صامت بطبعه، عندما تتكسّر الحواجز، يصبح للكلام تأثيرٌ تحريريٌّ قويّ.

– في تلك الفترة تقريبًا، بدأتُ علاقة غراميّة مع لينا حدّاد، لكنّ نهاية هذه القصّة الغراميّة تركتني حائرًا. لم أكن بخيرٍ أبدًا. لم أكن لأشكّ يومًا في أنّ من الممكن للمرء أن يقع في مثل هذه الهاوية من الوحدة.

ظهر تيتوس، كلب البيغل بوجهه المُشرق، ومن دون أن يبالي بالمسرحيّة التي كانت تدور في الصالون، بحث عن نصيبه من المُداعبات متنقّلًا من أحدهما إلى الآخر.

– بينما كنتُ في قاع الهاوية، اتّصل بي رجلٌ كان مدرّبي أثناء خدمتي العسكريّة في روشفور. اسمه هنري فولبين، لكنّ لقبه صار «الرجل ذو المعطف الأحمر».

– الرجل ذو المعطف الأحمر؟

– بالإشارة إلى شخصيّة الجلّاد في «الفرسان الثلاثة».

التمعت ذكرى في ذهن لويز.

– عندما رافقتكَ إلى دولاب الهواء الكبير في ساحة كونكورد، رأيتكَ تتحدّث مع رجل يرتدي معطفًا أحمر!

– نعم. هو. كان هنري فولبين قد ترك الجيش. كان يعرف كلّ شيء عن مسيرتي المهنيّة وحياتي واعتبرني موضع ثقة بما يكفي ليخبرني قصّة مجموعة إيريديوم.

متشبّثةً بكوب من الماء في يديها، جلست لويز على زاوية من الطاولة المُنخفضة، بجانب اللولبَين البرونزيَّين المتشابكَين لبرنار فينيت.

– منذ البداية، في هذه القصّة جانبٌ غريبٌ يفوتكِ، كشف تايفر. شيءٌ يشبه أسطورةً حضريّةً أو خرافةً تُشعر المتآمرين بقلقٍ مفرطٍ في الساحات.

– مجموعة إيريديوم؟

– نعم. إنّها مجموعة من مئة عائلة أوروبيّة وأميركيّة كبرى قرّ رت، عند ما أُت يحت لها الف ـرصة، في أوا ئل التسعينيّات، عدم تسوية قضاياها الحسّاسة أمام العدالة العامّة.

– ما الذي حفّزهم على ذلك؟

– وجد بعضهم أنّ العدالة متساهلة وغير فعّالة، تستشري فيها أيديولوجيّة اليسار المتطرّف وثقافة الأعذار. ووجدها آخرون تدخّليّة للغاية وخاضعة للإعلام.

رمشت لويز مرّات عدّة، تائهةً بعض الشيء. كانت تفسيرات الشرطيّ تتّخذ اتّجاهًا مربكًا، على بعد ألف ميل من التحقيق في وفاة والدتها. تابع تايفر:

– بُنيت رغبتهم في الانفصال عن القضاء حول فكرة محكمة قضايا الشرف. هل يعني لكِ التعبير شيئًا؟

فركت جفنيها كما لو كانت تناشد ذاكرتها، لكن لا شيء.

– ليس تمامًا.

أخرج تايفر ولّاعة وعلبة سجائر من جيب قميصه وأشعل واحدة.

– كانت محكمة قضايا الشرف هيئة قضائيّة استثنائيّة أنشأها هنري الرابع في فرنسا في أوائل القرن السابع عشر. في ذلك الوقت، كان الهدف منها منع المبارزات التي تسبّبت بوقوع العديد من الضحايا بين الأرستقراطيّين.

نفخ سحابة ضخمة من الدخان، وتجهّم كما لو أنّ التبغ أحرق حلقه.

– لم يكن من الممكن ضبط المحكمة إلّا من قبل النبلاء لتسوية كلّ النزاعات المُتعلّقة بالشرف.

– من كان يُصدر هذه الأحكام آنذاك؟

– مارشالات فرنسا، العسكريّون ذوو الرتب العالية والذين ينتمون بمعظمهم إلى العائلات الأرستقراطيّة الكبيرة.

بعد لحظة من التفكير، قالت لويز مفترضة:

– هل هذا هو المبدأ الذي أعادت مئة عائلة تبنّيه؟ تقصد أنّ لديهم اليوم محكمةً خاصّةً يمكنهم اللجوء إليها عندما يشعرون بأنّ شرفهم قد انتُهك؟

– تمامًا.

زمّ تايفر عينيه. كان في ضوء ما بعد الظهر شيءٌ من السحر الباهر. جعل الخطوط المنحنية للمنحوتة البرونزيّة تتلألأ ورسم نفقًا من النور المُنوّم. وكرٌ من ذهب وعسل.

– أحكام المحكمة سريعة وغير قابلة للطعن وخاضعة للتنفيذ الفوريّ، أوضح قائلًا.

– لكن من ينفّذها؟ الرجل ذو المعطف الأحمر؟

– هنري فولبين هو في الواقع الجناح المسلّح لمجموعة إيريديوم. في بعض الأحيان ينفّذ الأحكام بنفسه، لكنّه في كثير من الأحيان يستعين بعددٍ صغيرٍ من الأتباع الذين يثق بهم تمامًا.

– وأنتَ أحد هؤلاء المنفّذين، ماتياس، أليس كذلك؟ هل أنت قاتل؟

كان وقع هذا المصطلح الأخير في أذنيه أشبه بصفعة على وجهه.

– لقد قبلتُ بعض هذه العقود. اعترف كما لو كان متأسّفًا. من ناحية، لأنّني لم أكترث لشيء وخاصّة الأخلا ق، ومن ناحية أخرى، لأنّ الأجر كان جيّدًا جدًّا. هو المبدأ نفسه في كلّ مرّة: تتلقّين اسمًا وكنية وصورة. ثمّ تتدبّرين أمركِ. لديكِ أسبوع للقيام بهذه المهمّة والتخلّص من المستهدف. يحصل كلّ شيء شفهيًّا في موعد واحد. على الطريقة القديمة: لا آثار، لا هاتف، لا إنترنت، لا تفسير. أنتِ لا تعرفين أسباب الإدانة ولا الوسطاء.

– في ذلك اليوم، في كونكورد، طلب منك الرجل ذو المعطف الأحمر التخلّص من شخصٍ ما، أليس كذلك؟

أومأ برأسه.

– أنا؟

– لا.

– إذن من؟

– أنجيليك شارفيه.

– لماذا؟

عبس تايفر.

– لقد فكّرتُ في الأمر كثيرًا منذ ذلك الحين. أعتقد أنّ والدَي ساباتيني جزءٌ من العائلات المئة وأنّ أنجيليك

حاولت أن تحتال عليهما بطريقةٍ أو بأخرى. من المحتمل أنّ والدتكِ، التي كانت دائمًا بالمرصاد وتبحث عن المال السهل، فهمَت ذلك وحاولت ابتزازها. فتخلّصت منها أنجيليك.

تركَت لويز صمتًا طويلًا يمرّ.

لأوّل مرّة، تصوّرت رعب المشهد. الممرّضة ترمي ستيلا من فوق الدرابزين. الوحشيّة في موت والدتها. وكان هذا لا يُحتمل، خنجرٌ في جسدها.

– سأساعدكَ في العثور على أنجيليك شارفيه، أكّدت له.

صمتٌ جديد.

– سوف أساعدكَ في العثور عليها. وأنا من سيقتلها.

نهضَت من وراء الطاولة وبدت حازمة. هدّأها تايفر في حماستها.

– عليكِ أن تنسي هذه القصّة. هذه أمورٌ تفوق قدرتكِ، وقدرتي أيضًا. أنتِ لستِ...

أدار رأسه ليبحث عنها، لأنّها خرجت من مجال رؤيته. عندما ظهرَت من جديد، كانت تمسك بمنحوتة فينيت البرونزيّة.

رأى تايفر التمثال يرتطم بوجهه بسرعة تفوق سرعة الصوت. لم يتسنَّ له الوقت حتّى ليضع يديه أمامه لحماية نفسه.

16

ليلة الروح المُظلمة

«لدينا رفيق يلازمنا طوال الوقت،
هو نفسنا: علينا أن نحرص على أن
يكون ر فيقًا ود ودًا . فمن يحتق ر
نفسه فلن يذوق طعم السعادة
أبدًا».

جان جيونو

.1

اللّعنة...

مثل مبتدئٍ.

لقد خُدع تايفر مثل جنديّ مبتدئ. كاد التمثال البرونزيّ الذي تلقّاه في وجهه يفقأ عينه. تركته الضربة مترنّحًا لفترة طويلة. استغلّت العاهرة الصغيرة بدورها فقدانه الوعي لكي تربطه على الكرسيّ. أطلق صرخةً من الغضب وحاول بكلّ قواه أن يتخلّص من الأربطة. لكنّ لويز كانت قد شدّتها إلى أقصى حدّ وكانت تعرف كيف تربط عقدة مشدودة.

كما تدين تُدان.

يا للعار.

كان قوس جبينه ينزّ دمًا، وشعر بخطوط خلايا الدم المتخثّر تتشقّق على وجهه. منذ متى وهو فاقد للوعي؟ كان الظلام حالكًا، لكن في الشتاء لم يكن هذا كافيًا لتحديد الوقت من النهار. سمع نباح تيتوس من بعيد. كانت لويز قد احتجزت الكلب في الطابق العلوي قبل أن تهرب.

صرخة جديدة مشحونة بالغضب.

الرغبة في تحطيم كلّ شيء.

صبّ تركيزه على تقييم الوضع. كان أسوأ ما يمكن. أين لويز الآن؟ ما الذي تنوي فعله؟ إخطار الشرطة؟ محاولة قتل أنجيليك شارفيه بنفسها؟ فشل تايفر فشلًا مضاعفًا. قد ينفضح أمر محكمة الشرف بسببه. في أحسن الأحوال، سيقضي بقيّة حياته في السجن. في أسوأ الأحوال، سيموت هنا مثل الكلب.

من الضروريّ أن يجرّب شيئًا. ضغط بكلّ وزنه لقلب الكرسيّ الذي انقلب على جانبه. حطّمت الصدمة كتفه. صرّ على أسنانه وحاول الزحف على الأرض، لكنّه لم يستطع الذهاب بعيدًا. لا مجال للاستسلام. في المواقف المستعصية يكون العقل البشري عادةً أكثر إبداعًا. إلّا أنّه هنا...

أغمض عينيه.

على الرغم من كلّ متاعبه، بقيت فكرة حاضرة في رأسه: لقد جاءت لينا إلى الموعد. لم يستطع تصديق ذلك. قد تكون لويز تلاعبَت به. لا تزال معاناة هذا الحبّ الخائب تعذّبه. أسئلة بقيت من دون إجابات واضحة لا

تزال تطارده، كما لو أنّ شيئًا ما فاته. لم يكن يريد أن يبني آمالًا كبيرة، لكن على الأقلّ لم تنسَه لينا ولم تضع حدًّا نهائيًّا لعلاقتهما. في الوقت الحاضر، كانت هذه آخر قشّة يمكنه التشبّث بها.

أمّا الباقي...

فهم فجأة لمَ كانت فخذاه باردتَين. لأنّه تبوّل على نفسه. إذلالٌ لا يمكن محوه جعله ينتحب مثل الطفل. كان سيموت، هنا، غارقًا في بوله وبرازه. يا لها من نهاية دنيئة. بإمكانه أن يتخيّل منذ اللحظة العنوان من ثلاثة أسطر في «لو باريزيان».

ساحة مونسوري:

العثور على شرطيّ سابق مات مُقيّدًا كالسجناء في منزله

سيولّد الخبر ثلاث تغريدات ساخرة تعيد نشره على الشبكات الاجتماعيّة. اللعنة.. . لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا.

صوّب تفكيره من جديد على ستيلا بترينكو. منذ البداية، شعر بنوع من القرابة مع الراقصة. الحياة المتّسمة بالنكسات. الجسد المرقّع. العجز عن تصويب القارب. العملة المعدنيّة التي لا تسقط أبدًا على الجانب الصحيح. الحياة التي تعاند، التي تمزّقكَ وتغرقكَ بتجارب يصعب التغلّب عليها.

جلس للحظة يندب حظّه. لطالما شعر بتحسّنٍ هائل بعد البكاء. انخفضت نسبة القلق والخوف والغضب بدرجاتٍ عدّة. كان النحيب بمثابة ليكسوميل طبيعيّ مئة في المئة. إنّ الربّ يُحسن فعل بعض الأمور.

ثمّ طال الوقت من جديد. من خلال النافذة، رأى الليل يتقدّم من دون أن يعرف ما إن كانت الساعة التاسعة

مساءً أو الثالثة صباحًا. كم من الوقت بقي مبطوحًا هكذا؟ عشرون دقيقة؟ ساعة واحدة؟ أكثر؟ في لحظة معيّنة، استعاد الأمل عندما رأى تيتوس ينبح على الجانب الآخر من النافذة.

– كلبٌ مُطيع! كلبٌ مُطيع! قال وهو يهتزّ حتّى يلاحظ وجوده.

من الواضح أنّ البيغل نجح في الهروب من سجنه. رأى صاحبه وكان هائجًا، ينبح كما لو أنّ حياته تعتمد على ذلك. قد يكون لدى أحد الجيران الفضول للمجيء ورؤية ما يجري.

لكنّ الدقائق مرّت ولم يحدث شيء. لم يكن التراس أو الحديقة مطلّين على الشارع وما من شيء على الجانب الآخر. تلاشى الأمل تقريبًا بالسرعة نفسها التي ظهر بها. استمرّ الوقت في التمدّد، وشردت أفكار تايفر، وفقدت من حدّتها، ومن الممكن حتى أنّه غطّ لبضع دقائق في النوم.

أيقظه أخيرًا ضجيجٌ من سباته. صريرٌ طويلٌ من كرسيٍّ في الحديقة جعله يستعيد رشده. اجتاح ضوء مصباحٍ الشرفة. أحدٌ هنا! صاح تايفر، «ساعدوني»، على أمل أن يُسمع صوته.

اختفى الضوء للحظة وجيزة.

اللعنة.

– النجدة! صرخ مرّة أُخرى.

ظهر ظلٌّ من خلف الزجاج. رجلٌ يرتدي معطفًا بقلنسوة تغطّي وجهه. زمّ تايفر عينيه. لم يستطع تمييز ملامح الزائر. وجّه الرجل مصباحه إلى داخل الصالون. توقّف شعاعٌ من الضوء على وجه الشرطيّ. ثمّ أمسك الظلّ بكرسيّ وألقى به مرّتين على الباب الزجاجيّ. في المحاولة

الثالثة تحطّم الباب. راقب تايفر، بقلق، بينما كانت القامة تقترب.

صديقٌ أم عدوّ؟

ركع الغريب، فميّز تايفر آنذاك وجهه.

كان روموبالد لوبلان.

.2

– عليك أن تشرح لي ما تفعله هنا. ومن الأفضل أن تكون مقنعًا.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا. مرّت عشر دقائق منذ أن حرّر مهووس التكنولوجيا تايفر من قيوده. غيّر الشرطيّ ملابسه. جلس الرجلان إلى منضدة المطبخ. حضّر تايفر القهوة وكان روموبالد ينظّف جبينه بقطعة من القطن وبعض الكحول.

– يمكنك أن تبدأ بشكري، أليس كذلك؟

– سأشكرك بمجرّد أن أفهم البواطن والظواهر للموقف. أنا أتوخّى الحذر مع أمثالك.

– أنا على أيّ حال لا أتبوّل على نفسي.

– لا، لكنّ والدتك أخبرتني أنّك تتبوّل أحيانًا في زجاجات بلاستيكيّة لأنّك تخشى مغادرة غرفتك للذهاب إلى الحمّام. هذا ليس أفضل، أليس كذلك؟

– هذا هراء!

– انتبه أين تضع القطنة، ستحرق عيني!

استعاد تايفر حيويّته. شعر الآن براحة لا حدود لها بقدر ما كان خائفًا. إحساسٌ مُبهجٌ. الأسد العجوز لم يمت بعد. للمرّة الأولى، بدا أنّ الحظّ يبتسم له من خلال السماح

له بجولات إضافيّة. ولكن قبل أن يفرح تمامًا، كان عليه أن يفهم خفايا تدخّل المهووس ويجد لويز كولانج.

– قل لي كيف انتهى بك الأمر هنا يا فتى. ظننتُ أنّك لا تترك عشّك الدافئ أبدًا.

كافح روموبالد للعثور على كلماته:

– الحقيقة أنّ... إنّ هذه الفتاة، هي...، قال مُحاولًا الإجابة وقد تورّد خدّاه.

– أيّ فتاة؟

– الصبيّة الشقراء التي كانت معك عندما أتيتَ لاستجوابي. لويز، ابنة ستيلا بترينكو.

– نعم وما بها؟

أ لصق روموي الد ضم ادة كب يرة على ح اجب تايفر السميك.

– كنتُ قد رأيتُها في السابق من نافذتي عندما جاءت لرؤية والدتها. أُعجبت بها كثيرًا.

تنهّد الشرطيّ. لم ي كن لد يه أ يّ نيّة لل عب دور المرافق لهذا الشابّ الكثير البثور. ألحّ على الفتى لإجباره على تسريع سرده لقصّته:

– وماذا في ذلك؟ كيف يفسّر ذلك وجودك هنا؟ بقّ البحصة، اللعنة!

– حسنًا! حسنًا! لا حاجة للصراخ. هذا الصباح، قبل مغادرتكما مباشرةً، دسستُ إحدى سمّاعتي الإيربودز في حقيبة ظهرها والأُخرى في أحد جيوب سترتها.

– ما هذه؟

– الإيربودس؟ سمّاعات لاسلكيّة.

– لماذا فعلتَ ذلك؟

– لأكون قادرًا على تحديد موقع لويز.

بدأ تايفر يفهم. داخل السمّاعات التي تعمل على البلوتوث وُضع مرشد لاسلكي صغير يسمح لمالكها بالعثور عليها في حال فقدانها.

– ولكن بمَ كنت تفكّر لتقوم بذلك؟ ما الخطب في عقلك؟ لا يمكنك تعقّب الناس من دون موافقتهم. ألا تعرف هذا؟

– لكن بفضل فعلتي استطعتُ تحريرك. بدون مبادرتي، كنتَ ستتعفّن في بولك.

تردّد تايفر في سحق رأس الفتى على الطاولة ثمّ اختار في اللحظات الأخيرة علم التربية:

– هذه ليست حجّة. يجب أن يكون لديك الحدّ الأدنى من المبادئ في الحياة: نهج سلوكيّ تحترمه مهما كان الثمن. أتفهم؟

لكنّ مهووس التكنولوجيا لم يكن يستمع إليه. أخرج جهاز الكمبيوتر الخاص به من حقيبة ظهره، وربطه بهاتفه، وفتح تطبيق تحديد الموقع الجغرافي لشركة أبل.

– عندما بدأت بتتبّع لويز، ظننتُ أنّها تعيش هنا.

– لا، هذا منزلي، صحّح تايفر.

– ولكن بعد فترة، أخذت السمّاعتان اتّجاهَين مختلفَين. بقيت إحداهما هنا بينما تحرّكت الأخرى.

تجهّم تايفر. شعر بأنّ ثمّة خطبًا ما. أدار رأسه نحو الأريكة وحصل على الإجابة التي كان يبحث عنها: في عجلة من أمرها، غادرت لويز من دون أن تأخذ معطفها معها. نهض للإمساك بالسترة ووجد سمّاعة الأذن في أحد الجيوب.

– والأخرى؟ أين ذهبت بعد ذلك؟ سأله.

– أظنّ أنّ لويز سافرَت، أجاب روموبالد.

– سافرَت؟

– في المرّة الأخيرة التي نظرتُ فيها، كان المرشد اللاسلكيّ في محيط مطار أورلي.

– أرني ذلك.

على الشاشة، تجسّدت سمّاعة الأذن اليسرى، التي قد لا تزال في حقيبة لويز، على شكل دائرة صغيرة على خريطة الضواحي الجنوبيّة لباريس. عندما كبّر مهووس التكنولوجيا الصورة، ظهر تشابك محطّات أورلي الأربعة، ولكن عند الاقتراب أكثر يمكن رؤية أنّ الشريحة كانت بالقرب من المطار، وبشكل أكثر دقّة في فندق ميركور.

طمأن هذا الخبر الشرطيّ. لم تكن عمليًّا أيّ طائرة تقلع في منتصف الليل. لا بدّ من أنّ لويز عزمت على المغادرة، لكنّ الأزمة الصحيّة خفّفت برنامج الطيران وعقّدت الرحلات الدوليّة. ولكن إن كانت أخذت غرفة في فندق قريب، فذلك لأنّها عثرت على تذكرة لليوم التالي. للذهاب إلى أين؟

3.

أخرجه المهووس من دوّامة تفكيره.

– أخبرني، ما اسمك؟ سأل رومويالد.

– ماتياس، لكنّ الجميع يناديني تايفر.

– من أين تأتي هذه التسمية؟

– إنّه اسم كتلة صخريّة صغيرة في جبال الألب في إيزير من حيث تنحدر عائلة والدي.

– لماذا كنتَ مقيّدًا بهذا الكرسيّ، ماتياس؟

تأمّل الشرطيّ الفتى بقصّة الشعر الدائريّة الغريبة وملامح الشابّ البتول.

– هذا ليس من شأنك، والقصّة طويلة جدًّا.

– إن لم تعد شرطيًّا، ما وظيفتك؟

– لا أستطيع أن أجيبك، فهذا سيعرّض حياتك للخطر.

– لن تكون خسارة كبيرة.

– سأوقفك عند هذا الحدّ: أنا لستُ والدتك ولن أشعر بالأسى تجاهك. لديّ ما يكفي للقيام به من جانبي.

– أيا تُرى تبحث عن تلميذٍ؟

– تلميذ؟

– نعم، بمثابة متدرّب. يمكنني أن أقدّم لك بعض الخدمات. يمكنني أن أعدّ لك الطعام على سبيل المثال. ألست جائعًا، بالمناسبة؟ أودّ أن أحضّر لنفسي عجّة البيض مع الشوكولاتة الساخنة.

– أنا أيضًا أتضوّر جوعًا. أحتاج إلى التفكير ولا يمكنني فعل ذلك على معدة فارغة. لكنّنا سنتقاسم المهامّ بنحو مختلف. أقوم أنا بإعداد الطعام وتقوم أنت بالبحث على حاسوبك، اتّفقنا؟

لم يجرؤ تايفر على الإفصاح عن ذلك فعلًا، لكنّه كان يرتبك قليلًا أمام التقنيّات الجديدة. كان يحبّ الكتب، أمّا الشاشات والآلات فأقلّ.

بطريقةٍ ما، جدّد روموبالد حماسته.

– من الأفضل أن أحذّرك، وحدها والدتي تعتقد أنّني هاكر عظيم. في الحقيقة، أنا مجرد هاوٍ يخدع نفسه أحيانًا.

كانت صراحة مهووس التكنولوجيا مؤثّرة، لكنّ تايفر كان متأكدًا من أنّ الصبيّ يقلّل من نفسه. أخبره القصّة في الخطوط العريضة. كان هو ولويز يبحثان عن أنجيليك

شارفيه، الممرّضة التي أثارت شكوك رومويالد والتي كان لديهما سبب وجيه للاعتقاد بأنّها قتلت ستيلا بترينكو وربّما ساباتيني. فيما يتحدّث، كسر البيض في وعاء وبدأ بخفقه بالشوكة.

– غادرت شارفيه باريس على عجل منذ ثلاثة أشهر. اعثر لي على كلّ ما يمكنك إيجاده عنها.

سكب الخليط في المقلاة، وأمسك شريحتين من الخبز ووضعهما على البيض. في غضون ذلك، سحب من درج ثلّاجته زجاجة بيرة خفيفة.

– أتعرف ما إن كان لديها حبيب؟ سأل رومويالد وهو يرفع رأسه عن شاشته.

– أنجيليك شارفيه؟ لا أعلم. ابحث في الأمر، قد تكون النتيجة مثيرةً للاهتمام.

– لا، لويز!

– لكن من أين جاءت سيرتها الآن؟ وجّه انتباهك إلى ما طلبته منك. إذا كنت تريد منّي أن أجرّبك، أرني أنّك قادر على التركيز لأكثر من ثلاث دقائق.

أضاف الجبن ولحم الخنزير وقلّب شريحتي الخبز قبل طيّهما الواحدة فوق الأخرى. في انتظار اكتمال الطهو، فتح زجاجته. كان يحبّ البيرة الباردة المُثلّجة وخصّص حجرة خاصّة في ثلّاجته لإبقائها على درجة حرارة قريبة من الصفر. جلب له سحر الرشفة الأولى بعض الراحة، ولكن في بضع ثوانٍ استولت عليه موجة باردة وجعلته يرتجف. وضع يده على جبينه: كان يحترق.

اللعنة، شطيرة البيض...

رفع المقلاة على عجل عن النار ووضع وجبة رومويالد على طبق.

– بالصحّة والعافية، قال وهو يضع أمام الفتى الشطيرة وأدوات المائدة.

– تبدو شهيّة، شكرًا!

– هل أنت متأكّد من أنّك تريد الشوكولاتة الساخنة مع هذه؟

– بيرة مثلك ستفي بالغرض. ألن تأكل شيئًا؟

– لم أعد جائعًا، في النهاية. في وقتٍ لاحق، ربّما.

– تبدو مُرهقًا.

– نعم، أشعر بأنّني خائر القوى منذ هذا الصباح وكان يومي صعبًا. حسنًا، هل وجدتَ شيئًا؟

– ربّما. أعتقد أنّ لويز تنوي الذهاب إلى إيطاليا.

– اشرح.

– وجود أنجيليك شارفيه على الشبكة محدود، ولكن في الإضافات الأخيرة، هذا ما نجده.

أدار روموپالد شاشة الماك بوك مضيفًا:

– أنا متأكّد من أنّ لويز عثرت على هذه المعلومات ممّا جعلها تقرّر حجز تذكرة إلى البندقيّة.

انحنى تايفر وزمّ عينيه لقراءة النصّ.

مؤسّسة أكوا ألتا – تعيين
الفرنسيّة أنجيليك شارفيه
مستشارةً خاصّة
بيان صحافي

اجتمع مجلس إدارة مؤسّسة أكوا ألتا في 9 ديسمبر. وفي هذه المناسبة، عُيّنت السيّدة أنجيليك شارفيه مستشارةً خاصّة أمام رئيسة الشركة بناءً على اقتراح ليساندرو وبيانكا ساباتيني.

ستكون الآنسة شارفيه مسؤولةً عن ضمان تطوير مساحة العرض لمجموعة ساباتيني وتألّقها في البندقيّة.
في بيانٍ صحافي، رحّبت بيانكا ساباتيني بهذا الاختيار: «مجلس الإدارة مقتنع بأنّ حماسة أنجيليك شارفيه وتفانيها سيسمحان لها بتنفيذ هذه المهمّة على أكمل وجه».
أُنشئَت مؤسّسة أكوا ألتا في عام 1984، وهي إحدى أهم المؤسّسات العابرة لجبال الألب. تموّل مشاريع تركّز على الفنون والتعليم وتمكين المرأة. لديها إحدى أهمّ المجموعات الإيطاليّة للفنّ الحديث والمعاصر.
ستتولّى الآنسة شارفيه منصبها في 3 يناير. سيكون المعرض الأوّل تحت إشرافها معرضًا استعاديًّا لعمل ماركو ساباتيني بعد وفاته بعنوان «الشابّ في مواجهة جيش الأموات».

كان روموبالد قد انخرط في اللعبة.

– تملك عائلة ساباتيني منزلًا في البندقيّة، قصر فيزيانو.

دلّك تايفر جفنَيه. كان يجهل الكثير عن منطق الشابّ، لكنّه بمثابة ورقة تعيده إلى اللعبة. نهض ليأخذ محفظته التي تركها على طاولة الكونسول عند المدخل.

– حاول أن تحجز لي تذكرة إلى البندقيّة من أورلي، طلب من روموبالد وهو يسلّمه بطاقته الائتمانيّة. كلّما كان ذلك أبكر كان أفضل.

تصفّح لوبلان الموقع بسرعة البرق.

– وجدتُ رحلة مع شركة إيزي جيت تنطلق الساعة السابعة والربع، لكنّها محجوزة بالكامل.

– الرحلة التالية؟

– لا تزال بعض الأماكن متوفّرة في رحلة الساعة الثامنة وخمس وثلاثين.

– حسنًا، احجز. جِدْ لي مقعدًا مريحًا.

تبعت ذلك فترةٌ طويلة لملء نموذج التتبّع المطلوب عبر الإنترنت بسبب الجائحة. كما تطلّب اختبارًا لتشخيص الكوفيد لا يزيد عن ثمانٍ وأربعين ساعة، لكنّ مهووس التكنولوجيا أكّد أنّ بإمكانه تزويره بسهولة.

– أنت لا تبدو في أفضل حالاتك، مع كلّ الاحترام لك.

– ابذل قصارى جهدك، قال تايفر منزعجًا.

– أودّ أن أتعمّق بالقصّة قليلًا: لدى أنجيليك شارفيه عنوان بريد إلكترونيّ على الحاسب الخادم لمؤسّسة أكوا ألتا. سأحاول الحصول على كلمة المرور الخاصّة بها إن لم يكن الأمر معقّدًا للغاية، لكنّ الأمر سيستغرق وقتًا.

– حسنًا، يا فتى، تصرّف كأنّك في بيتك. ولكونك مساعدي، ستأتي لرؤية تيتوس غدًا إن لم أعد.

استعدادًا للرحلة، ملأ تايفر آلة التوزيع الأوتوماتيكيّة بالكروكيت، وبينما تابع الشابّ عمله، استلقى للحظة على كرسيّه، وشبك ساقيه على الطاولة المنخفضة. لم يكن مُجرّد تعب. شعر بتصلّب عضلاته وقشعريرة تجري على فخذيه صعودًا نحو ذراعيه وأسفل ظهره، ما يعلن ارتفاعًا مفاجئًا للحرارة. لم يكن ينقص سوى هذا... كانت نقطة ضعفه، وكان يعرف ذلك ويخشاه. يمكن للحمّى أن تدمّره وتطرحه أرضًا لأيّام عدّة. زادت القشعريرة أكثر فأكثر. صرّ تايفر أسنانه لمنعها من الطقطقة ثمّ سحب غطاءً على بطنه وصدره. تسارعت نبضات قلبه. كانت آليّة دفاع كلاسيكيّة للجسم، ولكن معه، منذ الطفولة، اتّخذت أبعادًا تنذر بالخطر. رجلٌ جريحٌ يُحتضر لأيّام عدّة في ساحة معركة

مهجورة. تجمّدت يداه. كان يموت من العطش. تخيّل نفسه يروي عطشه في نبع جليديّ. كان للماء لونٌ ذهبيّ وطعم عصير التفاح. اللعنة، بدأتُ بالهذيان! أغمض عينيه وقرّر أن يأخذ قيلولة لمدّة عشر دقائق، ربع ساعة. ثمّ يأخذ قرص دوليبران و...

مكتب الكاتب العدل جوزيبي روسي

فيا ماجنتا، 24

10128، تورين

إيطاليا

الآنسة أنجيليك شارفيه

قصر فيزيانو

كالي تيبيبولو، 1364

30125، البندقيّة

إيطاليا

تورينو، 9 كانون الأوّل/ديسمبر 2021

سيّدتي العزيزة،

أؤكّد بموجب هذا المستند أنّ طلبك لإثبات البنوّة عن طريق حيازة الحالة قد صدّقت عليه اليوم محكمة الأسرة في تورينو. هذا الإقرار يثبت بلا جدال البنوّة بعد الوفاة، من دون الحاجة إلى الفحوص الوراثيّة، بين طفلك الذي لم يولد بعد والسيّد ماركو ساباتيني.

وقد أُنشئت هذه البنوّة، على وجه الخصوص، على أساس أقوال ثلاثة شهود ووثائق أُخرى قُدّمت إلى

المحكمة تشهد على جمعٍ كافٍ للوقائع المتطابقة بالمعنى الوارد في المادّة 23-ب.

وبناءً على ذلك، فإنّني أسمح بأن أرفق بهذه الرسالة شهادةً خطيّة تشهد على حيازة الحالة إلى إثبات العكس. ويُذكر الفعل المذكور في هامش شهادة ميلاد الطفل.

أرجو أن تتقبّلي منّي، سيّدتي العزيزة، فائق الاحترام، وأبقى تحت تصرّفكِ إذا احتجتِ إلى مزيدٍ من التفاصيل.

جيوزيب روسي

17

لينا خليل

«داخل كلٍّ منّا حربه الخاصّة التي يجب أن يتولّى أمرها، فإمّا يفوز بها أو يخسرها، بمفرده، وفقًا لعدالته الشخصيّة».

جيرزي كوزينسكي

.1

الخميس 30 كانون الأوّل/ديسمبر.

عندما رنّ المنبّه على هاتفه، بموسيقى مامبا صاخبة غير مناسبة البتّة للموقف، ظنّ ماتياس تايفر أنّه كان وضعه عن طريق الخطأ. لم يشعر بأنّه غفا ومع ذلك كانت الساعة السادسة والنصف صباحًا. حاول الوقوف، لكنّه مكث مكانه لفترة طويلة، مهزومًا من الحمّى. شعر بأنّ مفاصله صدئة، وكان يرتجف، يشلّه الصداع ومعه الأوجاع.

مصابًا بالدوار، تمكّن رغم ذلك من سحب نفسه إلى الحمّام لكنّه تراجع عن الاستحمام. اكتفى بجمع مجموعة أدوات النجاة الخاصّة به ليعالج نفسه. دوليبران 1000،

إيزوميبرازول لحرقة المعدة، دواء مُوسّع للأوعية الدمويّة لعلاج انسداد الأنف. بالإضافة إلى كلّ أدويته الخاصّة بمريض خضع لزراعة قلب. استطاع بجهدٍ جهيدٍ أن يرتدي ثيابه، وطلب سيّارة أجرة من دون أن يحاول حتّى ارتشاف فنجان قهوة.

كان رومويالد قد غادر، لكنّه عمل طوال الليل تاركًا بشكلٍ بارزٍ الوثائق التي طبعها : تذكرة الطائرة ، واختبار الكوفيد بتاريخ اليوم السابق، بالإضافة إلى رسالة مُوجّهة إلى أنجيليك من كاتب عدل إيطاليّ تمكّن من استخراجها من صندوق بريدها الإلكترونيّ. وضع أدويته وأوراقه في محفظة جلديّة وانتظر سيّارة الأجرة جالسًا على أريكته، عيناه مغمضتان، ومنشفة مملوءة بمكعّبات الثلج على جبينه، وكلبه في حضنه.

عندما وصلت السيّارة، خرج في العتمة تحت المطر الجليدي القارس واندفع إلى المقصورة حيث بقي متقوقعًا طوال الرحلة، جسده مُتيبّس، ودماغه متجمّد. ظنّ أنّه لن ينجح. كان لاهثًا، لا وقود في خزّانه. تشبّث مع ذلك، متشنّجًا، محاولًا الحصول على بضع دقائق من الراحة قبل مواجهة الحشود. كان من الضروريّ أن يبقى خانعًا لمرضه في انتظار أن يعطي الباراسيتامول مفعوله. عليه النجاح في الصعود إلى الطائرة بأيّ ثمن.

أورلي. مطار بالكاد يكون أقلّ عبئًا من مطار رواسي، لكنّه أسوأ مطار في العواصم السياحيّة الرئيسيّة. إنّه المطار الذي يجعلك تكره باريس قبل أن تطأها قدمك. بفضل الكوفيد، كان لدى مجموعة «مطارات باريس» هذه المرّة على الأقلّ سببٌ وجيهٌ واحدٌ لتبرير الفوضى المحيطة: طوابير لا نهاية لها، نقص المعلومات، لامبالاة

بعض الوكلاء، عدوانيّة المسافرين. في كلّ مرّة الشعور نفسه بالنزول إلى مرتبة القطيع. من جديد، تمالك تايفر نفسه، محاولًا الحفاظ على هدوئه لتوفير طاقته الضئيلة. خسر نصف ساعة بعبور التفتيش الأمنيّ، ووصل بصعوبة في اللحظة الأخيرة للصعود على متن الطائرة وكان من أواخر من دخلوها. مفاجأة: لم تكن الرحلة مكتظّة. فاجأ التغيير في قواعد السفر بسبب الأزمة الصحّية العديد من المسافرين الذين مُنعوا من الصعود إلى الطائرة بسبب نقص الوثائق المطلوبة. تسلّل تايفر عبر الممرّ إلى الصفّ الثامن عشر. هنا، اقترح على امرأة متقاعدة بدينة أن يعطيها مقعده في المقدّمة مقابل «المكان الفاشل» الذي تشغله: مقعد محصور في الخلف، لا عند النافذة ولا عند الجناح. سارعت المرأة إلى الموافقة، واستقرّ تايفر على مقعدها بجوار لويز التي استيقظت في تلك اللحظة. تعرّفت الصبيّة إليه، وأطلقت صيحة من الدهشة.

لم تكن تبدو هي الأُخرى في حالٍ جيّدة. وجهها شاحب، شعرها باهت، عيناها تحيط بهما هالات سوداء، ونظراتها تعبّر عن هشاشة حالتها النفسيّة.

– لم تكوني لطيفة جدًّا معي، استهلّ الحديث مشيرًا بسبّابته إلى الندبة عند حاجبه.

«... بصفتي مديرة المقصورة، يُسعدني الترحيب بكم على متن طائرة إيرباص 320. لقد اكتمل الصعود إلى الطائرة.

سنقلع قريبًا إلى البندقيّة، ماركو بولو...»

– ومع ذلك، أنا لا ألومكِ، واستيقظتُ باكرًا جدًّا هذا الصباح لمنعكِ من ارتكاب حماقة.

«يُقدّر وقت رحلتنا بساعة وخمسٍ وثلاثين دقيقة.
تجدون أمامكم تعليمات السلامة».

– كنّا قد بدأنا محادثة صغيرة عندما جرت مقاطعتنا. وبما أنّه سيكون لدينا متّسعٌ من الوقت للتحدّث، أوّد لو نستأنف حديثنا.

.2

الطائرة تحلّق الآن فوق كتلة الغيوم. أفسح التلوّث الباريسيّ والسماء المكفهرّة المجال أمام فراش قطنيّ، ملوّن بالورديّ. يصبح التنفّس أفضل بكثير عند ثلاثين ألف قدم فوق الغباء الإنسانيّ. كانت عودة الضوء الطبيعيّ وتأثيرات الباراسيتامول قد أنعشت تايفر إلى حدٍّ ما. شعرت لويز أيضًا بتحسّن. ساعدتها القهوة وكعكة المادلين على التنشّط وهي تنطلق في روايتها.

– ذهبتُ مساء الثلاثاء، كما طلبتَ منّي، إلى ذاك المطعم الإيطاليّ بالقرب من ساحة فورستنبرغ.

– «نوميرو 6».

– وصلتُ متأخّرة. كنتُ قد مررتُ إلى المنزل لأرتدي فستانًا أنيقًا كي لا ينظروا إليّ على أنّني طفلة. عندما وصلتُ، لم تكن لينا قد أتت بعد واستقررتُ عند البار. وما هي إلّا خمس دقائق حتّى دخلَت. تعرّفتُ إليها على الفور، إذ كانت كما وصفتها لي: متوسّطيّة، في الأربعينيّات، سمراء، ذات بشرة غير لامعة وعينين فاتحتين.

أصغى إليها تايفر، في حالة تأهّب، متيقّظ الحواسّ، متوقّعًا كلّ شيء... ولا شيء.

– اقتربَت من البار وقالَت إنّ لديها حجزًا باسم لينا خليل. ليس حدّاد بل خليل. لم يكن الاسم الذي أعطيتني إيّاه فقرّرتُ معرفة المزيد، وعدم إخبارك إلّا عندما يصبح لديّ تفسير لذلك. قلتُ لنفسي إنّ كلّ شيء معك عبارة عن ورقة مُساومة، رغم أنّني لم أكن أعرف بعد إلى أيّ حدّ...

– هيّا، ادخلي في الموضوع، قاطعها تايفر.

– جلسَت بجانبي على البار من دون أن تلاحظ وجودي. كانَت قلقة، عيناها مثبّتتان بالتناوب على هاتفها وعلى الزبائن الذين دفعوا باب المطعم. انتظرتُ هكذا لمدّة عشرين دقيقة من دون أن أعرف ماذا أفعل، ثمّ نهضَت للذهاب إلى الحمّام فانتهزتُ الفرصة للاتّصال بك.

– وبعدها؟

– بعد ذلك، عادت لينا للجلوس وحاولتُ جذب انتباه النادل لطلب كأس مارتيني أُخرى. هنا، اغتنمتُ الفرصة لـ...

– ... ماذا؟

– تركتُ ورقة نقديّة بقيمة عشرة يورو تحت كأسي وغادرتُ بهاتفها المحمول الذي وضعَته على المنضدة.

– سرقتِ هاتفها! لكن لماذا؟

– لأفهم، بالطبع! لم أذهب بعيدًا. وجدت ملاذًا في حانة في شارع بوسي وجلستُ إلى طاولة. لم يتسنَّ الوقت للهاتف لكي يقفل. تصفّحتُ الصور، وقرأتُ رسائل البريد الإلكترونيّ والملاحظات الخاصّة بها. على هاتفها حفّظَت تقريبًا حياتها كلّها. سمحَت لي بضع نقراتٍ على المواقع الإخباريّة بإعادة بناء القصّة بأكملها، لكنّها لم تكن القصّة التي أخبرتني بها.

– لم أخبركِ بأيّ قصّة.

– هذا صحيح. لذلك دعنا نقُلْ فقط إنّها ليست القصّة التي أخبرَتك بها لينا.

أخرجت لويز هاتفها من حقيبتها ومرّرت إصبعها على الشاشة لعرض الصور المسروقة التي نقلتها إلى هاتفها والتعليق عليها.

– في عام 2010، كانت لينا خليل، وهي طبيبة بيطريّة تبلغ من العمر ثلاثين عامًا، تعيش في بيروت مع زوجها، سيمون فيرجيه، وهو مُدرّس في مدرسة الليسيه الفرنسيّة اللبنانيّة. سيمون هو في الأصل من بياريتز. التقى زوجته خلال برنامج التبادل الطلّابيّ إيراسموس الذي أخذه إلى بلاد الأرز.

شعر تايفر بالتوتّر منذ هذه البداية للقصّة، فأمسك بمسند ذراع مقعده، كما لو كان ينوي سحقه.

– تزوّج الثنائيّ في عام 2011. وُلد طفلهما الأوّل عام 2013، صبيٌّ يُدعى باتيست، تبعته في عام 2015 آنا الصغيرة. كان كلّ شيء يسير على ما يُرام في عالمٍ مثاليٍّ.

كان تايفر قد غيّر نظّارته وأخذ ينظر إلى صور الأيّام السعيدة على الشاشة. ألهبت السعادة الظاهرة أحشاءه مثل الحمض الحارق. كان السخط والمرارة بمثابة سموم، لكن عندما يتعلّق الأمر بقصّته مع لينا، لم يستطع التحلّي بنُبل الأخلاق.

– وقعَت المأساة في صيف عام 2016، تابعت لويز. فقد سيمون فيرجيه حياته خلال رحلةٍ عائليّة على متن قارب على ساحل الباسك. فيما كان يسبح مع طفليه، اصطدم جيت سكي بسيمون الذي تُوفّي أثناء نقله إلى المستشفى.

قطّب تايفر حاجبيه. تخيّل الرعب، الموت المفاجئ الذي ينهمر من دون سابق إنذار. لينا مُدمّرة، طفلان صغيران يتيمان، الظلم غير المقبول في فقدانهما لوالدهما بين ليلةٍ وضحاها قبل أن يتسنّى لهما معرفته حقًّا. لكن لماذا لم تخبره لينا قطّ عن وفاة زوجها؟ لماذا جعلته عقبة أمام علاقتهما إن كان مات؟

– كانت الأشهر والأسابيع التي تلت مُدمِّرة، تابعت لويز. لم تكن لينا خليل قادرةً على عبور مرحلة الحداد. أخذت إجازة من العمل وعادت للعيش مع والدتها، حيث غرقَت في الاكتئاب.

شعر تايفر بألمٍ في صدره كما لو كان قلبه ينقبض. حاول التقاط أنفاسه، ماسحًا بواسطة كمّه جبهته المغطّاة بالعرق. بعد الفضول الذي شعر به بدايةً، ها هو يشعر الآن بالقلق من المعرفة. لم تعد الحقيقة موضوع بحث، بل صارت خطرًا مُقلقًا يهدّد بكسر الأسس الهشّة التي بفضلها لا يزال واقفًا على رجليه.

– انتهى بها الأمر في مستشفى للأمراض النفسيّة، أوّلًا في بيروت، ثمّ في مستشفى سانت-آن في باريس...

كان لديه انطباعٌ قذرٌ بأنّ لويز وضعت للتوّ قنبلةً تحت مقعده. انطباعٌ بأنّ إعلانًا أساسيًّا قد فاته الآن. ثمّة شيءٌ آخر عليه فهمه، لكنّه لم يعلم ما هو. تابعت لويز الكشف عن قصّتها.

– في أحد الأيّام، أثناء إجراء بحثٍ على الإنترنت، صادفَت لينا مقالةً في صحيفة نيس-ماتين. كان هذا العدد يذكر عمليّة زرع القلب التي خضعتَ لها أنتَ.

كان يتذكّر ذلك بشكلٍ ضبابيّ. بعد العمليّة، بقي ثلاثة أسابيع في مركز إعادة تأهيل متخصّص بالقرب من

فينس. كانت معنويّاته مُحطّمة وكان يموت ضجرًا. أقنعته صحافيّة بالمشاركة في الإحصاء الذي تجريه الصحيفة المحليّة كلّ عامٍ لتشجيع التبرّع بالأعضاء.

سلّمته لويز ورقة المقالة المجعّدة التي طبعتها من موقع الصحيفة الإلكترونيّ. جال الشرطيّ بنظره على العنوان ومقدّمة الخبر:

شهادة

ماتياس تايفر، بقلبٍ نابضٍ بفضل عمليّة زرع

«أنا مدركٌ كم أنّي محظوظ»، أكّد ضابط الشرطة المقيم في ميزون دي سيم، بعد تلقّيه قلبًا جديدًا الشهر الماضي.

– في المقالة، قالت الصحافيّة إنّك كنت تنتظر عمليّة الزرع هذه لفترة طويلة.

تجهّم وجه تايفر.

– هذا صحيح، لكن...

– لقد ذكرَت السبب: أنت تنتمي إلى فصيلة دم نادرة، إذ المستضدّ «فِل» غائب على الكريّات الحمر في دمك. أعرف هذه المسائل، لقد درستُها في السنة الثانية من الطبّ: إنّها فصيلة دم نادرةٌ جدًّا. أُحصي أقلّ من أربعمئة شخص بهذه الفئة رسميًّا في فرنسا. وإذا نُقل دمٌ من شخصٍ ذي زمرة سلبيّة من حيث وجود المستضدّ «فِل» بزمرة إيجابيّة، فسوف يطوّر جسمه أجسامًا مضادّة تهاجم المستضدّ «فِل» وتتسبّب بتدمير الدم المنقول.

– نعم، ماذا في ذلك؟ تلعثم الشرطيّ.

شعر بأنّه على وشك الإغماء، كما لو حُرم فجأةً من الأوكسجين تمامًا. وجّهت لويز الضربة القاضية:

– سيمون فيرجيه، زوج لينا، ينتمي مثلك إلى فصيلة «فِل» سلبيّ. كان من الأشخاص القلائل في هذه الفصيلة الذين سُجّلوا في ملفّ المتبرّعين النشطاء، وإذا قارنّا تاريخ الحادث الذي تعرّض له وتاريخ عمليّة الزرع التي خضعتَ لها، ينعدم الشكّ تقريبًا: لقد أخذتَ قلبكَ منه.

دوار، تعرّق، ضيق في التنفّس. قطعةً قطعة، جُمعت الأحجية المروّعة أخيرًا أمام عينيه، وكشفت عن حقيقة لا تُطاق: قرّرت لينا العثور على المريض الذي استفاد من عمليّة زرع قلب زوجها. انبثقت صورة من أعماق ذاكرته: كيف كا نت لي نا تض ع رأ سها عل ى صد ره عن دما كا نا يستلقيان جنبًا إلى جنب. كان بإمكانها البقاء في تلك الوضعيّة إلى الأبد، لكنّها لم تكن تستمع إلى نبضات قلب تايفر، بل نبضات قلب زوجها.

كان الشرطيّ مدمّرًا، مذلولًا، مقصوفًا بأقسى المشاعر: الغضب، والكراهيّة، والإهانة، والرغبة في الانتقام. الفصل السارّ الوحيد في وجوده كان كذبةً لا أكثر. فترة السعادة الوحيدة في حياته كانت خدعة. سفالة. احتيال.

شدّ قبضتيه. رغب في تحطيم كلّ شيء، ثمّ قتل نفسه.

لم يكن هو من أحبّته لينا. لم يخدمها سوى كوسيط للمّ الشمل بعد الوفاة مع زوجها الراحل.

– أعتقد أنّ لينا وقعت في حبّك حقًّا، ماتياس، أكّدت لويز لتهدئة الغضب الذي رأته يتصاعد. لكنّها لم تجرؤ على الاعتراف لك بالحقيقة خوفًا من ردّ فعلك.

لكنّ تايفر لم يعد يستمع إليها. كان دماغه يسيل ويتحوّل إلى حُمم بركانيّة حارقة. تشكّلت في ذهنه صورةٌ أخرى في خضمّ هذه الفوضى: صورة خنجر يخترق قلبه

ليقتل سيمون فيرجيه مرّةً ثانية. خلع كمامته كي لا يختنق وأخذ رشفة من الماء. طعمٌ معدنيّ ظهر في فمه. مالح، حديديّ.

طعم الدم.

18

قاتلان في الدار

«ما دام بإمكانك العودة إلى نقطة الانطلاق، فأنت لم تقم بالرحلة حقًّا».

روجيه مونييه

.1

الخميس 30 كانون الأوّل/ديسمبر.

البندقيّة.

رسا الزورق الخشبيّ المدهون على ميناء زاتيري. ساعد القبطان، وهو حارسٌ شخصيّ لعائلة ساباتيني، أنجيليك شارفيه على نزول مسار المشاة الذي يتبع الواجهة البحريّة.

كانت الشابّة في ذروة السعادة. إنّه يومٌ متميّزٌ في حياتها الجديدة: أوّل مقابلة لها كمستشارة لمؤسّسة أكوا ألتا لتقديم المعرض القادم للوحات ماركو ساباتيني. حدّدت الموعد بيانكا نفسها مع صحافيّة من مجلّة فوغ في مطعم بالقرب من متحف «بونتا دي لا دوغانا». كان

اسم ساباتيني بمثابة مفتاح لكلّ الأبواب. مرّت ثلاثة أشهر وأنجيليك تعيش هذه التجربة المُسكرة. الملابس، والمجوهرات، والسفر، والمشاريع المهنيّة: صارت تشعر بأنّه ما عاد لرغباتها رادعٌ أو سقف.

مشت أنجيليك على الطريق المرصوفة بالحجارة على طول جزيرة غيوديكا وشعرت كأنّها تتحرّك في بطاقة بريديّة مُصوّرة من ستينيّات القرن العشرين. الزهور على النوافذ، والانعكاسات الفضّية الساطعة للشمس على القنال الكبير، والهدوء غير المألوف الذي سيطر على المدينة. كان للكوفيد ميزة تطهير البندقيّة من السيّاح القادمين مع منظّمي الرحلات السياحيّة الذين ينزلون من السفن السياحيّة ويخنقون المدينة بلا خجل. رأت في واجهة متجر يبيع الأقنعة التقليديّة للبندقيّة انعكاسًا لصورتها أعجبها. بدت خفيفة ومرحة، إذ كانت قد قصّت شعرها وأشقرته، وارتدت فستانًا أسود ومعطفًا من الكشمير باللون الكريميّ وحقيبة كابوسين رائعة. فبدت أشبه بليا سيدو في إعلانٍ للعلامة التجاريّة لوي فويتون.

كان الجميع يخبرونها أنّ الحمل يبدو رائعًا عليها. أربكتها الصورة الصوتيّة الأخيرة: صوت القلب ونبضاته السريعة، شكل الوجه الذي بات أكثر وضوحًا، طول الجنين الذي أصبح الآن حوالي عشرين سنتمترًا. كان الموعد النهائيّ يقترب. بيانكا وليساندرو كادا يطيران من الفرح ورافقاها في الخطوات كافّة. ولكي تثبت أنّها فتاة جيّدة، تركت لهما اختيار اسم الطفل الآتي.

استمتعت أنجيليك بكلّ ثانية من هذه الولادة الجديدة لها. كانت بالضبط حيث أرادت أن تكون. تناغمت حياتها الآن مع صورة البندقيّة: أرستقراطيّة،

أنيقة، راقية، مُوقّرة! لقد وجدت مكانها أخيرًا. من دون مساعدة أحد. صاغت هذه الحياة الجديدة بمفردها، بفضل يديها الصغيرتين وبفضل السحايا التي تستقرّ في السنتمترات المكعّبة القليلة من دماغها. هذا إنجازٌ لا بأس به بالنسبة إلى فتاة لطالما اعتبرها الناس مجنونة!

في المطعم، استُقبلت بكلّ الاحترام الواجب لفرد من عائلة ساباتيني. أمضت الصحافيّة الغداء في مجاملتها. لعملها، لجسمها، لروح الدعابة عندها، لحذائها. كانت تُضحكها السرعة التي تغيّرت بها نظرة الآخرين إليها. بدا الأمر مُبهجًا ومُحبطًا في الوقت نفسه: لم يكن لمعظم الناس آراءٌ أو قناعات حقيقيّة. كانوا يتبعون القطيع، ويعوون مع الذئاب، ويذهبون في اتّجاه الريح، ويسارعون إلى تبنّي سلوك المحاكاة خوفًا من التهميش. قطيعٌ متقلّب، بلا شخصيّة، دائمًا في عجلة من أمره لتقديم الولاء في الرداءة.

بعدما غادرت الصحافيّة، بقيت أنجيليك قليلًا على شرفة المطعم. فنجان ريستريتو أخير مع إطلالة على جزيرة غيوديكا. كان الموقع مُذهلًا، يعكس بانوراما فخمةً للجزء الجنوبيّ من البندقيّة. ثُبّتت الطاولات والكراسيّ على ركائز متينة فبدت كأنّها تطفو على الماء. هذه المجاورة قد تصيبك، في لحظات، بدوار البحر.

حاجبةً ضوء الشمس عن عينيها بيدها، رصدت أنجيليك من بعيد القبّة وأبراج الجرس لكنيسة المُخلّص التي تنبثق من سماءٍ فضّية اللون. تعلّمت أخيرًا تاريخ مكان العبادة هذا، الذي بُني في الربع الأخير من القرن السادس عشر، عندما أهلك الطاعون سكّان البندقيّة، إذ وجد مجلس الشيوخ ودوق البندقيّة نفسيهما عاجزَين

أمام انتشار الآفّة، ناشدا العناية الإلهيّة من دون توقّف لإنقاذ المدينة من الوباء. كان بناء البازيليكا تتويجًا للقرابين المُقدّمة للخالق.

حوّلت أنجيليك نظرها عن الكنيسة. على الرغم من ارتدائها نظّارة شمسيّة، بهرتها الواجهة الرخاميّة البيضاء. شعرت فجأةً بالانزعاج. جعلتها القهوة، التي لم تحتسِها كلّها، تشعر بالغثيان. لم تكن قد نامَت جيّدًا في الليلة السابقة، وكانت تشعر بالتعب. لم يتوقّف اللقيط الصغير في بطنها عن توجيه الضربات إليها. كانت قد استيقظت في الساعة الثالثة صباحًا، مشلولةً بالألم والقلق، مُتوجّسةً من أنّ أسس حياتها الجديدة قد لا تكون صُلبةً كما تخيّلت في البداية.

فركَت جفنَيها. كان حوضها يؤلمها وتشعر بذلك الإحساس المُزعج وكأنّ زهرة لوتس تتفتّح داخل رحمها. كان ثدياها مُنتفخين كما لو أنّ الطفل الرضيع سيولد في غضون دقيقة ويبدأ بالرضاعة.

تنهّدت. لقد تغيّر مزاجها. غادرت المطعم مع الحارس الشخصيّ وعادت في طريقها إلى زورق الأكواراما. عبرت واجهة متجر الأقنعة، وحاولت التفتيش عن الصورة التي أعجبتها كثيرًا قبل ساعتين، لكنّ أنجيليك تلك اختفت. وجدَت نفسها ضخمةً مثل الحوت، ممسوخةً، ضائعة.

صعدَت على متن قارب ريفا بارتياح، على أمل أن تغسل رحلة القارب إلى قصر ساباتيني دماغها. هواءٌ نقيّ، بسرعة! غادرت ميناء زاتيري، ولمحَت من جديد الشكل المخيف لكنيسة المُخلّص. فكّرت مرّةً أخرى في تاريخ البناء. تضرّعٌ لمن فدى خطايا البشريّة. ألا نجد أنفسنا

دائمًا في الدوّامة نفسها؟ الإغراء لارتكاب الشرّ، والخوف، والرغبة الوهميّة في الفداء؟

.2

لم يكن للجوّ أيّ علاقة بجوّ نهاية الفترة الصباحيّة. اجتاحت المدينة عواصف مالحة فأصبحت خانقة، عدائيّة بعض الشيء. كانت السماء رماديّةً، مُثقلةً بالغيوم، لكن مُحمّلة بالانعكاسات البرتقاليّة التي ازدادت حدّتها مع اختراق قارب ريفا لموجات القنال الكبير. يقع اللوم على السيروكو، أي الريح المُعبّأة بالرمال التي اتّجهت شمالًا من الصحراء وولّدت أجواء نهاية العالم في أنحاء المدينة الساحليّة.

كان الزورق يترنّح مع الرياح المُعاكسة. متقوقعةً في المقعد الخلفيّ وملفوفةً بشالها، شعرت أنجيليك بالغثيان وطلبت من الحارس الشخصيّ تقليل السرعة.

أينما نظرَت، رأت سكّان البندقيّة النشطين يركّبون جسور مشاة إضافيّة ويرفعون المنصّات الموجودة لمواصلة القدرة على السير في ظلّ الحالة المناخيّة القادمة. كانت أنجيليك قد خزّنت المعلومات في الجزء الخلفيّ من عقلها من دون إعطائها أيّ أهمّية، لكن في اليوم السابق، أبلغ مركز المدّ والجزر عن حدثٍ مقلقٍ. انتفخت الجداول بسبب الأمطار الغزيرة في الخريف. تلقّى سكّان المناطق المُنخفضة أو المُعرّضة للخطر رسالة نصّية قصيرة للسماح لهم بتنظيم أمورهم ورفع الـ«paratia»، أي الألواح المعدنيّة التي تمنع المياه من التسرّب عبر الأبواب والنوافذ. انطلقَت صفّارات الإنذار في كلّ مكانٍ تقريبًا

بأربع رنّات، ما يشير إلى توقّع تخطّي المدّ والجزر المئة والأربعين سنتمترًا.

لم يقلقها هذا الفوران البتّة. بالنسبة إليها، كان حتّى جزءًا من فولكلور البندقيّة. فالمياه تغمر ساحة سان-مارك والشوارع المجاورة التي تشكّل الجزء الأدنى من المدينة بوتيرة مُنتظمة. وفي كلّ مرّة أصحاب المتاجر يتذمّرون، والصحافيّون يستخرجون مقالاتهم المُحضّرة مُسبقًا، والسيّاح يرتدون جزماتهم ويلتقطون صور سيلفي لنشرها على الإنستغرام كما لو أنّهم الصحافيّ الشهير ألبرت لندريس.

سرعان ما اجتاز قارب ريفا أكواراما القصرين بلاتزو غراسي وكاريتزونيكو واتّخذ الخطّ المستقيم نحو ريالتو. على بعد أقلّ من ثلاثمئة متر من الجسر، رسا القارب قرب جسرٍ عائمٍ خاصٍّ يخدم قصر فيزيانو، مقرّ عائلة ساباتيني، وهو عبارة عن مبنًى من القرن السادس عشر بواجهة رخاميّة متعدّدة الألوان تعلوها مسلّتان غير لافتتَين للنظر.

لم يكن القصر الأكبر حجمًا، لكنّه يفرض نفسه برونقه المُميّز. ثلاثة طوابق متينة بين العمارة القوطيّة وعمارة عصر النهضة، رواق ضخم مؤطّر بنوافذ مزدوجة وفي الطوابق العليا خمسة صفوف من النوافذ تفصل بينها أعمدة فيروزيّة اللون. كان شكل القصر يتناسب جيّدًا مع الصورة التي أرادت العائلة أن تعطيها لنفسها: صلابة، أناقة، ترسّخ في الماضي للتطلّع بشكلٍ أفضل إلى المستقبل.

كان ليساندرو قد اشترى هذا القصر منذ فترة قصيرة، بعد أن ظلّ على مرّ القرون بيد العائلة نفسها من الطبقة الأرستقراطيّة البندقيّة. وبدعمٍ من البلديّة، تمكّن من

إطاحة مُنافسه، أحد أغنى رجال الأعمال في سنغافورة، وشرع في أعمال ترميم شاقّة قطعتها الأزمة الصحّيّة.

بمجرّد نزولها من قارب ريفا، اندفعت أنجيليك إلى القصر. كانت قاعة المدخل غارقةً في الظلام، لم يضئها سوى فانوسٍ كبيرٍ من الحديد الزهريّ مُعلّق في منتصف السقف. بدا المبنى ضخمًا وباردًا لها. أين رئيس الخدم ومدبّرة المنزل؟ بيانكا وليساندرو كانا غائبَين منذ اليوم السابق. دُعيت أنجيليك للانضمام إليهما في اليوم التالي في الشاليه في جبال الدولوميت للاحتفال بالعام الجديد. ولكن لمَ لا يكون أيّ موظّف حاضرًا لاستقبالها؟

ضغطت على المفاتيح الكهربائيّة. لم يعمل أيّ منها. أرادت أن تعود لإبلاغ الحارس الشخصيّ، لكنّها تذكّرت أنّه ذهب لملء القارب بالوقود. بما أنّه لا مصعد في المبنى، صعدت السلالم إلى الطابق العلويّ، وهو الوحيد الصالح للسكن بسبب الأشغال. كان باقي المنزل في الوسط، مغطّى بملاءاتٍ بيضاء وقماشٍ مشمّعٍ واقٍ، ومزدحمًا بالسقالات وكشّافات ورش البناء.

صعدت الدرجات الضخمة بصعوبة. عند وصولها إلى غرفة الأميرة خاصّتها، أغلقت الباب خلفها ورمت معطفها وحذاءها. كانت الغرفة نموذجيّة لقصور البندقيّة: سقوف عالية مغطّاة بلوحات جداريّة رومانسيّة، وأرضيّات التيرازو، المصنوعة من كسر الرخام، ومرآة كبيرة، وزخارف ذهبيّة. من خلال شبّاك نصف دائريّ، يمكن رؤية القنال الكبير. انحنت أنجيليك لمراقبة المدينة. بات المطر الآن موحلًا. غرقت البندقيّة تحت فلتر من الألوان البنيّة الدكناء، وتحوّلت إلى منظر طبيعيّ كان خياليًّا بقدر ما كان مخيفًا.

خلعت أنجيليك ملابسها وارتدت ثوب نوم وسترةً من الكشمير. كانت الغرفة متجمّدة. لماذا أُطفئت السخّانات؟ أدارت الصنبور من الحديد الزهريّ، لكنّه لم يعمل. أصابتها قشعريرة، وربّما حمّى. هل كان هذا الفيروس اللعين؟ اتّخذت ملجأً في عمق سريرها، تحت بطانيّة، مُنتفخةً بثقل حمار ميّت. شعرت كأنّ سمًّا غريبًا ينخرها ويستحوذ على جسدها. بقيت في هذه الوضعيّة فترةً طويلة، خاملة، قبل أن تغرق في النوم.

عندما فتحت عينيها، كانت لا تزال مضطربة. شعرت بأنّها لم تستطع النوم، لكنّ نظرة خاطفة على هاتفها برهنت عكس ذلك. كانت الساعة السابعة مساءً والغرفة غارقة في الظلام. قد تكون الريح هي التي أيقظتها حيث فُتحت النافذة التي لم تقفلها جيّدًا. هبّت رياحٌ لم تعتد رؤية مثلها، كانت ربّما قادرة على اقتلاع المنزل.

نهضت أنجيليك لإغلاق مصراع النافذة ونظرت من خلال الزجاج الذي كان يقطر بالمطر. كانت البندقيّة ملفوفةً بضباب شبحيّ ومياه القنال الكبير سوداء كالحبر، لكنّ أكثر ما استدعى قلقها مستوى المياه. كان الفيضان يتدفّق منذ ساعات عدّة. وفيما لا تزال الكهرباء مقطوعة، حفّت عود الثقاب بالمقداح سريعًا لإشعال شمعة في شمعدانٍ فضّي على طاولةٍ بجانب السرير. عندما انتشر ضوءٌ خافتٌ في الغرفة، ظهر ظلٌّ، طيفٌ هائلٌ امتدّ ليبتلع نصف الغرفة. نوسفيراتو ينقضّ على إلين [1]. شعاع زيوس يصعق سيميلي. ظلّ الشيطان الذي جاء من أجلها.

استدارت أنجيليك وأطلقت صرخة عندما رأت الرجل خلف الباب. رمت الشمعدان بكلّ قوّتها على وجه الدخيل

وهربت كالمجنونة. عبر سؤال ذهنها وهي تركض للهروب منه: من اكتشف سرّها وأفشاه؟

.3

اسمها أنجيليك شارفيه.

ما إن رآها تعبر قاعة بار «أنفان تيرّيبل»، حتّى عرف كورنتين لوليبفر أنّ هذه الفتاة لم تكن كالأخريات. كان مساء الثلاثاء في أغسطس. لقد أمطرَت طوال اليوم ولم يكن البار عند كيه دو جيمابيس مزدحمًا كالمعتاد. جاءت أنجيليك مرتديةً سترةً مخمليّةً خضراء، وبنطلون جينز، وقميصًا ضيّقًا بخطوط بيضاء وزرقاء، وحذاءً بكعبٍ عالٍ مربّع.

مرحبًا! قام بإيماءة صغيرة بيده للإشارة إلى نفسه ورأى بوضوح الخطوة التي اتّخذتها إلى الخلف عندما رأته. كان يعلم جيّدًا أنّ الصور التي نشرها على ملفّه الشخصي على موقع تِندر مُضلّلة. اختفت التعابير عن وجه أنجيليك. للحظة، ظنّ الصحافيّ أنّها ستتركه هنا، مُبرّرةً نفسها بأنّ البضاعة مغشوشة. لكنّ الشابّة وافقت أخيرًا على الجلوس وطلبت كوكتيل ليمون دروب. لمَ أسرته منذ البداية إلى هذه الدرجة؟ كانت متفرّدة، ذات جانب غريب يصعب وصفه. بفضل الفودكا، بدأت بالاسترخاء. حاول أن يُضحكها، أن يظهر بأفضل حالاته، أن يجمّل وظيفته. في البداية، استمعت إليه، ثمّ سرعان ما تضاءل اهتمامها. فصلت نفسها عن المحادثة وطلبت كوكتيلًا ثانيًا ثمّ آخر أيضًا. كانت إلى جانبه وغائبة في الوقت نفسه. مُخدّرة، عائمة، في مكانٍ آخر.

فهم لولييفر أنّه لا يعجبها. أنّ أنجيليك تتوق إلى شيء آخر. ومع ذلك، وافقت على مرافقته إلى منزله، في شارع أوجين-فارلين، من دون أن يحتاج إلى الإصرار. كانت قد شربت كثيرًا لكن ليس لدرجة أن تثمل. في وقتٍ لاحقٍ، عندما أعاد الصحافيّ تمرير شريط أحداث الليلة في رأسه من كلّ زاوية، رأى أنّه لم يستغلّ أيّ ضعف. كانت أنجيليك واضحةً وراضية. غادرت الشقّة في الصباح الباكر، تاركةً في أعماقه فراغًا، غيابًا لم يستطع تفسيره. سكنت أفكاره طوال اليوم. حاول رؤيتها من جديد، لكنّها لم تردّ على أيّ من رسائله. بقي مصرًّا، ووضع جانبًا عزّة نفسه، حتّى إنّه كتب لها رسالة حقيقيّة، يتوسّل فيها إليها أن تعطيه فرصةً أخرى.

تكرّمت بمعاودة الاتّصال به مساء يوم أحد في أيلول/ سبتمبر لتطلب منه التوقّف عن مضايقاتها وإلّا فلن تتردّد في تقديم شكوى. لم ترغب في السماع عنه بعد الآن، أرادت منه أن يختفي من حياتها التي لا علاقة له بها بمظهره الغبيّ، بقمصانه الرخيصة، بخطاباته اليساريّة، بقضيبه الصغير، بصلعه المُبكر.

أغلق كورنتين الخطّ، مجروحًا وتحت الصدمة. لم يشعر يومًا بأنّه بهذا الفشل، بهذه القباحة، بهذا المستوى. أمضى وقتًا طويلًا يحدّق في تفاصيله أمام مرآته ليجد أنّه حتّى شعره المزروع في الصيف الماضي في اسطنبول قد هجر جمجمته.

حاول قلب الصفحة ونسيان هذه القصّة التي، لحسن الحظّ، لم يُخبر أحدًا عنها. نجح في ذلك في أوائل الخريف من دون عقبات، وتمكّن من إبقاء تلك الذكرى بعيدًا عنه. لكنّ صورة أنجيليك عادت تهاجمه في ديسمبر. الصورة

نفسها دائمًا: دخولها البار، سترتها الخضراء الضيّقة، شعرها الناريّ المتموّج كما في لوحة لِغوستاف كليمت. لا، لم يتحرّر منها. حتّى لو تظاهر بعكس ذلك، فالممرّضة تسكن عقله. قد تكون أذلّته، لكنّه كان مُغرمًا بها. شغفٌ غير صحّي، حارق، انتقاميّ.

كان قد استخدم المعلومات التي جمعها عند تعقّب آثارها على الشبكات الاجتماعيّة. احتفظ بعنوانها وذهب ذات مساء إلى أولنيه-سو-بوا. وجد المنزل خاليًا. قاده الفضول إلى كسر مصراعَي نافذة وتحطيم هذه الأخيرة. كان يعلم أنّه سيدفع ثمن هذه الحماقة في النهاية، لكنّه كان مريضًا، ممسوسًا، مسعورًا. أراد كشف لغز أنجيليك شارفيه. كانت الشقّة نصف فارغة، ولكن أثناء التفتيش فيها زاويةً زاوية، وجد اختبار حمل إيجابيًّا بالإضافة إلى إيصال من الصيدليّة يثبت شراءه بعد ثلاثة أسابيع من لقائهما.

من تلك اللحظة – ومن دون التأكّد علام ينطوي هذا الاكتشاف حقًّا – انقلب كورنتين رأسًا على عقب. شعر بأنّه مخدوع، يتآكله غضب جعله يفقد كلّ سيطرة. خُصّص رقم هاتف أنجيليك المحمول لشخص آخر، واختفى كلّ أثر لها على مواقع التواصل الاجتماعيّ ولم يكن أحد يعرف أين تعيش الآن. بالنسبة إلى الصحافيّ، يجب التحقيق. كان يعرف كيف يتحرّى، والمقالات القليلة التي عليه نشرها تترك له الوقت الكافي ليقوم بذلك. قاده التحرّي إلى أنّها في إيطاليا بفضل الإعلان عن تعيينها في مؤسّسة أكوا ألتا.

بدا كلّ ذلك خياليًّا. ما الذي حدث لكي تأخذ حياة أنجيليك مثل هذا المنحى غير المتوقّع؟ اقترض كورنتين المال من والدته وطار إلى البندقيّة في 18 ديسمبر. بدأ

يجول حول الأماكن المرتبطة بعائلة ساباتيني. كان حدسه في محلّه. لمح أخيرًا أنجيليك تغادر قصر فيزيانو. ناداها بشدّة وحاول التحدّث معها، لكنْ صدّه حارسٌ شخصيّ طالبًا منه عدم إزعاج امرأة حامل.

أصابه هذا الرفض الجديد بالجنون وزاد من غضبه عشرة أضعاف. راجع الملفّ الضخم الذي جمعه من الإنترنت، فوجد مقالةً في مجلّة فوغ الإيطاليّة أفصحت فيها بيانكا ساباتيني، زوجة الإنجينييري، عن أفضل الأماكن التي تحبّ أن تكون فيها في البندقيّة. وأوصت، على وجه الخصوص، بمقهى «باستيتشريا ريغاتسوني» الذي تقصده باستمرار لاحتساء القهوة فور أن يفتح أبوابه كلّما كانت في المدينة العائمة.

وفي هذا المكان تمامًا وجدها كورنتين، صباح يوم 20 ديسمبر، جالسةً إلى الطاولة العالية، تستمتع بتناول المعجّنات مع فنجان إسبرسو بجرعة مُضاعفة. اقترب منها، وقدّم نفسه وأخبرها أنّ لديه معلومات مهمّة ليشاركها إيّاها.

– معلومات عمّاذا؟ سألت بحذر.

– عن أنجيليك شارفيه.

نظرت إليه بيانكا نظرة فضول وريبة.

وأفرغ كورنتين ما في جعبته.

.4

أفلت تايفر بصعوبة من الشمعدان الفضّي بدفعه بقوّة بحركة من ذراعه. انطلق في مطاردة أنجيليك التي اندفعت أسفل الدرج الكبير بأقصى سرعة. كان قد جاء غير مسلّح،

مصمّمًا على الارتجال في اللحظة كما اعتاد. مُضطربًا، محمومًا، ومُرهقًا، كان يمشي أكثر ممّا يركض، متسائلًا عن المعجزة التي أبقته واقفًا على رجليه.

بيد أنّ القطار قد انطلق وماتياس يعرف جيّدًا أنّه لن يتوقّف حتّى يبلغ وجهته.

في الطابق الثاني، سعت أنجيليك إلى تضليله في متاهة البلاتزو. مرّ عبر قاعة الحفلات الراقصة، والمكتبة، وصفّ من الصالونات الصغيرة. في كلّ مكان لوحات جداريّة، ثريّات مورانو، تماثيل رخاميّة، جدران منجّدة بالحرير، زخارف خشبيّة لا تزال تفوح منها رائحة الشمع. ولكن بسبب الأشغال الجارية، اختفت تلك الأبّهة تحت القماش المُشمّع من البولي إيثيلين. تدلّت أسلاك كهربائيّة بدون مقابس من الأسقف العالية وأعاقت السلالم وركائز البناء تقدّمه.

كانت العاصفة ومنظر القنال الكبير حاضرَين أبدًا. يعاودان الظهور في كلّ مرّة ينعطف فيها عند شبّاك أو نافذة زجاجيّة ملوّنة، فكانا أشبه بثغرة تكشف عن العناصر الطبيعيّة الهائجة. كان عقل تايفر مُشوّشًا. حتّى الدوليبران لم يعد بإمكانه احتواء انقضاض الحمّى. في رأسه، بدت له الشخصيّات في اللوحات الجداريّة تنبض بالحياة. لوحات عديدة لكلّ من كيوبيد، ساتير، طبيب الطاعون بسترته المشمّعة وقناعه المُروّع على شكل نسر. قد تكون الشابّة اختفت عن أنظار تايفر، إلّا أنّه تتبّعها غريزيًّا مُتعقّبًا رائحة خوفها، مثل الحيوان. في الطابق الأوّل، سمح جسر باجتياز حديقة صغيرة للوصول إلى جناح آخر من المبنى ثمّ درج حلزونيّ يغوص في أحشاء القصر. مرّت أنجيليك من هنا، كان متأكّدًا من ذلك.

نزل تايفر الدرجات الأخيرة في الظلام ووصل إلى قاعة مُقبّبة تفوح منها رائحة زهر البرتقال. زمّ عينيه، رأى مدفأة ضخمة وموقدًا من الحديد الزهريّ، وطاولة طهو، وسلسلة من الأواني النحاسيّة القديمة. قال في نفسه إنّها المطابخ القديمة... كان أحد الشبابيك قد انكسر تحت ضغط المياه التي اندفعت بقوّة إلى الغرفة، غامرةً بلاط الحجر الرمليّ الكبير. بقدمين غارقتين في الماء، تلمّس طريقه إلى الأمام وكاد يصطدم بعارضة و...

انعكس وميضٌ من البرق على الجدران الحجريّة وظهرت أنجيليك شارفيه أمامه مثل شبح سيّدة أبيض مُرعب. متسلّحةً بسكّين مطبخ طويل، ألقت بنفسها عليه وهي تصرخ، مصمّمة على طعنه. كان يعلم أنّها خطيرة وأنّها تجرّأت على القتل من قبل ولن تتردّد في فعل ذلك من جديد.

جاءت الضربة الأولى على كتفه. استقبلها مستسلمًا للقدر من دون أن يحظى بالوقت الكافي للتخطيط لأدنى حركة دفاعيّة. شعر ببعض الارتياح، وكأنّها إراقة دماء شافية من شأنها أن تطهّره من عذاباته. ضربةٌ أخرى في جسده المسحوق بالتعب، الغارق في عذابات لن يتحرّر منها أبدًا. سحبت أنجيليك النصل وأعادت تجهيز ذراعها. كان جزءٌ منه قد استسلم، شبه سعيدٍ بهذه النهاية. في أعماق نفسه، ألم يكن يعلم أنّه اجتاز كلّ هذا الطريق فقط للوصول إلى هذه اللحظة؟ ألم يكن هذا التحقيق سوى عبور متاهة كان موته المخرج الوحيد منها؟

لم يصدر أيّ ردّ فعل إضافيّ عندما أصابته الضربة الثانية في قلب بطنه. شعر بأنّ عينيه على وشك الإغماض.

منذ البداية، لم ينتظر سوى هذا الهدف: أن يقتلع نفسه من هذا الدهليز ليعرف الخلاص.

الموت، أخيرًا!

حتّى صوت الطعنات كان لطيفًا على مسمعه. اللحم الذي يتمزّق، الخُراج الذي يُفقأ، الدم الحارق الذي يتدفّق إلى الخارج، مسرورًا بالهروب من جسم قد تعفّن. لقد جفّ محرّك السيّارة منذ فترة طويلة. حتى إنّه تساءل كيف تمكّن من الصمود حتى الآن. لن يفتقده أحد. باستثناء كلبه ربّما.

على الرغم من الإضاءة الخافتة، تمكّن من تمييز وجه أنجيليك المُشوّه بالغضب، وشعرها المجنون، وعينيها الشبيهتين بعينَي الغرغونة. لم يكن أفضل من القاتلة. كان مصيراهما متوازيَين على نحوٍ غريب. هو أيضًا تجرّأ على القتل، هو أيضًا كان عليه أن يتعامل مع جانبه المظلم.

رفعت ذراعها للإجهاز عليه.

طعنات سكّين تنهمر... هذه هي قصّة حياته.

في لمح البصر، عاش من جديد الطعنات التي تلقّاها في قطار الأنفاق قبل ثمانية عشر عامًا. طعنات سكّين إلياس عبّاس التي لا ترحم. جسده الذي خدم كدرعٍ لحماية أليس باكر. تراكب المشهد في ذهنه كصورة طبق الأصل مع ما يعيشه الآن. في هذه النسخة الجديدة، حلّت أنجيليك شارفيه محلّ الجاني، لكنّ الوضع كان نفسه، باستثناء أنّه هذه المرة لم يكن لديه من يحميه. أعاد إحياء المشهد بدقّة غير معقولة. الرائحة الدهنيّة النتنة لمترو الأنفاق. الأفواه الضاحكة للمتسكّعين الثلاثة الذين أحاطوا به. أغنام القطار الذين حرصوا على عدم التدخّل. إلياس عبّاس الذي ضربه، وجسده الذي استخدمه كدرعٍ، كجدارٍ

أخير لتفادي إصابة الفتاة أو قتلها. كان أفضل دور يتقنه: دور المُلاكم المُحاصَر، المُقاتل الذي يجمع الضربات قبل أن يتمكّن من الرد. كان يتميّز بصفات الكادحين، أولئك الذين لا أسلوب لديهم ولا رشاقة: بل القدرة على التحمّل والمثابرة اللتين، في ظروف معيّنة، يلامسان حقًّا الشجاعة.

وفيما كان سكّين أنجيليك يضربه للمرّة الثالثة، التوى جسد تايفر وانهار الشرطيّ على الأرض، برأسه أوّلًا.

استمرّت المياه في الارتفاع وغطّته بالكامل تقريبًا. الآ ن، ل م تعد تصد ر عن ه أيّ حركة. خا مدًا ، راح ينتظر الموت. قبل أن يجرفه الظلام، روى تيّار أخير من الأوكسجين دماغه. أشعلت الشرارة ذكرى مثيرةً للاهتمام: تلك اللحظة العابرة، تحت الضربات، عندما التفت للبحث عن نظرات أليس باكر. التقت عيونهما، وعلى الرغم من الخطر، حرص على إبراز وجه مُطمئن، على جعلها تفهم أنّه سيحميها، وضرورة الصمود لبضع ثوانٍ أخرى، وأنّ المحنة ستزول قريبًا.

أعاد إحياء المشهد بدقّة غير معقولة.

تذكّر أليس باكر تمامًا. حدقة عينها المحاطة باللون الذهبيّ، والغمّازة على ذقنها، ونعومة وجهها على الرغم من الخوف.

تذكّر أليس باكر تمامًا.

ذلك الوجه، تانِك العينان، تلك الغمّازة.

كانت ملامح لويز كولانج.

5.

ما إن رأت مهاجمها ينهار في المياه السوداء، حتّى أسقطت أنجيليك السكّين وفرّت مُسرعة. صعدت الدرجات الزلقة لإخراج نفسها من هذا الجحيم. كانت ترتجف وقلبها يخفق كما لم يخفق من قبل، لكنّ هذا الانتصار على العدوّ أعطاها الأمل في أنّ كلّ شيء لم ينته بعد. صعدت إلى غرفتها، معدتها مشدودة، مصمّمة على أن تنجو بحياتها. ارتدت سروال جينز، وكنزةً فضفاضةً، وحذاءً رياضيًّا، وألقت بعض الأشياء في حقيبة ظهرها، وتحقّقت من وجود النقود في محفظتها، من دون أن تنسى وضع جواز سفرها في جيبها.

إلى أين؟

لم تكن تعرف بعد، لكن عليها مغادرة إيطاليا. وبسرعة! بحذر، نزلت الدرج وعبرت القاعة التي لا تزال مهجورة وخرجت من القصر. سوف تنجو بفعلتها مرّة أخرى. كانت تعرف كيف تحافظ على هدوئها عند المحن. أحبّت بالغريزة الخطر، والمجازفة وحالات الحرب.

ما إن وطئت قدمها الخارج حتّى صفقتها العاصفة. كانت البندقيّة تهتزّ بكلّ أسسها. جنون الطبيعة. الرياح، والمطر، والسحب بلون المُغرة المُحمّلة بالرمال. انعدم الاستقرار. ارتفعت أصواتٌ هادرةٌ من الجنوب مثل الخطى الثقيلة لوحش يخرج مباشرة من فيلم مليء بالكوارث. كايجو[2] متأهّب لاقتلاع المدينة.

خطت أنجيليك بضع خطوات تحت زخّات المطر. الشوارع مُقفرة. كان قارب ريفا قد عاد، راسيًا على الجسر العائم، يتأرجح على مياه القنال الكبير. لم تكن متأكّدة من أنّها ستتمكّن من قيادته، لكنّه أمرٌ يستحقّ المخاطرة. لا، بل

فرصة تستحقّ اغتنامها. تقدّمت في اتّجاه الزورق، متحدّيةً رشقات الرياح المالحة التي هاجمتها.

كانت منصّة المَرسى غارقةً في الرطوبة والضباب، والرؤية معدومة على أبعد من ثلاثة أمتار، لكن كان لديها انطباعٌ سيّئٌ بأنّ كائنًا غير مرئيّ كان يحوم بجانبها. كان أحدٌ هنا! هل الرجل الذي طعنته وتركته ميتًا؟ أم الحارس الشخصيّ لآل ساباتيني؟ قفزت خوفًا واستدارت. اختفت الواجهة المُلوّنة لقصر فيزيانو في قلب ضبابٍ سميك.

– فرصة ثانية...

اخترق أنينٌ الضباب الكثيف. أو ربّما كان عقلها يعبث معها فقط؟

– لماذا لم تعطيني فرصةً ثانية؟ سأل الصوت بحزمٍ أكبر.

استدارت أنجيليك حول نفسها. انبثقت هامة من الضباب. رجلٌ مكبوس في سترة خضراء من ماركة K-Way. في البداية، لم تتعرّف إليه بسبب غطاء الرأس البلاستيكيّ الذي أخفى جمجمته ونظّارته المنقّطة بقطرات المطر الدافئة. ثمّ ميّزته مذهولة.

كورنتين... كورنتين لولييفر...

وقف الصحافيّ أمامها، مُرتجفًا، بكلّ رداءته. بيديه المقبوضتَين، كان يمسك بإحكام مجذاف قارب غندول. قطعة خ شبيّة طويلة وضخمة بطرفٍ م خطّطٍ بالأحم ر والأبيض، مُفلطحة مثل ملعقة فطيرة مُسطّحة.

لم يكن الشابّ يوحي بالثقة، لقد عرفَت ذلك من النظرة الأولى في ذاك البار بعد يومٍ مُمطر. لكن حتّى مع هذا السلاح، لم يستطع إخافتها. حتّى النهاية، أقنعت نفسها بأنّها ستنجح في التفاهم مع هذا البائس، ولكن

عندما فتحت فمها لاستمالته، ضربها بمجذافه بقوّة جنونيّة.

ترنّحت أنجيليك وظنّت أنّه لا يزال بإمكانها الفرار، لكن سرعان ما قذفتها ضربة ثانية إلى مياه القنال الكبير.

وغرقَت في هاويةٍ من الظلام.

---

[1] نوسفيراتو: فيلم رعب تعبيري صامت ألمانيّ من عام 1922 للمخرج إف دبليو مورناو.

[2] كايجو هي كلمة يابانيّة تُترجم حرفيًّا إلى «مخلوق غريب»، وتستخدم للإشارة إلى الأفلام التي عادة تعرض الوحوش في أيّ شكلٍ من الأشكال، التي في الغالب تهاجم مدينةً يابانيّة كبرى أو تهاجم وحوشًا أخرى في معركة.

.IV

قصاصات

مدٌّ تاريخيّ يدمّر البندقيّة

31 كانون الأوّل/ديسمبر

وكالة الأنباء الإيطاليّة

مدٌّ بحجمٍ استثنائيّ وصل إلى ارتفاع 1.91 متر ضرب يوم الخميس مدينة البندقيّة. وشهدت هذه الأكوا-ألتا [1]، التي ضاعفت قوّتها رياح السيروكو العنيفة، تكسّر الأمواج إلى ما هو أبعد من ساحة سان-مارك والأجزاء السفليّة من المدينة حيث تأثّر أكثر من ثلاثة أرباع البندقيّة. هو ثاني أعلى مدّ سُجّل في «المدينة العائمة» منذ 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1966 (1.94 متر).

أحدثت الظاهرة المناخيّة أضرارًا جسيمة، وأدّت إلى تعطيل النقل وإغراق المدينة في حالة من الفوضى. كما دمّر ارتفاع منسوب المياه شرفات المقاهي والمطاعم وأغرق المناطق المحيطة بالفنادق على طول القنال الكبير. غمرت المياه سرداب ودهليز كاتدرائيّة سان-مارك واندلعت بدايات حرائق في نقاط عدّة من المدينة، فيما

سيطر عليها لحسن الحظ رجال الإطفاء الذين تدخّلوا أكثر من 300 مرّة.
سُجّل للأسف ما لا يقلّ عن 3 وفيات. في دورسودورو، تعرّض خبّاز يبلغ من العمر 44 عامًا للصعق بالكهرباء حتى الموت أثناء محاولته استخدام مضخّة لتصريف المياه في مخبزه.
وغمرت المياه دارًا للمسنّين في جزيرة بيليسترينا فاجتاحت موجةٌ من الوحل إحدى الفتحات في الطابق الأرضي. استطاع الموظفّون إنقاذ حوالي عشرين شخصًا من النزلاء غير أنّ امرأةً تبلغ من العمر 83 عامًا ماتت غرقًا. أخيرًا، تُوفّيت شابّة فرنسيّة حامل، أنجيليك شارفيه، 35 عامًا، وهي موظّفة في مؤسّسة ساباتيني، بالقرب من قصر فيزيانو، في حادثٍ لم تتّضح ظروفه بعد.
حجم الأضرار المادّية لا يُحصى – نتحدّث عن مئات الملايين من اليورو – ما دفع رئيس المجلس إلى إصدار مرسوم حالة الطوارئ للكوارث الطبيعيّة.
وعاد مستوى الأمواج إلى الانخفاض يوم الجمعة لكنّ مئات القوارب والجندول لا تزال تنجرف من دون مراسٍ في البحيرة والقنوات. وإذ يبدو أنّ ذروة العاصفة مرّت، فإنّ مركز المدّ والجزر لا يستبعد أحداثًا إشكاليّة أخرى في الأيّام المُقبلة.

بين سكّان البندقيّة، ارتفعت صرخات الغضب في الساعات الأخيرة. تتأثّر المدينة العائمة بانتظام بمثل هذه الأمواج، لكنّ تواترها وشدّتها أصبحا أكثر حدّة مع تغيّر المناخ. مشروع حواجز عائمة من شأنه أن يحمي المدينة من ارتفاع منسوب المياه هو قيد الإنشاء منذ 20 عامًا ومن المُفترض أن يبدأ تشغيله قريبًا. يتلهّف السكّان إلى اكتمال تنفيذ هذا المشروع أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

---

[1] أكوا ألتا، أي حرفيًا «الماء العالي»، هو المصطلح المستخدم في إقليم فينيتو بلهجة البندقيّة لظاهرة المدّ والجزر الاستثنائيّة التي تحدث دوريًّا في شمال البحر الأدرياتيكيّ بين فصل الخريف وبداية الربيع.

ما بعد العاصفة

الجمعة 31 كانون الأوّل/ديسمبر 2021.
مستشفى جيوفاني إي باولو.
مستشفى البندقيّة الحكوميّ.

توقّفت العاصفة منذ ساعات عدّة. تراجعت حدّة الرياح واسترسلت شمس شتاءٍ هادئٍ على البحيرة. كان من الصعب، إذا ما اكتفينا بالنظر إلى لون السماء، تخيّل هول الكارثة التي دمّرت البندقيّة للتوّ. تحت نوافذ المستشفى، يمكن سماع نشاط السكّان وأصحاب المتاجر والمطاعم المنهمكين بالتجفيف وإصلاح ما يمكن إصلاحه. كانت المياه تنحسر ببطء. ستستغرق المدينة وقتًا طويلًا لتضميد جراحها ويبدو الغد عسيرًا. باعة الأحذية المطّاطيّة وحدهم، مثل «تجّار الحرب»، كانوا في حالة تأهّب لوضع بضاعتهم أمام سيّاح ساخرين كانوا، والابتسامة لا تفارق وجوههم، يشاركون صورهم على مواقع التواصل الاجتماعيّ واضعين تحتها هاشتاغات سخيفة.

موصولًا بالأنابيب، والضمادات تغطّي عظمة الطوق وأسفل البطن، فتح ماتياس تايفر عينيه من دون أن يعرف حقًّا أين كان. في مكانٍ ما في عالم النسيان، بين السماء والأرض، في مكانٍ للتكفير عن ذنوبه بلا شكّ. على أيّ حال، كان لهذا المطهر ألوانٌ جميلة. غطّت الأشعّة الذهبيّة غرفته وكان ملاكٌ أشقر بجانب سريره.

كان تنفّسه صعبًا وأنفاسه مُعرقلة قليلًا. التقت عيناه بعينَي لويز. الغمّازة على الذقن، النظرة المُشرقة، حدقتان لامعتان، انعكاسة مضيئة لشخصيّتها. بدأ كلّ شيء قبل خمسة أيّام في مستشفى في باريس، وانتهى كلّ شيء اليوم في مستشفى البندقيّة. فتح فمه ونطق:

– لقد نجحتِ في خداعي حقًّا.

انحنَت نحوه. حاول التحدّث بصوتٍ أعلى:

– بالطبع، لم تكوني بالصدفة في بومبيدو. منذ البداية كنتِ تعرفين من أنا...

أومأت لويز برأسها.

– كانت جدّتي البيولوجيّة، مارغاريتا باكر، هي التي أخبرتني بالحقيقة عندما ذهبتُ لرؤيتها في روتردام العام الماضي.

– لم تخبرني أليس أبدًا أنّها حاملٌ منّي، أقسم تايفر.

– أعرف، أجابت لويز.

– لم أسمع عنها منذ عام 2003.

– تُوفّيت قبل بضع سنوات. سأخبرَك بالتفاصيل لاحقًا.

قرّب تايفر يده من قلبه.

– لا أظنّ أنّني سأنجو هذه المرّة.

هزّت كتفيها.

– توقّف عن التذمّر. تبدو في أحسن حال.

– ماذا؟ سأل مخنوقًا.

– طعنتان أو ثلاث طعنات في أحشائك، أنت معتاد على ذلك الآن. ليس شيئًا يُذكر بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

محكمة قضايا الشرف

الخميس 23 كانون الأوّل/ديسمبر 2021.

كما كلّ صباح عندما تكون في البندقيّة، جاءت بيانكا ساباتيني لتناول قهوتها في مقهى باستيتشريا ريغاتسوني. كان المسؤول، جيانلويجي، يحجز لها دائمًا المقعدين نفسيهما عند طرف الطاولة العالية. كانت بيانكا تجلس وتقدّم لنفسها ساعة من الشرود الذهنيّ، مُستغرقةً في التفكير في المسائل التي تؤثّر على عائلتها أو عملها.

اعتقد الجميع أنّ ليساندرو كان العرّاب وربّ الأسرة، لكنّ ذلك لم يكن سوى خرافة. الرئيسة، هي. دائمًا. كانت كلّ القرارات المهمّة في يدها. خاصّةً القرارات الأصعب. كانت تصدر الأحكام بضميرٍ حيٍّ، من دون أن يرفّ لها جفن.

في ذلك الصباح، دفع رجلٌ يرتدي معطفًا أحمر باب متجر الحلويات وجاء للجلوس بجوار بيانكا.

استُدعي هنري فولبين، الرجل ذو المعطف الأحمر، باكرًا لأنّ بيانكا أرادت إحالة قضيّة إلى محكمة قضايا الشرف. وضعَت أمامه ملفًّا أعدّته بنفسها بعناية يلخّص الادّعاءات المُوجّهة إلى أنجيليك شارفيه.

– لم تتعرّض عائلتنا يومًا لاعتداءٍ من هذا النوع، قالت بيانكا بنبرة جليديّة.

خفض فولبين رأسه نحو الملفّ ولم يستطع الامتناع عن إلقاء نظرة على الأوراق الأولى. كانت عبارة عن تقرير تشريح جثّة ماركو ساباتيني. لُوّنت بعض المصطلحات بالأصفر الفلوري: «حقن كلوريد الكالسيوم»، «رجفان»، «فعل تسميمٍ واضحٍ».

– إنّ مكان هذه الفتاة ليس على الأرض، تابعت بيانكا، بل في الدائرة التاسعة من الجحيم، بجانب الخونة والقتلة.

– سيصدر الحكم في أقرب وقت ممكن، أكّد فولبين.

كان على وشك المغادرة عندما أمسكته بيانكا من كمّه.

– لديّ خدمة أُخرى أطلبها منك.

أخرجَت ملفًّا ثانيًا من حقيبتها.

– لا أطيق الخونة، لكنّ أصحاب برج الميزان يثيرون اشمئزازي أكثر، قالت وهي تسلّم الحقيبة المصنوعة من الورق المُقوّى إلى الرجل ذي المعطف الأحمر.

أزال فولبين الأربطة المطّاطيّة. احتوى الظرف على اسمٍ وصورةٍ فقط. صورة لشابّ يبلغ من العمر ثلاثين عامًا بجمجمةٍ صلعاء ولحيةٍ متناثرة يرتدي قميصًا كان من المفترض أن يكون مضحكًا بالكتابة المطبوعة عليه: «يجب أن ننقذ كوكبنا، فهو الوحيد الذي يقدّم لنا البيرة».

وفاة صحافيّ بعد حادث سكوتر

2 كانون الثاني/يناير 2022

لو باريزيان

صدمت سيّارةٌ الصحافيّ كورنتين لولييفر البالغ من العمر 34 عامًا عند كيه دو جيمابيس (الدائرة العاشرة) أثناء ركوبه السكوتر . بعد الاصطدام، فرّت سيّارة – بي أم دبليو X4 سوداء يقودها وفقًا لشهود عيان رجل يرتدي معطفًا أحمر – من دون أن يتوقّف.

عندما وصل رجال الإطفاء، كان زميلنا قد تُوفّي. فُتح تحقيق، عُهد به إلى الهيئة القضائيّة المسؤولة عن الحوادث لمحاولة تحديد الظروف الدقيقة للمأساة.

في الأشهر الأخيرة، تضاعفت الحوادث المُميتة التي تتعلّق بدرّاجات السكوتر في العاصمة. يشعر العديد من الباريسيّين بالغضب من الفظاظة الناتجة عن هذه المركبات ذات العجلتَين وتراخي قوّات الأمن التي يبدو أنّها تخلّت عن فرض الحدّ الأدنى من النظام. من ناحية البلديّة، نلاحظ تنصّلًا

من المسؤوليّة تجاه المشغّلين الخاصّين المسؤولين عن درّاجات السكوتر الذاتيّة الخدمة، المُتّهمين بعدم بذل جهودٍ كافيةٍ لتنظيم السرعة وأماكن ركن الآليّات.

سيرنكس

باريس.

غار دو نور.

تشرين الأوّل/أكتوبر 2003.

ليلة الجمعة. يقف حشدٌ من الناس على الرصيف لاستقلال قطار الخطّ 4 باتّجاه بوابّة أورليان.

كان ماتياس تايفر، البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا، عائدًا إلى منزله في مونروج. كان قد أمضى بداية المساء مع شريكه في التحقّق من حجج غياب باراباس في قضيّة قتل أثّرت على الجالية الماليّة في مونتروي. تسلّل بين المسافرين. نظرة سريعة على ساعته: كانت الساعة العاشرة إلّا ربعًا. لم يشعر بالوقت يمرّ. أُمسية أُخرى ضحّى بها. لطالما استصعب الانتقال من العمل إلى الحياة المدنيّة. لطالما حمل تايفر في داخله شخصيّة مُنفردة، مسافة تفصله عن العالم، بعضًا من الحزن. هذا المساء، من د ون أن يعرف ا لسبب، سيطرت عليه ا لكآبة والشعـ ور بالوحدة أكثر من العادة.

جلس على أحد المقاعد البلاستيكيّة البرتقاليّة في انتظار القطار التالي، وسحب كتابًا صغيرًا من سترته: «الحبّ في زمن الكوليرا» لغارسيا ماركيز. قرأ بضعة أسطر، لكنّه سرعا ن ما رفع ر أسه، مُحا صرًا في ضجّة خليّة مترو الأنفاق. هذه عادة أصبحت جزءًا منه: أن يكون دائمًا

بالمرصاد، يقظًا، لضمان أمن محيطه. لاحظ مكيدة شابَّين ناشلَين، ولكن، رصده أيضًا الرجلان الداهيان وفرّا من دون أخذ باقي الغلّة.

دخل القطار المحطّة وتوقّف. فُتحت الأبواب ولفظت دفقًا من المسافرين. كانت ليلة المطاعم، ودور السينما، ولقاءات الأصدقاء، والمغادرة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

تردّد ماتياس بين مقطورتين. لم يكن يعرف أنّ ما بقي من حياته يبدأ هنا، في هذه اللحظة بالتحديد. أنّه يعيش إحدى اللحظات التي يمكن أن تغيّر حياته إلى الأبد.

تردّد ماتياس بين مقطورتين. هو لا يعرف ذلك بالطبع، ولكن في مقطورة اليسار، كان إلياس عبّاس ورفيقاه، وطعنات سكّين، وسنوات من البؤس، ورحلة إلى الجحيم. أمّا في مقطورة اليمين فمسارٌ غير خطر.

يسار أم يمين؟

فجأةً ظهرت على الرصيف قامة امرأة شقراء، في عجلة من أمرها، ترتدي سترة صفراء وبلوزة بيضاء. كانت تحمل على كتفها حافظة فلوت عرضيّ من ماركة بيرل وتبرز من حقيبتها مقطوعة تمكّن من قراءة عنوانها بسرعة وبشكل آليّ: «سيرينكس» لِكلود ديبوسي.

تلاقت العينان منهما مُتجاذبتَين. ركب ماتياس المقطورة نفسها. مقطورة اليسار. بسبب ابتسامةٍ، شعرٍ أشقر، بضع نفحاتٍ من عطر «ميس ديور»، وعدٍ بالموسيقى، لمعة ذكاء في العينين، غمّازة على الذقن.

دوّت الصفّارة. أُغلقَت الأبواب. انطلق القطار.

مُحدّدًا إلى الأبد مصير المسافرين على متنه.

أليس باكر

باريس.

أيلول/سبتمبر 2009.

جاءت فقط لرؤيتها. كانت قد استقلّت القطار في نهاية الصباح في روتردام وجالت في باريس بالقرب من حديقة «غران إكسبلوراتور» حيث تقع مدرسة لويز. هناك، انتظرت ساعة لقاء الأولاد بالأمّهات التي تأخَّرَت قليلًا. كانت هي الأمّ لكنّها لم تأتِ يومًا لتأخذ ابنتها من المدرسة.

لم تشعر أليس باكر أبدًا بغريزة الأمومة التي يمجّدها المجتمع، ولكن عندما قيل لها إنّها مُصابة بسرطان غير قابلٍ للشفاء، كانت هي من تبادرت إلى ذهنها أوّلًا: لويز، ابنتها البالغة من العمر خمس سنوات.

كان «والد» الطفلة، لوران كولانج، هو الذي جاء ليأخذ لويز في نهاية الدوام المدرسيّ. توجّها إلى حديقة لوكسمبورغ لتناول وجبة خفيفة. تبعتهما من مسافة آمنة حتى لا يتمّ اكتشافها. كوخ المراكب الشراعيّة الصغيرة، الحوض الكبير بأضلاعه الثمانية، ضحكات الأطفال، الكراسيّ باللون الأخضر المائيّ، رقصات طيور الحمام: لا يزال سحر حديقة لوكو يفعل مفعوله. لكنّ فتاةً صغيرةً هي التي أسرت عقلها. بريقٌ أثيريّ. بقدر ما بدا الأمر صعب التصديق اليوم، إلّا أنّها هي التي حملتها في بطنها لمدّة

تسعة أشهر قبل أن تلدها إلى هذه الدنيا . قبل أن يقرّر دماغها المجنون التخلّي عنها.

كان الكمال موجودًا إذن في هذا العالم تحت ملامح طفلة تقفز بين خيوط أشعّة الشمس المُتسرّبة من خلال أشجار الكستناء. شعرٌ أشقر طويلٌ مُتموّجٌ، نظّارة بيضويّة، ياقة كول كلودين المُسطّحة. هذا اللون الأشقر، ورثته عنها! لقد كانت شقراء وجميلة في الماضي قبل أن تصبح هذه العجوز الهزيلة والموشومة التي تجرّد داخلها من كلّ نور.

على الرغم من تحوّلها الجسديّ، تعرّف إليها لوران كولانج من بعيد. لم تخبر أليس شريكها السابق أبدًا أنّ لويز ليست ابنته البيولوجيّة. لقد غذّت الشكوك لوران حتمًا، لكنّه امتنع عن طرح الأسئلة وغرق بسعادة الأبوّة. الآن يمكنها أن تقرأ على وجهه الذعر من أنّها كانت هناك لتسلبه المعجزة التي بين يديه. لكنّها لم تأتِ من أجل ذلك. جاءت لرؤيتها مرّة واحدة أخيرة فقط. لتحفر صورة وجهها المشرق في ذهنها على أمل أن تطمئنها عندما يحين الوقت لتغرق في الظلام.

ربيعٌ لبنانيّ

بيروت.

حيّ الأشرفيّة.

نيسان/أبريل 2022.

كان تايفر قد وصل في اليوم السابق من باريس على متن آخر رحلة لشركة طيران الشرق الأوسط التي تأخّرت ثلاث ساعات. أقام في فندق صغير في منطقة الجمّيزة وغفا بسرعة على الرغم من الفراش البسيط والحرارة الشديدة.

لم يخصّص وقتًا للتجوال في شوارع العاصمة حتّى هذا الصباح. لقد عرف المدينة في الماضي، في منتصف تسعينيّات القرن العشرين، عندما كانت بيروت «سويسرا الشرق». في ذلك الوقت، أسرته هذه المدينة الرومانسيّة للغاية التي لم يكن لها مثيل.

اليوم، كان كلّ شيء قد تغيّر جذريًّا. كان بلد الأرز في حالة اضطراب، على مفترق أزمات مُتعدّدة. إنّ الانفجار المُزدوج الذي دوّى في مرفأ بيروت منتصف صيف عام 2020 دفع لبنان إلى كارثة غير مسبوقة. كانت الحياة اليوميّة أشبه بدرب الصليب. بدا تأمين الغذاء والكهرباء والبنزين والدواء عناءً حقيقيًّا. على الرغم من الاستسلام لقدرهم، حافظ الناس على الوديّة التي لطالما عُرفوا بها.

أمضى تايفر فترة الصباح في الدردشة مع من قابل في المقاهي والمحالّ التجاريّة.

الساعة الواحدة ظهرًا. كان الجوّ حارًّا ورطبًا. تشجّع وتسلّق درج مار نقولا. مئة وخمسٌ وعشرون درجة لوّنها الزمن تفضي إلى حيّ سرسق الأرثوذكسيّ، أطول درج في الهواء الطلق في الشرق الأوسط. كان المكان قد تضرّر بشدّة من جرّاء الانفجار. لم تكن قد التأمت بعد جراح العديد من المنازل والمباني. اندفع الشرطيّ إلى كنيسة القدّيس نقولا الأرثوذكسيّة المُحاطة بحديقةٍ عامّة كبيرة. جلس على مقعد بالقرب من نافورة كبيرة وانتظر. كانت لينا، كما علم، تأتي لتناول الغداء عندما يكون الطقس لطيفًا. كانت العيادة البيطريّة التي عملت فيها على مرمى حجر من شارع شارل مالك.

شعر بنبضات قلبه تتسارع. قلبٌ لم يكن له تمامًا. لقد أعاد الفيلم ألف مرّة في رأسه ومع ذلك بقي يرتجف مثل الورقة. في الأشهر الأخيرة، بفضل لويز، بدأ بإعادة بناء نفسه وإعادة حياته إلى المسار الصحيح. لقد استعاد بعض الحماسة، والقليل من الثقة بالحياة، بل وسمح لنفسه بالتطلّع إلى المستقبل. كانت لويز هي التي أقنعته بأنّ هذه الرحلة تستحقّ العناء وأنّه بحاجة إلى الحصول على تبريرٍ من لينا. لقد تروّى قبل أن يخطو الخطوة. اليوم، لم يكن مرتاحًا كثيرًا للفكرة لكنّه كان يعلم أنّه لا ينبغي الانتظار أكثر من ذلك. عليه أن يستفيد من التقدّم البسيط الذي بدأ يحرزه. فالمستقبل لا يمكن التنبّؤ به أبدًا، وهو قادرٌ على هدم قصرنا المبنيّ من ورقٍ بين ليلة وضحاها.

كان جالسًا على مقعده منذ عشر دقائق عندما ظهرت قامة لينا خلف نفّاثات الماء في النافورة. نهض تايفر، شجاعًا، مُتشبّثًا بما يتقنه أكثر من أيّ شيء آخر: السير نحو جبهة القتال بشجاعة، على استعدادٍ لمواجهة أيّ عاصفة.

فكّر في ستيلا بترينكو التي تشابه معها في هذه المقاومة رغم كلّ الصعاب، هذه القدرة على النهوض، ولو مجروحًا، مكسورًا، متروكًا للموت. فكّر في أنجيليك شارفيه التي ظنّت أنّها تستطيع تغيير مصيرها وفرض حظّها. فكّر في لويز، التي انبثقَت من ماضٍ لم تكن تعرف عنه شيئًا، هديّة الحياة غير المُتوقّعة التي أنقذته من الجحيم. الصورة التي ظهرت في ذهنه لوجه ابنته هدّأته وأعطته الأمل. سلّم قلبه حرّيّة انتقاء الكلمات، وتوجّه نحو لينا.

مقبرة مونبارناس

باريس.
8 تشرين الأوّل/أكتوبر 2022.

كان ماتياس قد نهض مبكرًا كما أصبح من عاداته. كان المنزل لا يزال غارقًا في سكون النوم، لكنّ المعركة على وشك أن تبدأ في غضون بضع دقائق. سرعان ما سينهض إعصاران، باتيست البالغ من العمر تسع سنوات وآنا البالغة من العمر سبع سنوات، ويكتسحان المنزل بألبومات با نيني ومكعّبات الليغو وشخصيّات هاري بوتر المُصغّرة.

في المطبخ، كان ماتياس مشغولًا: الزبدة، والعسل الكريميّ، والمربّى، وشرائح الخبز التي ينوي تحميصها، وعصير البرتقال الذي عصره طازجًا بيديه الكبيرتين.

تبدأ الدروس عند الساعة الثامنة والنصف. كان يصطحب كلّ صباح هاتين المُعجزتين إلى المدرسة: خمس وعشرون دقيقة سيرًا على الأقدام من المنزل إلى شارع إدغار-كينيه، ثمّ يكرّر السيناريو في الاتّجاه المعاكس كلّ يومٍ بعد الظهر.

بات الآن يشعر بأنّه في مكانه. كان جزءًا أساسيًّا من مشروع جماعيّ يتجاوز قدرته. أعطته الحياة المُشتركة مع لينا والطفلين معنى لوجوده. مرساة إيجابيّة لطالما سعى إلى إيجادها. لقد رمّم قلبه المُمزّق إلى ألف قطعة، قليلًا

على غرار الـ«كينتسوغي»، ذلك الفنّ اليابانيّ القديم لإصلاح الخزف المكسور باستخدام الغراء ومسحوق الذهب. بقيَت ندوبه ظاهرة ليس ككأسٍ فاز بها، وليس للادّعاء بسذاجة أنّ «ما لا يقتلني يجعلني أقوى»، ولكن فقط كعلامة تقبّل. كانت الضربات التي تلقّاها بمثابة اختبار، لكنّها لم تكسره إلى حدّ عرقلة أيّ أملٍ في المستقبل.

بعد أن يوصل الطفلَين إلى المدرسة، كان يعود غالبًا عبر مقبرة مونبارناس. هناك، يجول بين القبور. تعلّم خلال زياراته أن يحبّ صحبة الموتى، وأن يتحدّث إليهم، وكانت تلك المحادثات تشعره بالرضى.

سيمون فيرجيه، الرجل الذي يحمل قلبه، لم يُدفن هنا، ولكن في لوار-أتلانتيك. لا يُهمّ. لم يكن ماتياس بحاجة إلى هذا النوع من الاختلاط لأنّه كان يعيش بقلب سيمون في صدره. يُحدّثه يوميًّا تقريبًا عن أخبار الطفلين ولينا، ويخبره عن حياته الجديدة في باريس مع الحرص على جعله يفهم أنّه لم يحلّ محلّه، لكنّه إلى جانبهم يحميهم. وأنّه إذا هدّد خطرٌ ما عائلتهما يومًا، فسوف يضع جسده أمامهم كالدرع. سوف يتلقّى اللكمات، والطعنات، والصواريخ، والرصاص. وهذا أمرٌ يبرع فيه.

لم يكن ماتياس تايفر يؤمن بالله، لكنّه كان يقول في نفسه إنّ سيمون فيرجيه قد يكون، من فوق، يرى كلّ هذا ويشعر بالامتنان له.

المراجع

على الغلاف: ألفريد هيتشكوك، مقدّمة غرباء على قطار، لِباتريشيا هايسميث، لو ليفر دو بوش، 1991؛ صفحة 7: باتريشيا هايسميث، كتابات حميمة 1941-1995، مذكّرات ودفاتر، كالمان-ليفي، 2021/ جورج سيمنون، صورة تذكاريّة لجورج سيمنون: مقابلة مع روجيه ستيفان، كيه فولتير، 1989؛ صفحة 13: غوستاف فلوبير، رسالة إلى لويز كوليه، 23 أكتوبر 1851، المجموعة الكاملة؛ صفحة 23: هاروكي موراكامي، كافكا على الشاطئ، بلفون، 2006. صفحة 39: أندريه جيد، اللاأخلاقي، ميركور دو فرانس، 1902؛ صفحة 50: «أن تُحِبّ؟ ليس من عمرٍ مُحدّد لذلك. ثمّة فقط عمرٌ كي تُحَبّ. وهذا يمضي»، هنري بيرو، شهادة البدين، ألبان ميشيل، 1922؛ صفحة 57: لويس أراغون، «Bierstube Magie Allemand» في الرو اية غ ير المكتملة، غاليمار، 1956؛ صفحة 77: منسوبة إلى وليام شكسبير؛ صفحة 84: فيكتور هوغو، الرجل الضاحك، 1869؛ الصفحتان 89 و97: أناتول فرانس، جريمة سلفستر بونارد، 1881؛ صفحة 99: جورج سيمنون، تورّع ماغريه، بيس دو لا سيتيه، 1958. صفحة 111: لويس-فردينان سيلين، ميا كولبا، دينويل وستيل، 1936؛ صفحة 117: قواعد اللعبة، جان رينوار، 1939; صفحة 131: فيودو ر دوستويفسكي، الجريمة والعقاب، مكتبة بلون، 1866؛

صفحة 147: أنطون تشيخوف، العم فانيا، 1897، أكت سود، 2001؛ صفحة 163: أندريه مالرو، مرآة النسيان، لا مذكّرات، 1967؛ صفحة 173: بول فاليري، أزمة العقل، أن إر إف، 1919؛ صفحة 177: باتريشيا هايسميث، سمول جي، 1994، كالمان-ليفي، 2021؛ صفحة 191 : ألكسندر دوما، الفرسان الثلاثة، لو سياكل، 1844؛ صفحة 203: جان جيونو، البحث عن السعادة، غاليمار، 1988؛ صفحة 219: جيرزي كوسينسكي، الطائر الملوّن، فلاماريون، 1966؛ صفحة 229: روجيه مونييه، جنّاز، أرفويان، 1989.

الكتّاب والأعمال الأخرى المذكورة

صفحة 21: المشاغب، فيلم لإدوارد مولينارو، 1973؛ صفحة 96: «S'il suffisait d'aimer»، سيلين ديون، كلمات جان جاك غولدمان؛ صفحة 124: «Il était un roi de Thulé»، فوست، أوبرا شارل غونو؛ صفحة 140: الإنسان «كومة أسرار صغيرة بائسة»، أندريه مالرو، أشجار الجوز في آلتنبورغ، غاليمار، 1948 / «ما من سرٍّ إلّا وتكشفه الأيّام»، جان راسين، بريتانيكوس؛ صفحة 167: شون لورينز؛ صفحة 268: عن فنّ الـ«كينتسوغي»، قراءة النصّ الجميل لِكريستوف أندريه في مجلّة كايزن عدد 33، 2017.

تلبيةً لما تتطلّبه المشاهد في الرواية، بعض ما ذُكر يختلف وصفه بعض الشيء مُقارنةً بالزمان، مثل دولاب الهواء الكبير في حديقة التويلري (صفحة 57)، أو التّجهيز الفنّي لِكريستو وجان كلود (صفحة 163)، أو مشروع الوحدة التجريبيّة الكهروميكانيكيّة Mose في البندقيّة (صفحة 252).

الرسوم: © ماتيو فوريشون